عزيز شراح

كُيُومَة إِكستازي

رواية

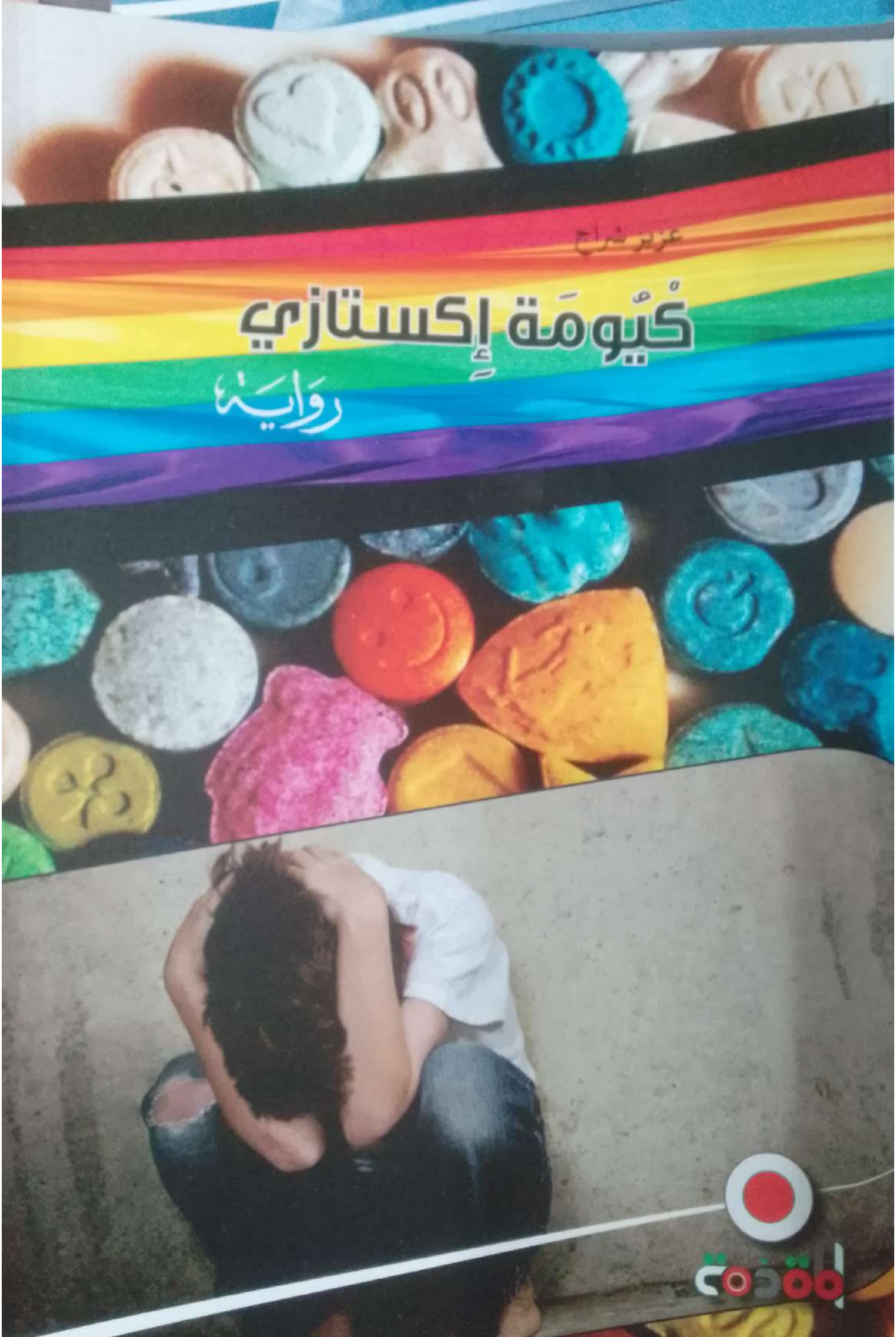

اقرأ قدر ما تشاء

ولكن إن لم يكن سلوكك يليق بمعلوماتك

فانت جاهل

سعدي الشيرازي

كُيُومَة إِكستازي

المدمن شخص يصرخ مستغيثا في وسط جمع من الصم والحمقى

الهلوسة هي ذاك العالم الفسيح الذي نُسافر إليه دون جواز سفر، دون قيود، دون حواجز في رحلة هروب من مجتمعٍ قاسٍ أو من مجتمع لم نفلح في فك شيفرته والتواصل مع سُكانه، ربما هي رحلة بحث عن الذات، عن العدالة الاجتماعية المفقودة، عن الحب، عن التوازن...، ربما نجد هناك الطمأنينة، الإحساس بالأمان، ننسى كل آلامنا، أوجاعنا، هُمومنا لكنّنا عندما نعود إلى واقعنا المُر لحظتئذ نكتشف أن ما عشناه في تلك اللحظات التي لا تتجاوز في الغالب سويعات قليلة، والتي تمر مَرّ البرق، نكتشف أن ما عِشْناه خلالها مُجرد حلم، مُجرد سراب، لكنه يبقى بالنسبة إلينا على الأقل أو بالنسبة إليكم جميعا حُلماً يستحِقُّ أن نُناضل من أجل تحقيقه. لذلك لا تستغربوا عندما تَجِدُوننا نُعاود الكَرّة تِلْوَ الأُخرى لمُعانقة تلك الجنة التي اكتشفناها نحن فقط، زُمرة المُدمنين كما تُسمّونَنَا، وزُمرة المسافرين الحالمين المتمردين على واقع أليم كما يجب أن نُسمي أنفسنا.

.

أحمد العربي "إيراتيك"

26 عاما من عمري

دبلوم معلق على الحائط

وجه أميل إلى القبح منه إلى الجمال

فقر مدقع متوارث عبر أجيال

جيب فارغ ينتظر أهل البر والإحسان

جسد يشتعل بالرغبة يعيش الكبت والحرمان ...

ماذا تنتظر مني أيها المجتمع وكيف تريدني أن أكون إنساناً

أرى بندقية تستحثني تطلب مني أن أمسك بالزناد وأُعلن العصيان

قبل أن أصل إليها وجدت حية زرقاء صفراء ...ابتلعتها فأنستني من أنا أنستني البندقية والمجتمع أنستني الماضي، الحاضر والمستقبل، وأنستني أنني إنسان.

لولا حبوب الهلوسة، المخدرات، كرة القدم، التدين المشوه... لقامت أكثر من ثورة كل يوم. "

أنا الذي وُلدت في زمن غير زماني. وُلدت في مكان غير مكاني، وُلدت لأشقى لا غير. وُلدت لأجد في استقبالي عالما مُشّوهاً قبيحاً. وُلدت مسلُوب الإرادة أمشي بقوة الدفع لأزيد من قبح هذا العالم البائس المليء بالحمقى ومسلُوبي الإرادة أمثالي.

شاب أنا، حلُمت كما حلُم الجميع بِغد، بمستقبل باهر، بحياة سعيدة، حلمت ببيت صغير... لم أحلم قط بقصر وخدم وحشم. بيت صغير يؤويني أنا ومن أحب لا لا لا، الحب ليس لأمثالنا، بيت يؤويني أنا ومن ترضى العيش معي. حلمت بوظيفة، بعمل شريف يَقِيني مذلّة السؤال اليومي لوالديَّ اللّذين أنهكهما الدهر. لم أعد أشعر بالخجل وانا أتسول الأصدقاء في الشارع، في المقهى...

-حسونة سيجارو بالله

-كيومة باش نشرب قهوة توا نخلص من بعد، ما يسالش؟

غاب الإحراج الذي أحسست به أول ما بدأت رحلة التسول الملعونة تلك. نعم هذه هي الكلمة الأصح لما أنا فيه. ما أفعله كلّ يوم هو تسوّل بكل ما تحمل الكلمة من معنى، حتى عندما يعتذر بعض الأصدقاء أحياناً لعدم توفر السجائر عنده، لحظتئذ أمُرّ دون حرج بمن أجده بجانبي، قد أطلب سيجارة من رجل لا أعرفه بتاتا يكفي أنه من رُواد مقهى المعراج. كم من الأشياء الجميلة ماتت بداخلي في تلك الفترة لم أكتشف التحول المريع الذي طرأ على كياني أبدا.... ماتت بداخلي أجمل معاني الإنسانية، هم من قتلها أولئك الذين يحددون مصيرنا ساعة باسم الله وساعات أخرى بأسماء عدة كلها مستعارة....

حلُمت... حلُمت... لكنني لم أجد مما حلمت به إلا الأحلام، الفراغ، الدمار، البطالة، الكبت، العوز. اصطدمت بكل هذه الأشياء فجأة دون سابق إنذار في الوقت الذي اعتقدت فيه أو آمنت بنجاحي، وأنني سأجني ثمار الكد والاجتهاد على سنوات طوال من المثابرة والتحصيل. كانت ثماري بطعم العلقم... كان حقل أحلامي بوراً في سنوات عِجاف.

رُوتين يومي لا أ جد له وصفاً، تمتزج فيه مجموعة من الأحاسيس المتناقضة.

أستيقظ كل يوم في الساعة الحادية عشر صباحاً، يكون نصف يوم قد مضى مسجلا حضوره في حياتي عبثا.

كُلّ أيامي بعد تخرجي اللّعين الذي عقدت عليه آمالاً وآمالاً لم يعُد لها طعم في حياتي، أعيشها مُضطراً غير قابل لها، غير قابل لحياتي، تمُر الأيام ولها في النفس طعم التراب.

أصبحت الأيام تتشابه، أُعيد عيشها مُضطراً بنفس الوتيرة والتكرار. أستيقظ كل صباح ورأسي يكاد ينفجر من الصداع قبل أن أغسل وجهي وأطرافي. قبل أن أفتح عيني بشكل كامل أتحسس علبة السجائر فوق المنضدة. أشعل سيجارة وأنا على فراشي مُتحديا بذلك كل قواعد الصحة، هذا التحدي مُنبعث عن وعي تام بل عن رغبة دفينة في قتل النفس، أُدخن سيجارتي الأولى لعلّ دخانها يُسكت أوجاع رأسي، وأنا أترشف معها فنجان القهوة الذي تحرص أمي قبل ذهابها إلى العمل على وضعه في طبق مع فطيرة خبز باريسي لها منظر الكعكة الباريسية، لكنها مُشوهة كما كل شيء مشوه في بلادي، تصلح فقط لأن التقط لها صورة بهاتفي النقال اللعين وأكتب. "فطور صباح باريسي شهي". وأنا أترشف قهوتي وآكل شطيرة خبز باريسية ذات طعم غريب تشبه إلى حد كبير قتامة أيامي... بل شبابي الضائع وعلقمه. من سيَرى الصورة اللعينة لن يعرف كَمّ الدمار الذي بداخلي كما أنه لن يعرف الطعم الغريب للشطيرة اللعينة".

أمي. أمي المسكينة تستيقظ الرابعة من فجر كل يوم كباقي الأمهات التعيسات في بلادي. قبل ذهابها إلى العمل تكون قد نظفت المنزل وأعدّت فطور الصباح ووَجبة الغداء، وانطلقت في رحلة يومية مليئة بكل أنواع الشقاء.

فوق المنضدة ذاتها أتفحص ما تركته الوالدة أو "الحْنِينَة «_هكذا نُنادي أمهاتنا نحن معشر الفقراء والمهمشين في حي السعادة وفي تونس عُموماً_. ما تركته من قطع نقدية، مصروفي اليومي الذي يتراوح دائما بين دينارين إلى خمسة دنانير حسب الميزانية.

أنا أحمد العربي الملقب ب "إيراتيك" خريج كلية الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة، اسم على مسمى أحمد العربي مُجاز في الآداب العربية. يا له من تناسق وتطابق لا مثيل له !.

عامان من الدوران من مكتب تشغيل إلى آخر، من إدارة إلى أخرى، بين مدارس خاصة... طرقت جُل الأبواب إن لم أقل كل الأبواب. شاركت في كل المناظرات التي علمت بها، لكنني حسب النتائج رسبت فيها كلها. أنا الذي لم يرسب طوال مشواره الدراسي أرسب الآن، كل مرة. هناك خطأ ما، إمّا أن يكون ما كنت أدرسه لا علاقة له بما أُمتحن فيه الآن، أو أنّ هناك معايير أخرى للنجاح في هذه المناظرات لا علاقة لها بالدراسة.

كانت لهفة العمل بعد التخرج لا تُضاهيها لهفة. كنت أعتقد جازماً كما كان يعتقد زملائي، أساتذتي أنني سأنجح في اجتياز امتحان مناظرة الكفاءة وسأصبح أستاذاً للغة التي عشقت بحورها وعيونها وتعابيرها. ليال وأنا أُحضّر للمناظرة، كرّست لها من الوقت والاهتمام ما لم أكرسه للإجازة نفسها.

كنت أعتقد جازماً كما اعتقدت عائلتي، كما اعتقد أساتذتي، كما اعتقد أصدقائي، أنني أبعد ما يكون عن الرسوب. نجاحي كان مضموناً ومترسخاً في أذهان الكل، لكنه لم يكن على لائحة الناجحين في المناظرة اللعينة. كانت الصدمة وأنا أعاود قراءة اللائحة اللعينة للمرة الثالثة أكبر من أن أتحملها... ربما كان اسمي مختبئا في مكان ما في قائمة الناجحين هكذا ظننت. لا يمكن، لا يمكن، خرجت بعد اجتياز اختبارات المناظرة وأنا مطمئن أن كل شيء على ما يرام.

-ماذا حصل؟

-أية معايير يعتمدونها في التصحيح؟

في الأخير تقبلت الأمر رُغما عني، وَمنّيت النفس بمناظرة السنة المقبلة. لم أنم كما يجب، لأسبوع كامل حضرت كل نماذج المناظرة لسنوات عدة مضت. هذه المرة

أيضا كان اسمي غائباً غير موجود في القائمة المنتظرة، ما حَزّ في النفس وأدماها الأسماء الموجودة والمتألقة في تلك القائمة! منهم من حصل على الإجازة بميزة مقبول ومنهم من لم يكن بينه وبين لغة الضاد إلا الاحترام. هكذا ينجحون؟ كيف؟

لا أعرف!

لم أكن أتصور أنني سأتعثر هكذا مع ظهور نتيجة المناظرة الثانية. أجهضتُ حُلمي في تدريس الشعر الجاهلي وشعر محمود درويش ونزار قباني. نسيت ميزة حسن جداً المطبوعة على دبلوم الإجازة التي حرص أبي أن يضعها مُزينة في إطار زجاجي ويُعلقها على الحائط. صرت أتحاشى النظر إليها. بل في ساعات كثيرة عندما أكون وحدي لا أتوانى عن البصق عليها.

بعد الرسوب في مناظرة العام الثاني أدركت ما أنا فيه. وأن ما أحمله من مُؤهل علمي لا يعدو أن يكون زَاداً من السراب لعطشان في صحراء قاحلة.

إجازة في الآداب العربية والكل يجري ويلهث وراء كل ما هو غربي كأننا لا نعيش في دولة عربية، لم يعد لنا من العروبة إلا الاسم والأسماء فقط.

تصورت للحظة لو كان دبلومي في الآداب الفرنسية، الإنجليزية... لاختلفت الحال كُلّياً. سأجد بالتأكيد ملجأً يقيني لهيب البطالة ومذلة السؤال والحاجة. أغلب الشركات الموجودة والمنتصبة في بلادي غربية الهوى والهوية التونسية والأجنبية على حد سواء. ستجد أبواباً كثيرة تحتضنك آخرها مراكز الاتصال.

هذه الأخيرة أصبحت ملاذاً آمنا لكل من يتقن لغة أجنبية بغض النظر عن المؤهل العلمي. أنت تتقن لغة المستعمر إن لم تفُزْ تنجُ، هكذا تجري الأمور هنا وهناك وهنالك، آداب عربية هل هناك آفاق للعرب في هذا العصر لتكون هناك آفاق لآدابهم؟ يا لي من غبي أحمق...

أنا أحمد أنتمي لأسرة أقرب إلى الفقر منها إلى الغنى بكثير. أبي مُتقاعد كان يعمل حارسا للثانوية التي درست فيها في مدينتنا الصغيرة، والآن يعمل بائعاً في محل

للملابس القديمة، بينما تعمل أمي في معمل للنسيج. أنا أكبر إخوتي. لُبنى وأسامة. أنا أمل الأسرة، أنا حكيمها وشاعرها والمتحدث بلسانها. أنا الفارس المنتظر للأسرة الذي سيمحو عنها بعلمه وتحصيله لباس الفقر ويلبسها لباس المجد...

حرص أبي على تعليمي ومتابعتي عاقدا كل الآمال والأحلام أن يراني في قاعة الأساتذة لأي معهد. أبي الذي عاش طوال خدمته مع الأساتذة. ظل مُعجباً بهم بهندامهم بطريقة كلامهم، بكل شيء يخصهم، كان لا يراني إلا أستاذاً حتى صرت لا أرى نفسي إلا كذلك. عندما يكون راضياً عني دائما يناديني. "أستاذ أحمد".

يوم نجحت في البكالوريا رقص، رغم أن أبي معتاد على الرقص في جميع مناسبات العائلة لكنه ظل يتذكر رقصه بمناسبة نجاحي في الباكالوريا باعتباره رقصا مُميزاً وفريداً خرج متناسقاً ومعبراً عما يختلج داخله من فرح وسعادة حقيقية غمرت قلبه، يومها رقص أبي وهو يُمني النفس بأنه سيرقص رقصة أخرى مماثلة عندما يراني في قاعة الأساتذة لأي معهد. في نجاحي ذاك لم يكتف بالرقص، بل ذبح خروفاً استدعى أهل الحي كلهم والعائلة ليشهدوا نجاح ابنه البكر، كان عُرساً حقيقياً تلقيت التهاني والهدايا فيه كعريس حقيقي.

_أحمد ولدي خذا الباك.

عبارة ظل أبي يرددها طوال الصيف. وباعتباري فأل شؤم، هذه الحقيقة المرة أدركتها مؤخراً فقد تزامن دخولي الجامعي بتغيير النظام الدراسي.

أصبحت الإجازة ثلاثة أعوام بدل أربعة للحصول على الأستاذية. من غبائنا معشر التلاميذ، فَرِحنا، اعتبرنا أنفسنا من ذوي الحظ الكبير.

لم ندرك الحقيقة إلا عندما تطوع أحد الأساتذة بشرح ما نحن فيه واعتبرها إجازة مشوهة لا ترقى إلى مستوى الأستاذية في اللغة، بعبارة أدق: يا طلاب ستحملون دبلوم يعني بالحرف الصحيح "تقني لغة عربية" وليس أستاذاً للغة العربية هذا هو التعبير الصحيح والأدق لِمَا أنتم فيه وعليه.

إجازة تتضاءل معها فرص التشغيل. كما تتضاءل فرص النجاح، حتى وإن أصبحت أستاذا تُدرّس لغة الضاد. فأساتذة اللغة العربية مُهمشون منبوذون صار التعليم في بلادي سوقاً تُعرض فيه بضائع الأساتذة ولا مكان لبضاعة أساتذة العربية في هذه السوق. بضاعة غير مطلوبة غير مرغوب فيها.

دروس خصوصية في جل المجالات والتخصصات إلا اللغة العربية، نادر إن لم أقل منعدم وجودها في سوق هذا العصر، هذا لا يعني أن الدروس الخصوصية ظاهرة تعليمية صحية بل بالعكس.

صديقي مالك (البهيم) هكذا كان يُلقب في المعهد الثانوي "الفارابي" خريج كلية الاقتصاد والتصرف، كل يوم يتبجح أمامنا في مقهى "كيومة" بإعطائه دروساً خصوصية لتلامذة الباكالوريا. يتبجح بشهرته الكبيرة وكيف يحصل تلاميذ ته على معدلات مرتفعة في شُعبة الاقتصاد والتصرف بعد إشرافه على دعمهم، كيف صار أجر الساعات التي يقدمها يُعادل أجر أكبر الأساتذة. مُضيفاً بأنه يعجز عن استقبال تلاميذ جُدد، لأن جدول أوقاته يكاد يكون ممتلئاً. كيف يقصده أناس أحياناً من خارج المدينة.

- لقد نلت اسماً يقصدني القاصي والداني لإعطاء دروس لأولادهم وبناتهم.

دون أن ينسى بطبيعة الحال كيف يُثير إعجاب الفتيات بطريقة شرحه للدروس التي تعتمد على معايير بيداغوجيا حديثة لكنه يترفع عن الدخول في مثل هكذا علاقات لأنه لا ينسى أبدا أنه أستاذ ويجب أن يحترم شرف المهنة.

مالك البهيم اسم على مُسمى كل شيء فيه يدل على الغباء، وجه مدور كالقرص، بطنه المتدلية أمامه كأنه حامل في الشهر الثالث، أميل إلى القصر، سمنته الغريبة وهي سيمة من سيمات الأغبياء وفي أحيان كثيرة الأغنياء، تدل على أنه يأكل بشراهة كل ما يلقاه أمامه، يفتقد إلى أبسط مقومات الذوق في كل شيء في لباسه قد يتعاقد مع سترة عاماً كاملاً ليس لفقر في المال لكن لفقر في التفكير وانعدام الذوق. هذا يقصده القاصي والداني ليقدم لأبنائهم دروساً خصوصية...هزلت...كيف أصبحت أغبط بل

أحسد مالكاً أنا الذي لم يدق بابي أحد، لم يبدِ أحد رغبته في تلقي دروس دعم في اللغة العربية.

عندما أتذكر مالكاً هذا، وأتذكر تبجحه، أتحسر، نعم، لكنني في المقابل كنت ألوم نفسي أنا الذي لم يقرأ لغة هذا الزمان كما يجب، أنا الذي استسلمت لحبي الجارف للغة العربية ودرستُها. حبي للشعر الجاهلي للأدب العربي. جبران خليل جبران، تعلمت الحب بين صفحات "الأجنحة المتكسرة "وأنا طفل لم يتجاوز العاشرة من عمره، تعلمت أن أستمني وأنا مراهق بين صفحات "بداية ونهاية" لنجيب محفوظ...

كان يمكن لو كنت حكيماً بعض الشيء أن أفصل بين ما أحب وما يجب أن أدرس... كان وكان. مالك إجازة اقتصاد وتصرف، نعم يبدو هذا مقبولاً، فهو قد أحسن الاختيار واختار تخصصاً مطلوباً. لكن كْيُومَة. ماذا يملك من مؤهل؟ إذا كان مالك أقرب إلى الغباء منه إلى الذكاء، فهو حتماً ليس غبياً إلا في مخيلتي أنا المتفوق عليه حسب نتائج آخر العام. كما ساعده على النجاح حسن اختياره. لكن كيُومة كان غبياً بأتم معنى الكلمة، أمضى في معهد الفارابي أكثر من خمسة أعوام تشارك مع كل تلاميذ تلك الحقبة مقاعد الدراسة، أهّلَه هذا ليكون صديق الجميع. في الأخير يتبختر في سيارة فخمة، بينما كنا نحن نجد ونجتهد في الجامعة لحصد ثمار النجاح، كيومة اختصر المسافة وعرف قبل الجميع من أين تُؤكل الكتف في هذا الزمان الأغبر وهو الذي لم يجتز الباكالوريا. الأكثر من ذلك تم طرده من المؤسسة لسلوكه المُشين بل هناك من تحدث بأنه كان يبيع الحبوب المُهلوسة هناك.

صحيح أن عائلته غنية لكنه استطاع في وقت قياسي أن يرسم طريقه بمفرده بعيداً كل البعد عن دعم أبيه الذي استفاد منه في البداية فقط، أبوه بنفسه اندهش كالجميع من العبقرية التي لازمت أو ظهرت على ابنه فجأة دون سابق إنذار، لا يخفي الأب هذا الاندهاش، بل يقوله أمام القاصي والداني في عبارته المشهورة:

-والله لا كان في بالي باش يولي هكا ما كنتش نتصور كان متعبني برشة.
عندما بدأت الألسن تتحدث عن نشاطات كيومة المشبوهة تسارع الكل لدرء التهمة عنه. كيُومة من أسرة غنية لا تأتي أفعالاً كهذه، هو في غنى تام عن هكذا أمور. مكيدة هي من أعدائه. رغم أن إدارة المؤسسة قامت فعلاً بطرد كيُومة من معهد الفارابي. لكنه لم يذهب بعيدا. افتتح مقهى "المعراج" أمام المعهد مُتحدياً بذلك كل القوانين التي تحظر نشاطاً مثل هذا أمام مؤسسة تعليمية. لم أفهم مغزى الاسم إلا بعد أن جربت حبة "الاكستازي"
همس كيومة في أذني: أنت في طريقك إلى المعراج صديقي ستلتقي أحلامك كلها هناك حاول أن تحصل على إجابات لا تضيع الفرصة.

أحلام الفقراء

إن مجتمعنا اللئيم يخلق أسباب الفقر والعاهة من جهة، ثم يحتقر المصابين بهما من جهة أخرى. وبذا ينمي فيهم عقداً نفسية لا خلاص منها.

على الوردي

" العقول التي تكبلها بطون جائعة مقهورة غير قابلة للتحرر"

أبي وأمي لخمس وعشرين سنة جمعهما حلمان اثنان اتفقا عليهما وسَخّرا كل مجهوداتهما الفكرية والمادية من أجل تحقيق هذين الحلمين. عندما يتحدثان بشكل جدي لا يتحدثان إلا عن هذين الحلمين. أنا والمنزل المزمع بناؤه.
عندما كنت أسمعهما يتحدثان عني يتولد لدي إحساس بأنني نابغة العصر، شيء آخر، مُنقذ العالم، المهدي المنتظر، يحلمان بيوم تخرجي.
-إن شاء الله يتخرج أحمد ويلتحق بوظيفته يكون المنزل قد اكتمل، وإذا أراد أن يسكن أحمد معنا، وهذه أمنية أخرى، فما عليه إلا أن يُشيد قصراً آخر فوق القصر المزمع تشييده.
وتُشدد أمي وهي توصي أبي.
_ حذار يا سَاسِي قل للبنائين أن يجعلوا الخرسانة قوية لتستحمل طابقا آخر، انتبه إلى غشهم لا تدع عينيك تغيبان عنهم لحظة واحدة

_ هذا كلام يا امرأة. سأتعاقد مع مقاول ذي سمعة جيدة وسأراقب تخليط الإسمنت مع الرمل بنفسي.

سيعتقد السامع لكلام أبي وأمي أن المنزل المزمع تشييده سيكون خارقاً، فيلا، قصر، شيء من هذا القبيل لا يحلو لهما الكلام إلا عليه، أحيانا ينصبان نفسيهما مهندسين.

هنا ستكون "بيت الصالة "لا ينسيان دوما أنّ غرفتي كانت ركيزة من ركائز المنزل، في الأخير قررا الاستغناء عن تصميم المهندس باعتبار تصميماتهم كلّها لا تُلبي الحاجات المطلوبة، وأن النقود المخصصة لتصميم المهندس وورقته التافهة، البناء أولى بها. يؤكد أبي بكل ثقة في النفس أنه يستطيع أن يُصمم بنفسه منازل المدينة كلها.

- مهندس. كلام فارغ.

كنت مُتلهفاً لهذا المنزل الحلم. كنت أتلهف الخروج من بيت جدتي. البيت المفتوح على كل فصول السنة تجدها تسكن معك بخريفها وشتائها وربيعها وصيفها، يُمكّنُك بيت جدتي من التمتع بكل صغيرة وكبيرة في أي فصل، يجعلك تستنشق عواصف الخريف الغبارية تدخل دون استئذان إلى خياشيمك وأنت متحصن في غرفتك. كما توقظك في الصيف أشعة الشمس الحارقة رغماً عنك.

أما الشتاء فهو عذاب حقيقي، تكون مجبرا إذا أمطرت أن تُغير ملابسك إذا كنت مضطرا للذهاب إلى بيت الراحة، أما الدش فيكاد يكون مستحيلاً في فصل الشتاء.

بيت "عَرَبي" يتكون من ثلاث غرف تحيط ببهو كبير فسيح غير مُغطى، تتوسطه شجرة الليمون التي نستظل تحتها في الصيف، وننام تحتها في أغلب الأحيان. غرفة جدتي، صِرت أنام معها عندما بلغ عمري ستة أعوام لأفتح المجال لأختي لبنى وأسامة ليتشاركا الغرفة مع أبي وأمي. أما غرفة ما يُسمى عبثا وكذبا بغرفة الضيوف والتي يُميزها التلفاز الذي لم أستمتع

بمشاهدته وحدي البتة، تلك الغرفة المُخيفة التي تجمع سهراتنا، كانت مُخيفة بالنسبة إلي. حاول أبي وأمي جاهدين إقناعي بالنوم فيها، دون جدوى. لا أجرؤ على الدخول إليها وحدي في النهار، فما بالك في الليل يُخيل إليَ من قصص جدتي أن روح جدي ما زالت تسكُنها وهي تؤكد دائماً أنها تراه هناك. ويطلبون مني أن أنام فيها.

تُشكّل أيضا منفى لأبي عندما تكون أمي غير راضية عنه، قد يرابط هناك أسبوعاً كاملاً وعندما أسأله هل رأى جدي وقابله. كان يجيب:

-والله يا وليدي السكن والنوم مع جدك أهون بكثير مما كنت فيه. مشيراً بحذر إلى غرفة أمي. أدركت متأخرا مزاحه. دون شعور منه، كان يُنمي في الإحساس بالخوف من الليل والأشباح.

كنت مُتلهفا إلى المنزل الجديد أكثر من الجميع، بل كنت استعجل أبي وأمي متسائلا عن موعد انطلاق الأشغال. أسرح بأحلامي بعيدا مُتخيلاً بأنني سأعيش في منزل يشبه المنازل التي أراها في التلفاز، لم يسبق لي أن دخلت منزلاً فخماً. نحن أسرة نرتبط بعقد مزمن طويل الأمد مع الفقر، العائلة كلها بأعمامها وأخوالها بقريبها وبعيدها.

كنت أتخيل غرفتي بسريرها ومنضدتها ودولابها المليء بالملابس والمكتب، نعم أهم شيء المكتب كان يدغدغ أحلامي هذا المكتب بكرسيه المتحرك وشاشة الحاسوب أمامي. نعم كان هذا وعد أمي وأبي لي. أنا نجم العائلة تربيت هكذا أخي وأختي وصيفان فقط لملك بتاج زائف هو أنا.

المسكينان لم ينالا حظّهما من التعليم. أسامة تعثر في الابتدائي ولبنى في الإعدادي. تعثرا ليس لعيب فيهما. بل ما كانا يستطيعان أن يكملا أكثر.

غياب تام لأي تأطير. أمي اليوم بكامله في العمل تغادر في الصباح الباكر إذ لم تنجل بعد ظلمة الليل، وتعود ليلاً، في الشتاء تكون حالتها أكثر عصبية من أي فصل آخر. أمّا أبي فلم يكن مُضطرا للخروج مبكراً باعتبار المعهد الثانوي لا يبعد عن المنزل أكثر من سبع دقائق مشياً على الأقدام، لكنه كان

دائماً يتهرب من توصيات أمي بالاعتناء بنا قبل الخروج، كان شديد الحرص كل صباح على ارتشاف فنجان القهوة المقدس في مقهى القدس الذي يُرابط فيها جمع غفير من أساتذة المعهد يتلذذ بصحبتهم معتمدا في البيت على جدتي التي لا ترفض له طلباً.

نجد أنفسنا دائماً في "حُوش" جدتي، نرتعش من البرد في الشتاء. وجدتي المسكينة البالغة من العمر 70 عاماً تشكو الروماتيزم، لم يكن باستطاعتها أن تقدم شيئاً مُهمّاً يُلبي احتياجاتنا، كانت كل التوصيات لصالحي. هذا كله خلق من أخي أسامة طفلاً متمرداً غدَا كثير الغياب عن المدرسة، يكفي أن تسأله جدتي فيجيب "المعلم غير موجود" ليُكمل نومه، لم تراسلنا الإدارة بل أتاح له نظام الارتقاء الآلي النجاح في الأعوام الأربعة الأولى لنصطدم به في الصف السادس الابتدائي عاجزاً عن كتابة جملة مفيدة.

أبي لم يتخلَ أبداً عن نظام حياته اليومي، قهوة في الصباح تستغرق حوالي خمس وأربعين دقيقة لو استُثمرت في المنزل لكان الحال غير الحال. أمّا في المساء فهو يغادر المعهد تمام السادسة مساء، يدخل البيت بسرعة، يُغير ملابسه ويأكل ما يجده. قليلة هي الأيام التي يسأل فيها عن أحوالنا حتى إذا حاولت جدتي أن تشتكي من أسامة فإنه يكتفي بالتهديد والتوعُد وهو يهم بالخروج مستعجلاً كأنه على موعد يومي لا يقبل التأجيل بتاتاً.

_ والله نرجع من القهوة ما نوريك يا أسامة.

كان هذا في نظر أبي أكثر ما يمكن أن يفعله لحل أي مشكل، فموعد المقهى المسائي في عُرفه مقدس لا يجب تفويته، حيث يعتبر أبي "طُرح الرامي" أكثر من مُقدس، كيف لا وطاولة لعبة الورق "الرامي" هي الوحيدة التي تُمكنه من الانتصار على الأساتذة كان دائم الافتخار بانتصاراته على معشر الأساتذة، إذا كانت الجولة لصالحه نعرف ذلك من ملامح وجهه وهو داخل إلى المنزل. دون أن يغفل ذكر مهاراته في هذه اللعبة وكيف يتغلب في أحيان كثيرة على خصوم من الدرجة الأولى،

أساتذة مادة الرياضيات يهزمهم شر هزيمة، لا يكتفي بذلك فعندما يكون خصم أبي عنيداً ومشهوراً ويحالفه الحظ في النيل منه يجلب معه حلاوة الانتصار فواكه جافة علبة شكولاتة ....

جولة الورق بالنسبة إلى أبي ركن من أركان الحياة اليومية لا يمكن الاستغناء عنها صيفاً شتاءً ثلجاً رعداً لا يهم، في الشتاء يعود حوالي التاسعة والنصف، العاشرة ليلاً، أمّا في الصيف فتمتد السهرة إلى منصف الليل أو أكثر.

تعود أُمي منهكة من العمل لتبدأ رحلة أخرى من الشقاء، كنس ومسح وطبخ لا تستطيع أن تستمع لأي شيء، بل تكون مُبرمجة كآلة. يحدث هذا في ظِل ما يُسمى بهتاناً تحرير المرأة، لم يتحرر منها إلا شعرها وسيقانها، أما هي كامرأة فقد قُذف بها إلى الشقاء مباشرة ودون تأشيرة.

المرأة التي يتحدثون عنها في وسائل الإعلام مُتبجحين أن هذا عصرها وأنها تحررت، لا تمت البتة بصلة إلى المرأة التي أعرفها في الشارع، في المنزل، في الحي... يُخيّل إليَ أحيانا وأنا أُشاهد الصور والتقارير أنهم يتكلمون عن نساء أخريات من عالم آخر لا يمت بصلة للعالم الذي نعيش فيه، نساء ممشوقات القوام، ترى في وجوههن علامات الرخاء والجمال ليس كوجه جدتي ويديها الكالحتين من طول العمل في الحقول دون تغطية اجتماعية ولا أي ضوابط للعمل، يقولون: تحررت المرأة من سلطة الرجل.

سلطة الرجل لا تعني أُمي في شيء هي من تتحكم في كل صغيرة وكبيرة في المنزل، وتستحق أن تكون كذلك. أمي لا تشكو من تسلط أبي. أمي ونساء كُثر أمثالها يشكين سلطة القانون المنظم للعمل في شركات عدة، يشكين القانون الذي يُجبرهن على العمل بأجور لا يقبل بها حمار في بلاد أوربا، أمي تكون مضطرة للعمل وهي حامل في شهرها التاسع والعودة للعمل بعد عطلة لا تتجاوز الشهرين. حرية المرأة عن أي حرية

تتكلمون يا سدنة الظلم؟ النظام الذي يعطي رخصة للمرأة لتبيع فيه جسدها في مواخير لا أعتقد أنه نظام جدير بأن يتكلم عن حرية المرأة. النساء اللواتي أعرفهن واللواتي يشكلن أكبر نسبة في بلدي يناضلن لتتحرر بطونهن وبطون من يحببن من الجوع. الجوع فقط. لم نرتق البتة إلى درجة نناضل فيها من أجل تحرر العقول." فالعقول التي تُكبلها بطون جائعة غير قابلة للتحرر أصلاً" كل ما يمكن أن نسميه ثورات انتفاضات عبر تاريخ مليء بالجوع والظلم كلها سُميت "بثورات الجياع".

أمي، لا تكاد تُشير الساعة إلى العاشرة ليلا حتى تكون قد أوت إلى فراشها صيفاً شتاءً، لا تخرج من هذه البوتقة السوداء. إلا في أيام السبت والعطل.

يوم السبت يوم مُهم في حياتنا، عيد بأتم معنى الكلمة، تعود أمي من العمل مُبكرا، نستطيع أن نرى وجهها، وأن نتحدث معها ونتعانق أيضاً. يوم السبت تسمعنا وتنصت لكل متطلباتنا بصدر رحب، بل تسعى جاهدة لتعوضنا نقص الأيام الأخرى، كل شيء في هدا اليوم مُميز خبز أمي، العشاء يكون مُميزاً ولذيذاً ومُتنوعاً، وجه أمي يتغير نعم تهتم به أكثر تعالج شحوبه وتربط شعرها إلى الخلف تظهر لنا امرأة رقيقة وجميلة في هذا اليوم.

أبي لم يتغير، نظام حياته اليومي هو هو. يوم السبت يُضيف جولة أخرى (قعدة خمرية) يعود في نفس موعده المعتاد وهو يحاول أن يتغلب على أثر السكر ويبدأ بعد العشاء من كل سبت مسلسل غريب وعجيب. يبدأ دائما بالشجار، نفس المقدمة، نفس الأسئلة، نفس الأجوبة، ونفس النهاية. ربما لعشر سنين مضت.

_ "إلا بقينا هكا بنيناها الدار وتلمت فلوسها بكري".

_ اسمع يا مرا أنا توا عامل كيف خليني شايخ.

_لا منسكتش. مش معقول هكا فلوس ماشية للشراب والقعدات ولادك أولى بها. أنا لا عندي لا ذهب كي النساء، لا نمشي لعروسات، لا نشري دبش حارمة روحي باش نخرج ولادي من عيشة الميزيريا هاذي ظاهرلي عاجبتك، يا راجل احشم رانا نرقدوا كي البقر كأننا في زريبة كلنا مع بعض يا راجل احشم

_ اش تحب نعملك؟ مايزيش نعطيك في شطر شهريتي

_ لا بابا مانيش نسكر بيهم الفلوس أنا نْلم فيهم إلا ما فيبالكش نحب الشهرية كلها ونعطيك مصروفك فاهمني إلا حبيت تولي راجل تعمل دار كيما ندادك.

_ أنا راجل وسيد الرجال وأنت تعرفي.

_ لا ظاهر.

_هيا حبي يزيتش عاد نحب نعمل وحيد.

_ احشم ولادك يسمعو.

_ والله وراس عيونك لي "بالمسكرة" ما نعطيك الشهرية الكل تي نعطيك عيني نحبك راهو.

_ بالرسمي تحكي سَاسي؟

_ هذا كلام ايجاني ايجاني...

منتصف الليل من كل يوم سبت مَثّل في حياتي مدرسة أُخرى، كان مُعجم أمي وأبي اللغوي فيه مختلفاً تماماً عمّا نعهدهما عليه بقية الأسبوع. لم أكن أعرف أن أُمي تحفظ كل تلك الكلمات الخليعة بل تملك كل تلك القدرة على قولها.

في البداية شكّل لي ذلك صدمة كبيرة، لكن بعدها اعتدت الأمر وصرت كل سبت أتصنع النوم لأشنف مسامعي من معجم أمي وأبي اللغوي الفريد من نوعه.

_أعطيني الز... فيسع يتفش نقتلك ساسي تعرف.

_يتفش هذا كلام هذه عص.. مش ز... خوذ قح....ي خود ني.. ني.. شيخ فيه شيخ حبي

من هنا أدركت مصدر الكم الهائل من الكلام القبيح المتداول في شوارعنا. لا أستغرب عندما يصف طفل أكله لِلُمجة بعملية جنسية

_ نك.. زوز كسكروتات اليوم.

النساء أيضا وربما في أحيان كثيرة أكثر من الرجال. أمي عندما تغضب تتفجر قريحتها أمام جدتي، أعمامي، الجيران يسمعون لا يهم تتفجر قريحتها عن كل أنواع المناكح والأعضاء التناسلية لا يقتصر الأمر على أمي فقط بل الرد يكون من الاتجاه الأخر بكلمة تحمل وصفاً جنسياً مُريعاً، نحن شعب نتحدث الجنس في كل شيء، حتى جدتي عندما تحدثك وربما تنسى مع من تتكلم تستعمل عبارات غاية في الدقة والخلاعة وغالبا ما يكون هذا كله في حالة الغضب مصاحباً ومقترناً بسب الذات الإلهية كأننا نعلن كُفرنا كل يوم بل نحن أيضا نُسمي ذلك كُفرا تصور لهجة يقترن فيها القبح بالكفر.

عندما انتقلت للنوم في غرفة جدتي وكان ذلك بعد اكتشاف أبي أنني أشهد عملياتهم الجنسية بصمت.

وأنا ابن السادسة من العمر بِتّ اشتاق إلى النقل الإذاعي لتلك العملية الجنسية، بِتّ أرهف السمع كل سبت لعلي أسمع شيئا مما كنت أسمع في السابق. أعتقد جازما أن أختي لبنى وأخي أسامة سينالان حظّهما مما نلت أنا.

لم تستسلم أمي. كان إصرارها أكبر من تَمنّع أبي. بات الأمر أكثر جدية. من ذي قبل تطور أسلوب المقاطعة عندها في الأعوام الأخيرة، بحيث حرمته لمرتين متتاليتين من سهرة السبت قضاها في بيت الصالة، مقاطعة كاملة من كل النواحي، لا حديث لا طبخ، حتى عندما نسأل عن شيء مهما كان تافها.

-برى لباباك هو راجل الدار....

تعود من العمل تنزوي في غرفتها دون أن تُكلم أحداً. استمرت مقاطعة أمي لشؤون المنزل شهراً كاملاً، لم تستطع جدتي المسكينة أن تملأ فراغ غيابها أو مقاطعتها.

ذلك الشهر فقط وأنا أستعيده الآن بكل تفاصيله، اكتشفنا ذاك الدور المهم الذي كانت ومازالت تقوم به أمي وكل الأمهات بتضحية وتفان كبيرين لا يمكن لأي أسرة في أي منزل أن تستمر في غياب الأم. أبسطها أن تجد جواربك نظيفة ومُرتبة في مكانها ولا تُكلف نفسك عناء البحث عنها، أن تجد تلك الأكلة التي تحبها مُقدمة على أحسن ما يكون دون أن تكلف نفسك يوماً عناء السؤال. كيف يتم إعداد كل هذه الأشياء؟ أن تجد المنزل الذي تسكنه نظيف الأثاث ومرتباً. الغريب أن هذه الأشياء أو الخدمات تُصبح مع مرور الأيام حقاً مشروعاً لكل أفراد العائلة نغضب لأبسط تقصير أو هكذا أصبحنا نراه.

-أمي ياخي لتو ماثماش فطور؟ زح مالا عيشة

-امي سروالي الدجين وينو؟

-أمي... أمي... أمي...؟ ؟ ؟

-دوماً هي من يجيب عن كل الأسئلة، عن كل الطلبات مهما كانت تافهة أو مهمة، بغضب أحياناً، بابتسامة كبيرة في غالب الأحيان، لكن دوماً بِحُب كبير وقدرة أكبر على العطاء.

في ذلك الشهر في تلك المقاطعة التي أعلنتها أُمي شبه الأُمية. أمي التي لم تتعلم لم تَنَلْ حقها كفاية في التعليم، لكنها امتلكت مَلَكَة عظيمة هي مَلَكَة الفهم التي تفوق في أحيان كثيرة المعرفة والتحصيل.

أمي وهي تُقاطع شؤون المنزل ومشاكله حُباً فينا لا كرهاً كما اعتقدنا بادئ الأمر عندما كنّا صغاراً. جعلتنا بمقاطعتها برفضها للنظام الذكوري المتفشي في مجتمعنا، نُدرك قيمة كل ما كانت تُقدمه إلينا بصمت وبحب.

أدركنا أن تلك الأشياء التي كُنّا نعتبرها تافهة ومن واجب أُمي أن تقوم بإعدادها، عرفنا أنها تستنزف كل جُهدها وطاقتها، ورغم ذلك كان ومازال يكفيها فقط لتنسى كل ذلك التعب أن ترى علامة الرضا على محيا كل واحد منّا.

في آخر ذلك الشهر رفع أبي الراية البيضاء، استسلم استسلاماً كاملاً قرّرَ أن يهجر الخمرة ليس كُرها لها، لكن المصروف الذي أصبح يأخذه من أُمي بعد أن تنازل لها عن كل مُرتبه، لم يعد باستطاعته تغطية تكاليف سهراته الخمرية الأسبوعية، أو كما تُسمى في تونس مصاريف "القعدة ".

ظل وفيا للعبة الورق المسائية فقط، في تلك الفترة بدأ يستمع لصوت الأذان، وأعلن صلاته، أصبح كالتلميذ المطيع يأخذ مصروفه معنا.

في تلك الفترة التي امتلأت فيها أمي حماسا وحيوية، أصبحت لُبنى أختي تُرافقها إلى العمل كمتربصة، رغم أن عمرها وقتها لم يتجاوز الرابعة عشرة ترافقها لِتُوَرّثها كرسي العرش على آلة الخياطة اللعينة، ستُعيد أمي إنتاج نفسها عذابها... لا غير.

اكتمل المنزل الموعود اكتمل عندما بدأت أُدرك أن ما يتحدث عنه والداي لا يعكس طموحي البتة، وأن ما يتحدثان عنه ويحلمان به ويسميانه منزلا لا يعدو أن يكون قفصاً مُغلقاً فوق منزل جدتي. الأول كان يُتيح لَنَا التفاعل مع عوامل الطبيعة وفصولها وهذا يتيح لَنَا التفاعل مع أفراد الأسرة، يكفي أن تطهو أمي أكلة حتى نظل نستنشق رائحتها إلى أن تمحوها رائحة الأكلة القادمة. ناهيك عن رائحة المرحاض، يكفي أن يكون مزاج أمعاء أحدنا مُعكرا حتى نتضامن معه مشاركين إياه تلك الرائحة الجميلة. كما أصبح النقل الإذاعي لعمليات أبي الجنسية على تردد أكثر وضوحاً من ذي قبل.

المهم حصلت على غرفة خاصة بي، أمّا ما بداخل الغرفة فلم أحصل إلا على الوعود. لا حاسوب ولا دولاب ولا سرير، كل شيء مُرجأ إلى أجل غير مُسمى، وأكثر من ذلك وُضِعت دَكّتان للنوم واحدة لي والأخرى لأخي أسامة. خُصصت غرفة أصغر من غرفتي لأختي لبنى، أمّا أسامة فقد فضل هجر غرفتي والنوم فيما يُسمى ظُلما وعدوانا تقليدا للغرب ليس إلا ب "الصالة" إضافة إلى غرفة أمي ذات الدولاب الإسمنتي مع أبواب خشبية تماشياً مع أحدث إصدارات الموضة الفقرية، ممر صغير يفضي إلى المطبخ وبيت الراحة. كل هذا من تصميم المهندس أبي العبقري.

عندما تتحدث أمي عن منزلنا أمام صويحباتها، يُخيّل إليَ أنها تتحدث عن برج العرب أو برج خليفة، دائما تتنهد مؤكدة أن ذلك يتطلب كثيرا من الوقت والصبر كي يكتمل، دون أن تنسى أن تُذكر السامع أنّه لولا حكمتها وحرصها لما كان هذا الانجاز العظيم. وتُكمل:

_ الحمد لله الواحد كمل دويرتو تهنّى.

الهناء عند أمي اقتصر على بناء منزل، لأكتشف فيما بعد أن هذا ليس فكر أمي فقط بل هو الفكر الشائع عند معظم الناس في مدينتنا إن لم أقل في بلدنا وتُصر كما تُصر أغلب الأمهات.

_ "أنا عاد نعودها إن شاء الله الا جا مكتوب بنتي لبنى ماعندوش دار لا لا لا حتى يكون مهندس عندو دار مرحبا وألف مرحبا دويرة يكنو فيها ريوسهم ياكلو حتى خبز وماء".

حي السعادة

.الزمن بطيء جداً لمن ينتظر... سريع جداً لمن يخشى... طويل جداً لمن يتألم... قصير جداً لمن يحتفل لكنّه الأبدية لمن يحب

تزامن اكتمال بناء منزلنا مع دخولي للإعدادية وانتقال عائلة حسونة إلى حيّنا، كُنّا نحن من يسكن حي السعادة القديم، في حين يُصر ساكنُو حي السعادة الجديد على فصله عن حينا، لكننا كنا مصرين على تسمية الحيين باسم حي السعادة. عندما يكونون لوحدهم يسمون حينا "حومة السوق"، يفصل بيننا شارع، من محاسن الصدف أن منزلنا مُطل على الشارع الذي يفصل الحيين مَا جعلنا أقرب بكثير إلى حي السعادة الجديد مقارنة بالمنازل الأخرى.

أتاح لي هذا أن أتصادق مع أولاد الحي الجديد وأن أكتوي بصحبتهم. أم حسونة تربطها صِلة قرابة بأبي. حسونة الذي أبهرنا هو وعائلته عندما عادت عائلته بشكل نهائي من فرنسا لتستقر في تونس. لكنَة تونسية جذابة لِباس أنيق سيارة... كل شيء فيه وفي العائلة مُغر حتى رَوان حُلم كل مراهق في حينا إن لم أقل في مدينتنا الصغيرة استغنت عن الاهتمام بأسامة الجوادي ابن الكولونيل، وانتقل اهتمامها فجأة إلى حسونة دون سابق إنذار.

ذلك الصيف ألهبت مشاعرنا الليلية خَنساء أخت حسونة بلباسها الصيفي العفوي الذي يكشف ما فوق الركبة، بل قد يرى الناظر المتمرس أحيانا التبان بألوانه الزاهية، انضمت إلى رَوان في أحلامي الليلية وأنا أمارس

العادة السرية، خَنساء فتاة تكبرني بأربعة أعوام جريئة إلى أبعد الحدود لا تتوانى عن فعل كل ما تفكر فيه دون حسبان العواقب، في ذلك الصيف أصبح حبها لمروان حديث الحي كله صغيره وكبيره.

لم أمتلك في تلك الفترة إلا التمرد على كل وصايا أسرتي ومحاولة التقرب من حسونة الذي أصبح في سرعة البرق صديقاً لأسامة الجوادي. أن يكون لك مكان مرموق في زمرة المراهقين تلك، أمر يحتاج إلى أشياء كثيرة لتثير انتباههم وتكسب ودهم. لباس أنيق، جمال جذاب، أسرة غنية ومعروفة... ونحن أسرة لنا ثأر قديم مع الغنى والجمال اللذين هجرانا كلنا إناثنا وذكورنا.

لم أكن أنا الطويل القامة بشكل مُنفر ووجه طويل وبشرة ذات لون بُني مُتسخ وشعر مجعد بالذي يمكن أن يُغري أحداً بمصادقته ذكرا كان أو أنثى. لست قبيحا، لكنني لا أملك ذرة جاذبية لأبدو في صورة أرضاها أنا نفسي فضلاً عن البحث عن رضاء الآخرين، أحتاج إلى ميزانية لأُعدّل من ملامح وجهي وهندامي. في ذلك الصيف أعلنت تمردي، اشترطت قبل دخولي المدرسة أو الإعدادية لباساً خاصاً أشتريه أنا بنفسي ومن المحل الذي يُعجبني.

رغم هذا التمرد المفاجئ لم يكن دخولي للإعدادية كما حلمت، لكنه كان أفضل مما سبق بكثير. اكتشفت في الأسبوع الأول ما معنى أن تكون متفوقاً في الدراسة، عوضني ذلك كل ما كان ينقصني، أصبحت محط اهتمام الجميع. شاءت الصدفة ذلك العام أن يجمعنا قسم واحد كأنه قسم أبناء حي السعادة. روان، حسونة أسامة، قيس، الحيدوسي، رَيونة، حويتة... كلنا البنات والأولاد من حومة السوق وحي السعادة، أضف إلى ذلك أبناء مناطق أحواز المدينة وبناتها، وهم تلاميذ تُسيطر على غالبيتهم النزعة الريفية، وغالباً ما يكونون منغلقين على أنفسهم ويكون اندماجهم

محتشماً، طبعا هذه ليست قاعدة عامة فمنهم من كنا نحن أبناء المدينة القرية نتملق صحبتهم إما لامتلاكهم مصروفاً ضخماً وكذلك نزعتهم التي تميل إلى الكرم منها إلى البخل أو لاجتهاد أحدهم اللافت في الدراسة.

ساهم اجتهادي وتحسن هندامي في تموقعي الجيد في الإعدادية إذ تكفلت عمتي التي تعمل في معمل الجندوبي للملابس القديمة "الفريب" بجلب أو بعبارة أدق باختلاس أو سرقة بالاتفاق مع أحد حراس الأبواب الكثيرة كل الماركات التي أحب من سراويل جينز وأحذية رياضية تخلى عنها إخواننا الغربيون لنستر بها عَوْراتنا وفقرنا الذي تسببوا فيه.

اعتُبر هذا حلا وسطا لميزانية أمي، وأرضى غروري بنسبة كبيرة جداً وخصوصا عندما بدا أسامة وحسونة يتساءلان ويستفسران بفضول عن الثمن والمحل الذي يبيع مثل هذه الملابس مُبديان إعجابهما بما أرتديه، في حين كنت أنا الذي تلقيت من عمتي أوامر صارمة بعدم الكلام والفصح عن مصدر ما أرتديه، اكتفي دوما بتمويههما.

_ نتفضح يبطلوني من الخدمة وأنت ترجع عريان قريان كيما العادة. سمعتني؟

شكّلنا أنا وقيس سنداً كبيراً لكل من حسونة وأسامة وخصوصا لضعفهما في مادة اللغة العربية، الأول قادم من فرنسا والثاني من مدرسة خاصة. كان الاثنان متفوقين بشكل مثير في الفرنسية والانجليزية رغم ذلك ظللنا أنا وقيس الأفضل حسب نتائج آخر العام الدراسي.

في الأسبوع الثاني من بداية الموسم الدراسي، زارتنا أم حسونة في القصر المُشيد طالبة مني مساعدة ابنها في المواد ذات الصلة باللغة العربية وهي تحاول جاهدة أن تحشو كلامها بأكثر ما يمكن من الكلمات الفرنسية المُشوّهة معتذرة بين الفينة والأخرى عن عدم تعودها الكلام بالعربية مبررة ذلك

_ 18 سنة غربة الواحد لسانو ستانس. آش باش نعمل بالله؟

خالتي مُنجية هكذا بِتّ أناديها، امرأة خمسينية أم لفتاتين وصبي هو حسونة. وجه خالتي منجية ما إن تراه لا تستطيع أن تنساه، تُميزه خالة سوداء كبيرة بين الحاجبين، تعتبرها هي دلالة الجمال، بينما يُؤكد أغلب الجيران أنها دلالة النحس والشر. كل ما فيها يُوحي بأنها شريرة كلامها هيئتها السمينة والأميل إلى القصر، أسنانها منتظمة لكنها مكسوّة بلون بني يجعلك تشك أول ما تراها أنها مدمنة على التدخين، لكن مع الأيام اكتشفت خطأ ظنوني من هذه الناحية. بينما تأكدت ظنوني في النواحي الأخرى، شُهرتها سبقتْها إلى الحي كونها امرأة مُسرفة ذات لسان طويل. أكدت زياراتي المتكررة لمنزلهم هذه النظرة بأكثر ممّا كنت أتوقع، لكن بالنسبة إليّ يكفي أنها أُم لملهمتي خنساء حتى أتجاوز كل ما يُقال وأسمع، كانت أول مرة أدخل فيها إلى منزل حقيقي هكذا. يتكون من حديقة صغيرة نباتاتها مزروعة بانتظام وجمال في أحواض من الفخار المنقوش، مساحة أرض صغيرة مستطيلة الشكل مُعشبة تتوسطها وردة ذات ألوان حمراء، شجرة الياسمين التي تتعانق مع شجرة الليمون ذات الحوض المزروع بالنعناع ذي الرائحة العطرة، ناهيك عن الطاولة المحاطة بستة كراسٍ تحت شجرة الليمون التي تُثير في النفس الرغبة في الجلوس والتمتع، الحديقة تتوفر على ممرين، واحد يُؤدي إلى منزل الطابق الأرضي والثاني يُؤدي إلى درج الطابق الأول عند انتهاء الدرج تستقبلك شرفة فسيحة تتكون من صالة عادية ومحاطة بنباتات من كل جانب، وستارة كبيرة قابلة للتحرك بشكل آلي تحجب الجالس في الشرفة عن المارة في الشارع وعن الجيران.

مدخل البيت بهو كبير تتمركز فيه ثلاث صالات حقيقية من أنواع مختلفة يمتزج فيها العصري بالتقليدي، بستائرها المتناسقة مع لون كل مجلس فوق كل صالة تتدلي ثُريا متلألئة إضافة إلى التحف الأخرى وخزانة زجاجية تحوي كؤوس الكريستال، عرفت فيما بعد أن العم صالح أب

حسونة جلبهما معه عندما كان يتابع دراسته في تشيكوسلوفاكيا قديماً.
سجاد إيراني ناعم، تلفاز مسطح كبير مُعلق على الحائط كأنه لوحة فنية فريدة. ممر طويل عريض مفروش بالسجاد الأحمر يجعلك وأنت تمشي عليه تحس بأنك نجم سينمائي يُوصلك إلى الغرف مع إضاءة خافتة.
كانت خَنساء جالسة تشاهد التلفاز مرتدية شوورت قصيراً يُريك ما تحب أن ترى من جسد الفتاة كل التفاصيل المثيرة كانت ظاهرة للعيان والمُثير أكثر أنها كانت تتكلم بشكل عفوي وهي تسب اليوم الذي قرر فيه أبوهم ترك فرنسا والعودة إلى تونس.
لم يثر دخولي عليهم أيّ شيء، لم تسرع إلى ستر جسدها عند دخولي، كما اعتدت أن أرى أمي وأختي تفعلان عند دخول أحد أعمامي، فما بالك بالغرباء، كانتا تتحصنان في غرفتهما ولا تغادران إلا بعد مغادرة الضيف الذكر، لم يثر دخولي المفاجئ في نفس خَنساء أي إحساس بالحشمة، بالعكس سلّمت عليَ وهي تطبع قبلة خفيفة عفوية على خذي جعلتني أتصبب عرقاً، قائلة إنها سمعت عني من حسونة بأنني تلميذ مجتهد وتتمنى أن نكون صديقين. كان كل شيء فيها مُثيراً للشهوة على الأقل بالنسبة لمراهق تربى في مجتمع يعتبر أن أغلي ما في المرأة جسدها.
كانت تلك أول مرة أرى فيها نهدين بهده الدرجة من القُرب وصاحبتهما لا تبدي أي رغبة في سترهما، عندما اقتربت وسلمت عليَ بقبلة عفوية على خدي، قطعت لي بذلك تذكرة اللا عودة وفرضت نفسها في أن تكون ضيفة شرف بل ملكة أحلامي. أزاحت رَوَان بالضربة القاضية ذهبت بشرة روان الغضة البيضاء وكلامها المملوء بالغنج أدراج الرياح ما أراه الآن شيء حقيقي لا يمكن أن أُتعب خيالي باستحضار ما تحت اللباس، يكفي أن أستحضر الصورة كما هي لأحصل على استمناء لذيذ.

خنساء فتاة متوسطة الجمال، بشرة أميل إلى السمرة منها إلى البياض، لكنها تملك قدرة عجيبة على أن تكون مُثيرة إلى أبعد الحدود بل ومرغوب فيها. استغلال فاحش لكل نقطة قوة تمتلكها أضف إلى ذلك العفوية وعدم إحساسها بجسدها هذا وحده كان كافيا ليصرع كل من يقابلها، عفويتها تجعلك تتمنى وتحلم أن تضاجعها، أن تلحس كل بقعة في جسدها، وأن تلحس بظرها، نهديها، فمها الذي يتكلم بلغة ممزوجة بشكل رائع بين الفرنسية والعربية يُنسيك قبح خالتي منجية وتغطرسها، هذه خنساء التي أثّرت وساهمت بشكل كبير في توجهي الفكري، كانت عبارة عن مدرسة أخرى في حياتي من لغة الجسد إلى لغة الفكر. فيما بعد سيجمعنا مذهب واحد وفكر واحد وصداقة عميقة أعمق بكثير من التي كانت تجمعني بأخيها حسونة.

في غرفة حسونة وجدت أحلامي نائمة، هناك في سبات عميق لا يوحي أنها تريد أن تستيقظ منه. غرفة متناسقة بسريرها ودولابها وستائرها وشرفتها الصغيرة ذات الكرسي الوثير والمطلة على حديقة الجيران من الخلف. كان المكتب بكرسيه المتحرك الأزرق وشاشة الحاسوب تتوسطه أكثر شيء حسدت عليه حسونة. في الركن مكتبة صغيرة تحوي كتبه وقيثارته السوداء.

غرفة حسونة مساحتها تعادل ربع منزلنا بالكامل، من تلك الغرفة بدأت رحلة صداقة أو رحلة عذاب حقيقية، تارة في بيت حسونة وتارة في بيت أسامة، بيت أسامة كان أضخم من بيت حسونة بكثير.

أسامة لا يملك غرفة بل جناحاً. أمه نسمة صيف باردة جميلة ورقيقة عندما تتكلم تعتقد أنها تُغني صوتها يحمل نبرات الحنان أكثر من اللازم، لا تملك إلا أن تحبها. تتجسد فيها جل معان الأمومة بأتم معنى الكلمة. في حين يثير فيك منظر أبيه الرعب. ليس قبيحا لكنه يحرص دائما على أن

يبدو مُخيفاً أخو أسامة الأكبر يسمى ذلك هيبة، لكنها ليست كذلك ربما طبيعة عمله كولونيل في الشرطة جعلته على هذه الهيئة، ومع ذلك فهو يملك طباعاً تتمنى معها ألا يعترض طريقك حتى بالسلام، على عكس أبي حسونة كان دوما لطيفا يستقبلك بابتسامة مشجعا ومعتبرا أننا عماد المستقبل.

-أنتم الرجال ربي ينجحكم.

كان حرصه شديدا بألا يحمل كلامه أي كلمة أجنبية، وهو الذي قضى أكثر من نصف عمره متنقلا بين عواصم أوربا، كان يترك فيك انطباع أنك تريد أن تلقاه وتسمع منه. في حين تثير فيك منجية زوجته نفس انطباع أبي أسامة تصورت العم صالح وهو زوج لأم أسامة وأبو أسامة زوج للسيدة منجية هكذا كانت الأمور ستسير، لولا أن أحدهم تدخل وقلب الأدوار، ربما سيشكلان كل منهما ثنائياً رائعاً يكمل أحدهما الآخر.

في بيت حسونة أو أسامة كنا ندرس نصف ساعة فقط، والباقي ألعاب على الحاسوب، كنت أتنازل على حصتي في اللعب لأداعب القيثارة فقد ظل تعلمها يغريني. حسونة أيضاً لا يتقن العزف عليها اشتراها كما قال شهوة.

ظلت سهام خادمة السيدة منجية لغزاً مُحيراً بالنسبة إلى شلتنا الصغيرة فهي دائماً تتنصت علينا كما تقتحم علينا الغرفة دون استئذان وهي تحمل صينية الشاي والحلويات تنظر ببلاهة كأنها تبحث عن شيء، وعندما تخرج تؤكد نفس الجملة التي لم تتعب من تكرارها كلما اقتحمت علينا الغرفة دون استئذان.

-قالك يقراو هههههههههه محسوب

-في بالي بيكم تتكيفوا.

كم مرة التفتنا إلى حسونة أنا وقيس.

_ هاذي نتاع ني... حسونة.

يكتفي الأخير بأن تحمر أذناه قبل وجهه دون أن يعلق، في حين أن أسامة ظل يتظاهر كلما تعلق الأمر بالحديث عن الفتيات بعدم السماع، أحيانا يطلب منا بشكل أقرب إلى الحزم بأن نكف عن حديث كهذا.

في منزل أسامة يختلف الأمر تماما، تحرص أمه على خدمتنا بنفسها رغم وجود خادمتين. من النادر أن نخرج من بيت أسامة دون أن نتناول وجبة. في بيت أسرته شربت جميع أنواع عصير الفواكه التي أعرفها والتي لم أكن أعرفها، كل الحلويات العربية التركية، الفرنسية، المغربية. كانت ضيافة أم أسامة من صنف خمس نجوم، تحيطنا بعطف منقطع النظير. مرة سمعتني أسعل نادتني وحدي إلى المطبخ، أعطتني الدواء بلطف الأم وحنانها طالبة مني أن احتفظ بالعلبة. دائما تنادينا:

-ولادي لاباس؟

-أشنو الأحوال؟

تسأل كل واحد منا عن أحواله وأحوال عائلته دون فضول.

في بيت أسامة تعلمنا شرب السجائر. أصبحتُ أمين صندوق السجائر الفاخرة، يتركها أسامة عندي خوفا من أبيه كي ندخن في الإعدادية ليقتطع لي بذلك تذكرة اللا عودة مع التدخين، وحده قيس لم يتورط رغم كل محاولات إغرائه ظل متمسكاً بموقفه. مرة أنا وهو وحدنا قال لي:

- أنت أهبل الآن تحصل على السجائر من أسامة وغدا عندما تُصير مدمنا. هل سيشتري لك أسامة السجائر مدى الحياة؟ هما لهما القدرة على شرائها بعكسنا لا تنسى نفسك "إيراتيك" لا تنسى.

_ إحنا زواولة فقراء.

ظل قيس دائما مُتميزاً عنا في كل شيء. شاب وسيم ذو عقل راجح، يفرض احترامه ببساطته واطلاعه، كنت أنا وإياه أكثر المستفيدين من المكتبة العمومية للمدينة الصغيرة. كان قيس لا يجد أي حرج في أن

يقول أمام الجميع أنّه فقير وأنه فخور بما هو عليه. لم يكن مراهقاً البتة. في حين كان يصعب عليَ قول ذلك. عندما يكون حسونة غائبا كانت قصص خنساء أخته ومغامراتها هي محور حديث الشلّة.

-ماذا ارتدت؟

-متى خرجت مع مروان؟

-هل زارته فعلاً في منزله؟ أم إنها مجرد إشاعة؟

-كيف قبلها مروان قبلة طويلة شهدها أكثر من واحد وراء سور المعهد الثانوي.

نقلت خنساء ثقافة التحرر إلى مدينتنا الصغيرة فصنعت الحدث بتصرفاتها التلقائية لا أستغرب أحيانا أن تسألني أمي وهي تتساءل بفضول النساء:

عما إذا كان ما سمعته وتسمعه هي أيضا عن خنسة كما تناديها صحيح؟ أحبذ دائما الذهاب إلى بيت حسونة فخنسة أصبحت صديقتي، فتاة تقرأ وتُطالع كثيرا تعرف كيف تتكلم وتجد عندها إجابات مختلفة عن الآخرين لنفس الأسئلة، وأكثر من ذلك كانت دائما تسألني عن أحوالي العاطفية أجد لذة كبيرة في أن أحكي لها عن كل انشغالاتي، وحتى عندما أعجز عن فهم درس في الفرنسية أو الانجليزية كنت استنجد بخنسة التي تشرح لي بكل جوارحها بطريقة ولا أجمل، مع الأيام صرت أتصنع عدم الفهم كي أنعم أكثر بصحبتها.

حدثتها مرة عن إعجابي بروان فقالت لي:

- ألم تجد من تحب إلا تلك الغبية؟

إنها لا تملك أي شيء، بشرة بيضاء وجمال غبي.

فقلت لها مستغربا:

_ أليس ذلك كافيا يا خنسة؟ ألا يكفي أن تكون الفتاة جميلة لتكون مرغوباً فيها؟

-في البداية فقط يا أحمد، بعد ذلك ستحتاج أشياء أخرى مع الجمال في المرأة ليستمر شغفك بها، وصديقتك غبية، ليس لها من الأمر الذي أتحدث عنه شيئا.

عندها قلت في نفسي التي لم تقتنع بوجهة نظر خنسة "رؤية روان تمشي بسروالها الأبيض الكاشف لتفاصيل جسدها يجعلك تسافر بعيدا بعيدا وأنت تحمل بداخلك رغبة جامحة مشتعلة في أن تكتشف تفاصيل ذاك الجسم الذي يشكل وحده لوحة فنية فريدة من نوعها".

يحمل جسد المرأة الجميلة داخله من إغراء وقوة ما يجعلك تدمن النظر إليه وحده، دون أي شيء آخر، هُراء كلامك صديقتي خنسة، منبعه غيرة النساء لا غير. المرأة الجميلة سحر يمشى على الأرض، سحر حقيقي لم أعد أستغرب الحروب التي قامت في العالم بسبب امرأة جميلة والتاريخ يشهد على ذلك.

بعد صداقتي مع خنسة انطفأ إعجابي الجسدي بها، غاب ذلك السحر الذي أحدثه فيَ رؤية بعض من جسدها عارياً أمامي دون حسيب ورقيب غدوت الآن أُقيّم مدى جاذبيته، مع مرور الوقت أصبح عاديا أن أرى خنسة حتى دون ثياب لن يُثير في نفسي ذلك شيئاً، بل رأيتها عندما اصطحبت عائلتهم إلى الشاطئ بلباس البحر شبه عارية، ولم يتولد لدي أي شعور بالإغراء.

في حين عادت روان بغنجها ودلالها وكلامها الذي يحمل دائماً في داخله شحنة النداء، شحنة الرغبة، تتكلم دائما وهي تتأوه، هي هكذا في الشارع، كيف ستكون على الفراش إذاً؟

كما يقول مالك البهيم عندما يراها تتبختر في مشيتها أمامنا إنه يفضل أكل الجبن فوق مهبلها، مؤكداً تأكيد من يملك اليقين وخياله يحمله بعيداً بأن مهبلها سيكون بياضه أكثر نصاعة وجمالاً من الجبن نفسه. يكفي أن يبدأ مالك بوصف روان بطريقة لا تخطر على بال حتى نصمت كلنا،

ونحن نتخيل دقة الوصف الذي لا يغفل أدق التفاصيل، ونحن نبلع ريقنا بمرارة من أضناه الكبت والشوق إلى منبع الحياة.

كان مالك مُتيماً بها إلى أبعد الحدود. يقول إنه يدرس من أجلها في حين ترد عليه هي بغنج:

_ انت كيتبقلى اخر واحد مالا ناقصني كان واحد بطي كيفك.

_ اعملي لي تحبي وقولي لي تحبي ما تروحي إن شاء الله كان ليَ يارنومة.

في حين كان حظ روان سيئاً في الحب، فأسامة الذي كانت تتقرب منه قبل ظهور حسونة، لم تكن عنده رغبة في النساء قط سنكتشف ذلك مؤخراً في سنة الباكالوريا وحويتة يسرد لنا وأفواهنا كلها مفتوحة بعلامات الدهشة والاستغراب، كيف غزا مؤخرة أسامة الذي تبين أنه كان يتصارع بشجاعة كبيرة مع الكم الهائل من الشذوذ في داخله ومَيْلِه الجنسي للذكر.

بينما فضل حسونة الذي أصبح محطّ أنظار ومتابعة من روان، الارتباط بفتاة تعيش نفس ظروفه عائدة هي مثله من فرنسا.

اكتفينا أنا وقيس وحويتة ومالك أبناء حومة السوق عموماً بمشاهدة قِصص الحب ومتابعتها على التلفاز والحاسوب ونحن نتلذذ الاستمناء على بنات "جوجل". في المعهد لم يكن عندنا ما يكفي لإغراء فتيات من نوع دُنيا صديقة حسونة وروان... في حين كنا نملك ما يكفي لإغراء بنات أحواز المدينة والأحياء الفقيرة، لكن سقف أحلامنا كان عاليا فهجرنا الحب لأننا لا نستطيع أن نعيشه عكس ما هو مرسوم في مخيلة كل واحد منّا.

هكذا غدا الحب راسخاً في أذهاننا يجب أن يكون مع فتيات من شاكلة روان، دنيا، خنسة... سيزيد من ترسيخ هذه الصورة التي تصدرها كل وسائل الاعلام الوطنية والعالمية مسلسلات وأفلام كلها تدعم هذه

الصورة وتُرسخها، فضلاً عن فتيات السيد جوجل والفايسبوك اللذين ساهما بشكل كبير في تشكيل سقف أحلامنا الجديدة ونظرتنا للحياة.

المُقارنة المُرة

الفقر هو أسوأ أشكال العنف
"يتشكل معنى حياة الانسان حين يتجاوز هذا الانسان أناه"

لم نُفكر قط أنا وقيس في دعوة كل مِن حسونة وأسامة لمنزلينا. في حين تبادلنا نحن الاثنان الزيارات أكثر من مرة. فرغم التحسن الذي طرأ على غرفتي مع مرور الأيام إذ حرصت أمي على الوفاء بوعودها قبل أن ألتحق بثانوية معهد الفارابي حيث كان يعمل أبي، لكن على طريقتها الخاصة، أخيرا عَرِف السرير والدولاب طريقهما إلى غرفتي، رغم أنّه كان أبعد ما يكون عما رأيته في غرفة حسونة وجناح أسامة، لو لم أرَ ما رأيت، لكانت فرحتي بهما لا تُوصف، لكنني مباشرة سيطرت على ذهني فكرة المقارنة المُرّة.

سرير ودولاب من سوق العصر للتجهيزات المنزلية المستعملة، لا أكثر من ذلك، هو سوق الفقراء المعوزين. عندما رأت أمي علامة الامتعاض بادية على وجهي، وهي التي كانت تنتظر كلمة شكر على الأقل، كانت تنتظر أن ترى الفرحة في عيني لكنني لم أفعل، كنت أنانيا لم أعد أرى إلا نفسي. حتى عندما أصبحت أختي لبنى تتمتع براتب عاملة في المصنع الذي تعمل فيه أمي كنت أستأثر بنصفه دون علم أمي، المسكينة أختي كانت تَدّعي أمام أبي وأمي أنها تُودع نقودها في دفتر ادخار.

صرتُ كثير المطالب. أردفت أمي المسكينة ولشد ما كنت أكره سماع تلك الكلمات باعتبارها اعترافاً صريحاً منها بالدنيوية:

_يا وليدي هما عندهم احنا منين جانا انا وبوك واختك نخدموا الكل كالبهائم وما نجيوش في شهرية واحد فيهم أرضى بالمكتوب راك تعذب فينا في بالك.

لا أجيبها أشعل سيجارة أمام أمي، لم أكن أتحرج من ذلك لكن أمام أبي لم أستطع فِعلها أبداً، رغم أن الفكرة راودتني أكثر من مرة رغبة مني في أن أتحداه وأفعلها لكنني لم أستطع، ظل ذاك الهاجس الأخلاقي اللعين الذي يعتبر كل من يدخن أمام أبويه عاقا أو شاب غير مهذب مسيطرا رغم عدم ايماني به.

أبي الذي عمّق جِراحي وانطوائي على نفسي دون قصد منه. تمنيت لو كانت في مدينتنا ثانوية أخرى غير الفارابي، لولجت إليها، لكن ما باليد حيلة، لم أكن أريد أن يعرف كل زملائي القاصي والداني منهم ماذا يشتغل أبي في المعهد الثانوي، لكن أبي حرص منذ اليوم الأول فرحاً مسروراً بقدومي أن يجعل أغلب التلاميذ والأساتذة يعرفون ابن من أكون، رغبة منه في حمايتي هذا ما فهمته متأخراً وما استعصى على فهمي وقتها.

حرص على استقبالي في اليوم الأول لي في الثانوية أحسن استقبال، حاولت أن أتملص منه، دخلت من غير الباب الذي كان مُكلفا بحراسته، لكنني داخل القسم وجدته يقتحم عليَ حجرة الدرس وهو يعلن أمام الأستاذ والتلاميذ أنني ابنه موصياً عليَ خيراً. اقتحم عليَ في اليوم الأول جميع القاعات، جميع الأساتذة والتلاميذ صاروا يعرفون أنّني ابن" ساسي العساس"، جبهتي هي الوحيدة التي قامت بردة فعل وهي تتصبب عرقا. جل الأساتذة أيضا كانوا يتفننون بفضول غبي في زرع هذا الانطواء داخل النفوس القابلة للتحطم، ما إن تدخل إلى حصة أحدهم في بداية

السنة الدراسية، حتى يبدأ معظمهم حصة التعارف تلك الوقحة، بدافع الفضول ليس إلا، وبدافع آخر اختيار فرائس الدروس الخصوصية التي تمتعت بها بالمجان باعتباري ابن عساس الثانوية.

-الأستاذ:

-اش يخدم بوك؟

-كم كنت أكره هذا السؤال. في بلدي، "ليس المرء من يقول كان أبي ولكن ها أنا ذا"، لا هذا المثل لا وجود له على أرض الواقع في بلدي كان وما يزال. "من أبوك لأعرف ماذا ستكون، لأعرف إلى أيّ حد يمكن أن تصل"، هذا هو الموجود.

كان أسامة يفتخر بذكر وظيفة أبيه.

-*كولونيل في الشرطة.

عندما يسمع التلاميذ والأساتذة كلمة بهذا الحجم يتمتع أسامة بحصانة آلية دون قيد أو شرط ،لا تمتد إليه أيدى التلاميذ المُتنمرين من ثانويتنا وبطشهم، ويتحاور معه الأساتذة كند لهم بل أكثر من ذلك، أتذكر مرة في سنة الباكالوريا عندما أوقفتنا دورية شرطة طالبة منا الاستظهار ببطاقة تلميذ وإلا سيقتدُوننا إلى المركز من أجل التجنيد الإجباري، ولأن البطاقات اللعينة لم تكن معنا وقتها فقد تم اقتيادنا إلى مركز الشرطة صحبة الإهانات وكلمات السب البذيئة، لم يُنقذنا إلا دخول الكولونيل أبي أسامة وهو يسب ويشتم رئيس المركز وأعوانه بكلمات أكثر بذاءة من التي سمعناها، ورغم ذلك كانوا يبصبصون ويعتذرون بل الأكثر من ذلك هَمّ أن يصفع أحدهم.

أسامة عاد برفقة أبيه الذي أمر رئيس المركز بأن يُوصل كل واحد منا بسيارته إلى منزله، لم يُحضِر أبو أسامة معه إلى مركز الشرطة اللعين ذاك بطاقاتنا المدرسية، حضر وحده بزيه ونجومه ونياشينه بالشعار المعلق على كتفيه، تخيلت لو لم يكن معنا أسامة سيحضر أبي ومعه

البطاقة اللعينة وهو يتمسح بذل إلى رئيس المركز ليُفرج عنا، ولن يعتذر الأخير كما اعتذر لأبي أسامة عن الإهانات التي وجهها أعوانه إلينا.

شكلت السنوات الأربع التي قضيتها في معهد الفارابي جحيماً حقيقياً بالنسبة إليّ، فبالإضافة إلى كوني أصبحت مُدمناً على شرب السجائر ولم يعد ما يتفضّل به كل من أسامة وحسونة يكفي ليسُدّ تعطّشِي، فقد أصبح لِزاما أن أشتري كل يوم علبة سجائر ومن النوع الفاخر أيضاً، أُسوة بزملائي، لم تكن تغريني علبة أبي الكريستال أبداً، بل كنت أُكن لها عداء من نوع خاص، اعتبرها معيار الفقر والهَم، عمتي أيضاً لم يعد باستطاعتها تأمين ملابس من معمل الجندوبي "الفريب"، كل هذا خلق مني شاباً متمرداً، زِد على ذلك الهواتف المحمولة التي بدأت تغزو ثانويتنا، حسونة بهاتفه ذي اللون الأسود "سامسونج" يقف في وسط الساحة ليلتقط صورا لدُنيا، والفتيات يتسابقن لإلقاء نظرة كان عدد التلاميذ الذين يملكون هاتفا محمولا في ذاك الوقت وتلك الفترة محدوداً في الثانوية لكنهم لسوء حظي العاثر كانوا جلهم أصدقائي حسونة أسامة خنسة، كيومة..

لم يَمل أبي لعبته المفضلة اقتحام حجرة الدرس عليَ كل سنة، لا أنكر أن ذلك ساعدني كثيراً لكنني وقتها لم أكن أنظر إلى الأمر من تلك الزاوية، كنت منغرسا في تصور مدى الإحراج الذي يسببه لي اقتحامه لحجرة الدرس، أقرأ ذلك في عُيون الفتيات من صفنا وهمساتهن.

-ولد العساس نتاع الليسي.

صِرت مُراقباً من الكُلّ، أي غلطة مهما كانت صغيرة كنت أجد أبي على علم بها، ينتظرني في البيت ليُقرِّعَني. إهماله لأسامة ولُبنى عَوّضه بي، صارت مراقبته لي هوايته المفضلة.

كان هو أول من نبهني إلى عدم مُصاحبة "كيومة" الذي كان أشهر من النار على العلم في ثانوية الفارابي، يكفي لتعرف أين يوجد في الثانوية أن تلقي نظرة على الساحة، الحلقة الأكبر فيها كانت الحلقة التي يترأسها كيومة، فتيات وأولاد كان الكل يتسابق لرضاء كيومة حتى بعض الأساتذة والقيمون كانوا يسعون جاهدين لكسب وُده.

هذا الذي أمضي أكثر من سبع سنوات في المعهد يُعاود سنة الباكالوريا للمرة الثالثة على التوالي، والذي يئِس من الحصول عليها كما يقول لكن أباه لم ييأس بعد، استصدر له بطاقة إسعاف من الوزراء ليعاود امتحانات الباكالوريا للمرة الثالثة آملاً أن يتحصل عليها.

-يا بهيم تاخو الباك ندخلك ملازم في أكاديمية الشرطة.

-والله كان ما تخوها السنة ما ندخلك عريف هه.

كيومة كان أغبى من أن يتحصل على الشهادة اللعينة جرب كل أنواع الغش القديمة والحديثة لكنه لم يفلح أقصى ما وصل إليه الدورة الاستدراكية.

كان أبي لي بالمرصاد كلما حاولت الاقتراب من كيومة الذي أصبح صديقا حميما لكل من ريونة وحويتة الكسولين بطبعهما، في حين صار قيس يبتعد أكثر وأكثر لم تعد صُحبة الشلة تُغريه، ظللت أنا أتحين فرصة غياب أبي أقترب أحياناً وأبتعد في أحيان أخرى.

في تلك السنة وقبل مُوفى شهر مارس، تم طرد كيومة من المعهد بحسب الإدارة، فقد تم حجز كمية لا بأس بها من حبوب الهلوسة وحشيش المار يخوانا في جيبه، يومها حضرت الشرطة وحضر أب كيومه. كان الكل شبه متأكد أن نهاية قيدوم الثانوية قد حانت.

عقوبة حيازة مخدر الماريخوانا للاستهلاك فقط في بلدي تصل إلى سنة سجناً ومبلغ ألف دينار غرامة، أما المتاجرة بها فتصل في أحيان كثيرة إلى سبع سنوات سجناً وغرامة كبيرة جداً، لكنني يومها والأيام التي

ستأتي بعد صِرت متأكدا من أن القوانين اللعينة تلك تترصد الفقراء فقط من لا يملك في جيبه ما يستطيع أن يُغير به مجرى أي محضر مهما كان، لم تكن تلك نهاية كيومة كما اعتقد مُعظمنا، كانت تلك هي البداية الحقيقية فقط، بداية الاحتراف، لم يبتعد كيومة كثيرا، وجدناه بعد أقل من شهر برُفقة مقاول وهو يُهيئ محلا تجاريا مقابل المعهد مباشرة، لم يفصح عن نواياه، يومها ونحن نسأله مستغربين أكد كما أكد الكثيرون ممن معه ومعهم تقرير الشرطة أن ما وُجد يومها في جيب كيومة لم يكن إلا حبوباً من الحلويات مستوردة من الخارج . وحبوب صداع تنتاب الصديق كيومة.

هذا ما أكده الطبيب الذي ادعى متابعة حالة كيومة الصحية منذ سنوات خلت. لم يكتف الطبيب بشهادته الكتابية بل حضر بنفسه أمام القاضي ليؤكد تلك الشهادة.

اعتُبر بلاغ القيّم العام بلاغاً كَيدياً كاد أن يُتابع عليه لولا تسامح كيومة وشهامته، القيّم الشرير الذي كان يتصيّد كيومة لثأر سابق بينهما هذا ما أكده كيومة ودعّمه خروجه من الإيقاف التحفظي وبراءته.

حتى عندما استفسرنا إن كان الأمر كما يقول ويدعي، فلماذا تشبثت الإدارة بقرار طرده؟ أكد الصديق كيومة أنه لم يسعَ إلى إبطال قرار الطرد بعد ثبوت براءته لأنه لم يعد راغبا في إكمال دراسته.

ذلك الصيف بينما كنا نحن شلة الناجحين في امتحانات الباكالوريا، قيس، حسونة، أسامة، ومفاجأة السنة مالك البهيم الذي اجتاز بدوره امتحانات الباكالوريا. وبينما كان أبي يذبح خروفاً بالمناسبة السعيدة لأن أمثالنا ينتظرون المناسبات السعيدة ليسكتوا صراخ بطونهم.

كان حسونة وأسامة في مدرسة تعلم السياقة لاستخراج رخصة السياقة كانت تلك هي هدية أبويهما لهما، في حين كان كيومة يحتفل بافتتاح المقهى الثقافي أمام المعهد. أطلق عليه اسم مقهى "المعراج". مفاجأة لم

تكن على البال ذلك الصيف وكل الأعوام التي ستأتي بعده. أصبح مقهى كيومة المقر الرسمي للشلة التي تكبر يوما بعد يوم، بانضمام جمع غفير لها، لم تكن تستهويهم المقهى، فقد كانت أكثر من عادية كان صاحبها أكثر ما يستهوي رُوادها قد تتفاجأ أحيانا عندما ترى أمامها سيارات لأشخاص قَدِموا إلى المدينة الصغيرة من مناطق راقية ليترشفوا-كما يقول كيومة -فنجان قهوة في مقهى المعراج الشهير.

ستتضح الأسباب الحقيقية**!!!!** لنا معشر الأغبياء بعد وفاة كيومة بجرعة زائدة وهو يبتسم مستهزئا من الموت نفسه كما استهزأ من كل القيم في حياته.

الحب فى زمن البطالة والإفلاس

أنا الذي ضاع لي عامان من عمري وباركت وهمي وصدّقتُ افتراضاتي
مُمزّق أنا لا جاه ولا ترف يغريك فيَ فخلني لآهاتي
إني بغير الحب أخشاب يابسة إني بغير الهوى اشباه أموات
يا للتعاسة من دعوى مدينتنا فيها يُعد الهوى كُبرى الخطيئات
إن الصبابة عارٌ في مدينتنا فكيف لو كان حبي للأميرات؟

حسن المرواني

ذلك الصباح اللعين والجميل والأروع، كما صار بعد سويعات قليلة فقط، استعرض أحمد "إيراتيك" حياته وهو ينظر ببلاهة إلى السقف وقبل أن يقوم من فراشه مُتفحصاً سرواله الداخلي ليُزيل عنه آثار الاستمناء من العادة السرية، بعد ليلة طويلة من ملاحقة بنات جوجل على شاشة الحاسوب والبحث عن الجميلات منهن وهن عاريات متمتعا بطريقة ممارستهن للجنس.

بعد جفاء ريم له هذا الأسبوع، تفحص هاتفه اللعين لعله يعثر على رسالة منها تُعيد الابتسامة ليومه الكئيب بل لحياته الكئيبة.

ريم التي دخلت حياته دُون استئذان، ها هيَ على ما يبدو تُقرر أن تخرج منها دون استئذان أيضاً. أمسك هاتفه تأمل صورها الكثيرة على شاشته ومقاطع الفيديو التي سجلها دون علمها وهي عارية تُريه مفاتن جسدها وهما يمارسان الجنس الافتراضي. الآن تريد أن تُغادر.

-مسكينة دخول الحمام مش كيما خروجو.
أحمد الذي تعصف به الشكوك حول ريم التي تنازل له عنها كيومة، نعم هذه هي الحقيقة التي تُؤكدها مجموعة من الوقائع وكلام الأصدقاء تصريحاتهم وتلميحاتهم وما خفي أعظم، قال له مرة رَيونة:
-شبيك منيك؟ عامل رأسمال من طفلة كان ين...ك فيها صاحبك. فيق يا شفيق.
لم يكن أحمد "إيراتيك" ليجيب على مثل هذه التهكمات النارية من أصدقائه فهو يعرف أن ما يُقال وراء ظهره أكبر بكثير مما يُقال أمامه تلميحاً وأحياناً تصريحاً تحت تأثير حبوب الهلوسة أو بدعوى النصح.
لكن رغم كل ذلك لم يكن يملك من أمر نفسه شيئاً، ريم صارت إدمانه الجديد، كيف لا، وهي أول فتاة في حياته، هي من منحته كل الحب الذي كان يبحث عنه، هي التي خففت عنه لهيب سنوات البطالة تلك.
دخلت حياته وهو يائس تمام اليأس، فقر، بطالة، فراغ، خواء قاتل... دخلت ريم لِتُحول صحراءه تلك القاحلة بابتسامتها بشقاوتها بجرأتها الزائدة إلى جنة.
أحيانا يعتقد أنه لا يريد أي شيء من هذه الدنيا الظالمة غير حب ريم. وأنه لو لم تكن ريم في حياته رُبما جُن أو انتحر منذ زمن بعيد، هي من خفّف لهيب السنوات العجاف. البطالة، الفقر، الكبت... هي من جعل لِيومِه لِنهاره معنى وإشراقة. تساءل: كيف كانت ستكون أيامه بدون ريم؟ لا يريد أن يعود للخواء القديم، تذكر كيف كانت حياته دون ريم، وكيف أصبحت، لا مجال للمقارنة.
كنت ميتاً، ريم هي من زودتني بالحياة عندما لثمتُ شفتيها. هي من جعلتني أرى الحياة عندما تَعرّت أمامي وُلِدتُ من جديد من رحم امرأة أخرى غير أمي، وقتها تحسست المعنى الحقيقي للحياة والذي يكمن في

أول لمسة لجسد امرأة، تلك الرعشة القشعريرة الرغبة المتعة اللا متناهية التي تمنيت وقتها أن تنتهي عندها الحياة، لكنها كانت قد بدأت.

الحياة كلها يمكن أن تُختصر في جسد امرأة. لن أنسى أول حوار، البوابة التي دخلت منها إلى جسد المرأة فأصبحت من وقتها أسيراً لهذا الجسد مُتعبدا في محرابه أصبح هو الحياة هو المتعة كما أصبح أيضاً هو من يتحكم ويُحدد ردود أفعالي.

-أحمد تجيني للدار بابا وأمي مش هنا.

-لا مانجمش نخاف.

-اسمع راني مانحبسش الراجل الخواف.

-باهي.

وهو يتعثر في خطواته والخوف يعصف بكل أركان جسمه، دخل منزلهم كانت أول مرة يختلي فيها بفتاة، خمس وعشرون سنة مرت من الحرمان لم يسمع خلالها كلمة أحبك من فتاة. لم تلمس شفتاه شفتي فتاة. أي كبت كان يعيشه؟ أي حرمان؟ ذلك اليوم اكتشف كل هذه الأشياء الجميلة واللذيذة دفعة واحدة، فتحت له ريم ذراعيها تقبله تطلب منه فعل كل ماهي في حاجة إليه ليُطفئ النار المشتعلة والتي أشعلها كيومة ورحل.

يومها كانت أول مرة يمارس فيها الجنس، بل يمارس فيها الحياة، لكنها لم تكن آخر مرة. صيف كامل من الحب الافتراضي والحقيقي.

تُرى ما بالها هذا الصيف؟ كانت آخر زيارة لها في فصل الربيع كان آخر ارتواء آخر صلاة، ارتوى من جسدها لكنها بعد ذلك اليوم أصبحت تتذرع بشتى الذرائع لتتهرب منه. الشك يقتله، يعصف به.

- بابا وامي ما عادش يحبو يخليوني وحدي ف الدار.

كان هذا هو عذرها، في الليل أيضا يجدها خارج سرب الحاضرين في الفايسبوك، لا يمكن أن يكون أبوها وأُمها قد طلبا منها أيضا عدم التواصل معي.

غَدَا كل يوم قبل أن يعرج على مقهى المعراج "لكيومة" يقوم بدورية أمام منزل ريم. عَلّه يظفر بنظرة، بابتسامة، عَلَّها تراه من وراء النافذة فتشفق على بؤسه على حبه. وجد أمس عبشة الخادم المطيع لكيومة مُرابطا أمام المنزل أحس الآخر بارتباك عند رؤيته أحمد إيراتيك لكنه تدارك الأمر.

-عبشة اش تعمل هنا؟

-اه اه اه نستنى ف صاحبي

-وانت احمد اش تعمل هوني؟

-جاي نعمل كسة على دار ريم. ما ريتهاش بالله؟

-اه ريتهم خرجوا الكل هي وبوها واختها وخوها في الكرهبة ظاهرلي مشاو للبحر.

-ايه ايه قالت لي قالت، هاني سابقك للقهوة.

كانت إجابة عبشة كافية لتطرد كل الشكوك التي تعصف بأحمد، بل الأكثر من ذلك أحس أنه ظلمها فحبيبته الجميلة ربما تمر بظروف صعبة كما قالت.

- حبيبتي الجميلة كم أحبك.

-

كيومة المعراج الأول

النجاح

الحرب مأساة يستعمل فيها الانسان أفضل ما لديه ليلحق بنفسه أسوأ ما يصيبه
غلادستون

أنا كْيُومة "إكستازي" أنا أول من أدخل حُبوب الهلوسة إلى المدينة التي أقطنها، حبوب الهلوسة كما يُسمّيها الأغبياء من الناس، وتذاكر المِعراج أو السفر المُقدس كما نسميها نحن المسافرين، نحن الرافضين لهذا العالم الأليم، أنا الأشهر في المنطقة، أنا الغبي سابقا في نظر الأساتذة والزملاء والعائلة، كنت غبياً لفترات طويلة في نظر الكل، وأصبحت بين عشية وضحاها النجم في نظر زمرة الأغبياء نفسها تلك، أنا الذي كان يقول عنّي أبي وهو ينعتني أمام الجميع بالفاشل الغبي الذي لا يصلح لِشيء، كيف حوَّلت تِلك الحبوب السحرية حياتي إلى هذا المنحى، كيف سيطرت هيَّ على مسار حياتي وأعادت رسمه من جديد، لم تكتف حبوبي الجميلة بذلك بل رسمت لي عالما جميلا في مخيلتي، أراه وحدي وأُسافر إليه كلما استعصى عليّ أمر واحتجت إلى إجابات، ما عليّ إلّا أن أبتلع الحبة التي رسمت لي دون إرادة مني طريق النجاح في حياتي الواقعية . وهي التي جعلتني أبدو عظيما في نظر الآخرين وراضياً تمام الرضا عن نفسي.

كان أبي يريد أن يراني مُلازما في سلك الشرطة، لكنني عجزت عن تحقيق حلمه التافه ذاك. بعد التغيير المبارك الذي طرأ على حياتي أصبح يقف مشدوهاً عندما يرى أكثر من ملازم يتودد صحبتي بذلٍّ ظاهر، أحياناً يمسح عينيه دلالة عدم التصديق إذا كان صاحب هذه البدلة المزركشة بنجوم على كتفه هو نفسه من يكلمه ابنه بتلك اللهجة الاستعلائية، ابنه الذي اعتبره لسنوات عديدة فاشلا.

حدث الأمر صدفة لأكتشف ذاك الكم الهائل من القوة في داخلي المُحطم من قِبل مجتمع غبي يُقيدني بمناهج غبية لا أستطيع فك رموزها وطلاسمها، أعدت البكالوريا الجحيم تلك ثلاث سنوات دون جدوى، في الأعوام السابقة كنت أرتقي آليا يكفي قليل من الغش الذي يغض الأساتذة عنه الطّرف، لا بل أساتذة الدروس الخصوصية التي تجعلك تحظى بدعم الاستاذ وتغاضيه اللامشروط عن كل عمليات الغش التي أقوم بها.

في البكالوريا اختلف الأمر، ظهر فشلي للعيان ولم أجد من يواريه، جربت جميع أنواع الغش القديمة والجديدة دون جدوى.

اكتشفت حبوبي الملونة الجميلة، والتي قطعت لي تذكرة النجاح بامتياز في صيف العام الثاني من سنة الباكالوريا، كنت منبوذا مفلسا من الكل عائلتي أصدقائي اجترّ فشلي في اجتياز الامتحان اللعين وحدي، لم أجد غير سجائر المار يخوانا لتهدئ أعصابي، ولم أكن أعتقد بوجود شيء آخر أقوى يستطيع أن يقتلعني من جذوري، من واقعي، يجعلني أنساه جُملة وتفصيلاً، يجعلني أعيش في العالم الذي أتمنى أن أعيش فيه أن أرى ما أريد رؤيته وأسمع ما أُريد سماعه.

في ذاك الصيف جلب لي صديقي زياد من سويسرا علبة حبوب كاملة سرقها من أحدهم هناك في عالم الغرب فاحتفظ بها هدية من أجلي.

كانت ألوانها المختلفة وأشكالها الجميلة مُغرية، لم أفكر يوماً في بيعها والمتاجرة بها، كنت فقط أبحث عن أي شيء ينسيني استهزاء أبي بي أمام إخوتي والعائلة. نعته لي بالفاشل.

-زايد ماكش راجل ماكش كيما سيادك، اخرج عليَ من داري.

لم يكتف السيد الوالد بالشتم ونظرات الاستهزاء والاحتقار كأنني أتيت جُرما في ذاك الصيف الجحيم، قبل أن ألتقي حبوبي والتي لو لم التقها لكان ضروريا أن التقيَها، كلّما هممت بطلب شيء ما، مهما كان تافها إلا وذكرني بفشلي.

تزامن معراجي الأول عبر بوابة "اكستازي" مع الحظر المادي الذي فرضه أبي عقاباً لي مما جعلني أكاد أفقد صوابي، فأنا كنت مدمناً على حشيش "الماريخوانا" منذ صغري، جاءت تسمية كيومة تصغيرا لطفل صغير يُدخن، أو باللهجة التونسية "يتكيف" في ذاك المعراج الأول، بعد أن لامست الحبة الزرقاء اللون لساني وانسابت بسلاسة إلى داخل الجسد، وهي تفتح نوافذ للروح لارتقائه، كنت أنا نفسي روحي خارج الجسد، خارج أعبائه، كنت أُحلق بعيداً بعيداً في عالم آخر لا توجد فيه نظرات أبي ولا امتحانات غبية.

كنت أنا وحدي هو المحور الذي تدور حوله الأشياء، يدور حوله الزمان والمكان، وجدت كل من في ذاك العالم يحتفي بقدومي، سمعت موسيقى شفت جراحي، جعلتها تلتئم فجأة، رأيت أناساً يتحدثون عن عظمتي عن عبقريتي، ماذا يحدث؟ أنا كيومة الغبي أعيش غبياً في نظر الكل هناك على الأرض، وهنا أحس بعظمة لا متناهية. ماذا يحدث هنا؟ من أنا؟ كان مفهوم النجاح والفشل يؤرقان ليلي، لم أجد إجابات كافية لما أنا فيه.

-لماذا أنا فاشل في نظر المجتمع الذي أعيش فيه؟

- وكيف السبيل إلى النجاح؟

لم أكن مقتنعاً بمفهوم النجاح المتداول عند الأرضيين من هنا، بل في ذاك المعراج. كان أول سعيي للبحث عن إجابة تشفي غليلي.

لم أحظ بإجابة شافية فقط، بل تحولت حياتي بين عشية وضحاها انقلبت رأساً على عقب.

أصبحت بين عشية وضحاها ناجحاً بالنسبة إليهم بعدما كنت فاشلاً أيضا بالنسبة إليهم وبحسب مفهومهم للنجاح. هل خططت لنجاحي هذا وفق نفس المفهوم؟

لا أعتقد، الصدفة وحدها هي التي جعلتني كذلك، لست أنا وحدي بل كثير ممن أعرفهم، ممن يسمون ناجحين مروا من هنا بالصدفة فقط لا غير. الصدفة كانت وراء ما يسمى نجاحهم، وهذا لا يعني أن الكثيرين من الناجحين كان التخطيط والمثابرة هو الدرب الذي أوصلهم لما هم فيه هؤلاء لست منهم ولست معنياً بالبحث وراء أساليب نجاحهم وطرقها. أنا هنا أتكلم عن نفسي، عن تجربتي.

لم أكن أعتقد بتاتاً أن الطريق إلى ما يسميه الأرضيون "النجاح" سهل إلى هذه الدرجة، أن تُصبح بين عشية وضحاها شخصاً آخر ناجحاً بالمفهوم المتداول، أنت لا تحتاج في هذا الزمان إلا إلى شيء واحد فقط، القليل من الجرأة والإقدام الممزوجان بعدم الاكتراث. صحيح أن هذا يُسميه الأرضيون موت الضمير، لكن إذا كنت أنا لا أتفق معهم حول مفهوم النجاح فكيف سأتفق معهم على مفهوم آخر اسمه الضمير.

أصبحت مقتنعاً أن ما يُسمى الضمير هو حجة القانعين الجبناء لا غير. باعتبار العالم القوي والذي يقود عالم الساعة، لا ضمير له وبالتالي. لماذا أتحلى أنا بشيء مفقود في العالم؟ بل بالعكس ما يسمى الضمير الحارس لما يسمى القيم الإنسانية لم يعد له وجود في قاموس الأقوياء وقوانين من يحكمون عالم الساعة. وأكثر من ذلك جل أصدقائي ممن أعرفهم لا يملكون ضميراً ورغم ذلك يتدثرون به ليبرروا جبنهم وخنوعهم لا غير.

اكتشفت في رحلتي تلك عبر بوابة "الاكستازي" في معراجي الذي كنت أبغي منه شيئاً واحداً فقط.

-لماذا أنا فاشل؟

سافرت لأهرب من عالمي الموحش الذي نبذني، لفظني، لم أكن كغيري من المسافرين لم أكن أهرب فقط مما أعيش فيه كما يفعل غالبية المسافرين كنت أسافر أيضا لأبحث عن إجابات وأعتقد أنني نجحت على الأقل حسب قناعاتي أنا.

اكتشفت في رحلة المعراج تلك التي دامت ثلاث ساعات وفق التقويم الأرضي وثلاث سنوات وفق تقييمي أنا. أن النجاح في الأرض وبحسب مفهوم الأرضيين يقتضي شيئاً واحدا هو أن تُبرمج حياتك وفق النظام والقوانين السائدة التي سنها الأقوياء والناجحون في هذا العالم. وهي الإقدام، الشجاعة، أن تأخذ ما تريد دون أن تسأل لماذا؟ وكيف؟ ولمن؟ حلال، حرام، عيب، شرف... تمعنت جيداً ووجدت أن أغلب الناجحين جدا سواء كانوا دولاً أو أفراداً ملتزمون التزاماً تاماً بهذه القواعد، فالدول الناجحة تستولي وتُشرع لنفسها الحصول على ثروات الشعوب والدول الأخرى دون أن تُكلّف نفسها طرح سؤال بسيط. لماذا؟ وكذلك أغلب الأفراد، وهذا لا يعني دوما أن هناك استثناءات.

من هذا المنطلق بدأت لا كما يعتقد أغلب الأغبياء من أصدقائي أن أبي هو من مَهّد لي الطريق، صحيح أنني جعلتهم يعتقدون ذلك لغاية في نفس يعقوب، لكن الحقيقة أنني كنت وما زلت في قطيعة تامة مع أبي والعائلة بصفة عامة.

في ذاك الصيف بعد الرسوب الثاني في امتحانات الباكالوريا، وبعد عودتي من المعراج الأول، تخلصت بتاتاً من خوفي، خجلي، والأهم ما يسمى ضميري، وأمام إصرار أبي على حرماني من المصروف اليومي الذي هو بمثابة الأكسجين لأي شاب في عمري، يدخن يشرب الخمر

ويحب "الماريخوانا" وينظر إليه المجتمع نظرة بورجوازية كان لزاماً عليَ أن أتسول أو أبحث عن حلول بديلة.

لا يمكنني أن أدّعي العبقرية وأقول قد فكرت ملياً واهتديت إلى الحل. لذاك اليوم ولثلاث ليال لم أهتدِ فيها إلى الحل. الأخير هو من اهتدى إليَ. استمر حظر أبي المادي أكثر من المعتاد هذه المرة، وكنت وقتها لا أملك إلّا علبة "الاكتسازي" الملونة في جيبي ذات الأربع وعشرين حبة. كنت قد استعملت أو بعبارة أخرى قد سافرت بواحدة منها.

في المقهى اقترب مني أحدهم وهو يرتجف طالباً مني إن كان بإمكاني أن أدله على أحد يبيعه الحبة السحرية في المدينة ولي أجري على عملي هذا. أمسكته من يديه لنخرج خارج المقهى.

-كم ستدفع لمن يأتيك بما تريد الآن؟

-مستعد أن أدفع خمسين دينارا للحبة الواحدة.

-قداش من وحدة حاجتك؟

-توا ثلاثة.

-اعطيني خمسين دينار لحظة نجيبلك ثلاثة وكمل لي الباقي.

نظر إليَ ملياً وهو يستطلع محتاراً إن كان ما أقوله صحيحاً أو مجرد عملية خداع لأحصل على المبلغ. لم أدعه يفكر أعطيته بطاقتي الوطنية ضمانا أو كنوع من زرع الثقة، لم يتكلم، أعطاني المبلغ وهو يرجوني متوسلاً ألّا أتأخر.

-درج نكون عندك.

كانت يداه ترتعشان. لم يصدق الأمر عندما عدت بسرعة وناولته الحبات الثلاث، أعطاني المبلغ المتفق عليه وطلب رقم هاتفي ليتصل بي إن هو احتاج شيئا مرة أخرى.

كان الأمر أسهل مما توقعت لحظتها عرفت أنني أملك ثروة في جيبي، مصروف أبي التافه بتقبيل الأيدي والإلحاح واستغلال نفوذ أمي الجنسي

لا يتجاوز في الأسبوع على أبعد تقدير مئة دينار، هو بالنسبة لشاب مثلي مصروف ضخم بالمقارنة مع ما أسمعه من زملائي. لكن ما أنا فيه الآن حُلم. مباشرة بعد عملية البيع الأولى الناجحة تلك بدأت أستعرض الربح الذي ما زال ينتظرني. إحدى وعشرون حبة أخرى ما زالت في جيبي. ذلك اليوم بل تلك الساعة قررت أن أتغير، لن أعود ذاك الشاب المستهتر الاستهلاكي، لا وألف لا، سأنتقل إلى تبني سياسة الإنتاج العالمي الجديد، ووفق نظامه أيضاً، لن أكون خارج الدائرة بعد اليوم.

لم يستغرق بيع الحبات المتبقية أكثر من أسبوع. اكتشفت أنني أعيش في زمن الهلوسة زمن "الاكستازي" وكنت غافلاً، بضاعة مطلوبة أكثر من أي بضاعة أخرى، اتصل بي الحريف الأول ليفتح لي نوافذ جديدة لم تكن لتخطر على البال. شريطة أن أمكّنه بين الفينة والأخرى بحبة مجاناً وأن أُضاعف السعر وفق حاجيات الزبائن ومكان تواجدهم.

اكتشفت أن حبوب الهلوسة هذه يحتفي بها العالم بأسره عبر تنظيم مجموعة من المهرجانات أو الملتقيات لْمَا تُسمي بحفلات "الديدجي" أغلب هذه الحفلات هي مجرد ملتقى للمسافرين عبر بوابة "الاكستازي وحبوب أخرى.

أعود لمشاريعي في هذه السهرات التي يرعاها رجال الأمن وتحت أعينهم، قد يصل ثمن الحبة الواحدة إلى مائة دينار وثمن قارورة الماء الصغيرة إلى أكثر من عشرة دنانير. وقتها كنت داخل دائرة الربح الكلي، فأنا لم اشتر الحبات ولا أعرف رأسمالها الحقيقي ولا موزّعيها وكانت هذه المشكلة تؤرقني بعد أن تم نفذ كل ما عندي من بضاعة.

لتتدخل الصدفة أيضا بل ليتدخل النظام السائد ويمد لي يد العون اعتقدت أن ما قمت به عمل سري ولم يعرفه أحد، كم كنت مخطئا غبياً إلى أبعد الحدود وكان لخطأ مثل هذا أن يقضي عليَ دفعة واحدة لولا الحظ الذي لازمني طوال فترة بداياتي تلك.

قبل أن أخرج من المقهى اعترضني رجل أمن بزي مدني طالباً مني أن أصحبه بهدوء إلى مديره، بدأت فرائصي كلها ترتعد وجبيني يتصبب عرقا

-لاباس ثم حاجة؟

لم يتكلم العون، طلب مني أن أركب بجنبه في السيارة المدنية التي كانت تنتظرنا خارج المقهى. ظل طوال الطريق صامتاً، لم يتجه بي إلى مركز الشرطة حيث كنت أعتقد، سلك طريقاً معاكساً لمكان تواجد المركز الذي أعرفه حق المعرفة إلى خارج المدينة، لم يكن الخوف هو المسيطر عليّ بل كان أكثر من ذلك بكثير، كان الهلع....

المعراج الثاني

قسم الشرف

في بلد مثل بلدي كلنا نقسم قبل أن نشغل منصباً ما. الطبيب، السياسي، رجل الأمن... بل تجد القسم معلقا في جل إداراتنا لكننا نعمل عكس ذلك القسم نعمل ضده.

-لماذا نصر على القسم يا تُرى؟

لماذا يصر عِلية القوم على بيع الوطن؟ وهم من أقسموا على حمايته. ولماذا مطلوب منا نحن من لم يقسم على شيء التضحية والصبر في سبيل الوطن؟

كنت مُستعجلا ما إن حصلت على الحبات الكثيرة والمتنوعة من الطبيب الذي أقسم قبل تخرجه قسم أبقراط على أن يكون في مستوى شرف المهنة النبيلة، الطبيب المعروف في المستشفى المعروف. ما إن خرجت من مكتبه الفخم حتى اختمرت في ذهني فكرة المعراج الثاني، مجموعة من الأسئلة تطحن دماغي، أُريد أن أجد لها أجوبة، من بين هذه الأسئلة ظل سؤال يُلح عليَ يفرض نفسه بقوة، أُريد أن أجد له إجابة، هناك فقط في ذاك العالم الفسيح أستطيع أن أجد ما أريد وأن أُحلّل كل الظواهر التي تعترض سبيلي، في ذاك العالم الفسيح الذي ترفرف فيه نفسي دون أعباء، أكون قد تخلصت من تبعية الجسد وأعبائه.

استقبلني استقبال الصديق لصديقه، طلب مني مرافقي الصامت طوال الطريق أن أتقدم لأنه لا يستطيع هو أن يتجاوز الحد المسموح له وإن فعل احترق، وأنّ مهمته تنتهي في هذا المكان الذي سينتظرني فيه ليعيدني إلى الأرض من حيث جلبني، لحظتها فقط تفطنت أن مرافقي لم يكن يلبس زياً عادياً كما اعتقدت أو كما رأيت أول الأمر، عندما خرجت من المقهى بل كان يلبس لباسا خاصا أسود اللون.

-تفضل.

في ذاك المعراج ظننت في بداية الأمر أنني في حضرة عزرائيل، كنت أريد أن التقي به، أليس هو أشهر الأمنيين في السماء، الذين يخاف الأرضيون من مجرد ذكر اسمه أمام أحدهم، نعم هو أشهر رجال الأمن في العالمين إن صح التعبير، قابض الأرواح، أردت أن أستفسر منه عن كل شيء، لكنه رفض مقابلتي التقيت شخصا آخر ادّعى أنه مساعده، لكنني اشتممت منه أنه من خدم إبليس وليس من خدم ومعاوني عزرائيل. أشياء كثيرة جعلتني أُخمن أنّه من خدم إبليس ولا يمكن أن يكون إلا منهم سألته عما أنا فيه، وهل من دواء لحيرتي؟

كان يرتدي لباساً أسود تُزينه نياشين ونجوم على كتفيه، مما زاد من يقيني بأنه ليس من الملائكة فالملائكة ترتدي من اللباس الأبيض، هذا ما تعلمته في المدرسة، لكن خادم إبليس قال أن البياض في الأرض انعكاس لسواد الشيطان، ألَا تعلم أن كل ما يصيب الإنسان من مصائب في الأرض مصدرها البيض والأبيض والبياض؟ ألا ترى أن الأسوَد في الأرض مُستسلم لِقدره ومصيره بخضوع تام دون مقاومة؟ ألا ترى بأن الأبيض والبيض لم يشبعوا بعد وهم يبسطون سطوتهم وجبروتهم على

الأرض باسم النور وهم مع الشيطان. البياض في الأرض صديقي غير البياض في السماء، والسواد في السماء غير البياض فيها.
قال لي خادم ابليس إنني بلقائه صِرت من مؤسسة البياض، وسأعمل مع النظام الذي يمثله البياض على الأرض، سأصبح شريكاً له وعليَ ألّا أخاف طالما أنا ملتزم بالقوانين التي أساسها الشراكة والتضحية، وأنني من معاوني النظام من الدرجة الثانية، حيث يقتضي العرف أن يكون انتدابهم شفوياً لا كتابياً والالتقاء بهم والاجتماع معهم لتدارس أوضاع الأرضيين يجب أن يكون في السرلا في العلن.
إذا كنت وقتها قد فهمت معنى التشاركية والتي تعني أن رجال النظام المتواجدين في جميع مناطق الأرض من الصف الأول، هم شركاء لكل رجال النظام المتواجدين على الأرض من الصنف الثاني بطريقة آلية لا تحتاج إلى تعريف، وأن على الطرف الثاني أن يُمكن الطرف الأول من بعض مكتسباته وأرباحه، والتي يرجع تحديد قيمتها للطرف الأول دون مناقشة أو تذمر من الطرف الثاني، في حين يلتزم الطرف الأول بحماية الطرف الثاني والدفاع عنه وتسخير كل وسائل السلطة المتاحة من أجل تيسير عمله الذي هو عملهم ككل أو كمجموعة.
في ذاك المعراج رسم لي خادم إبليس طريقي في الأرض بوضوح، وأنا الذي كانت ترتعد فرائصه خوفا من أن يُقبرني في السجن، قال لي: بأن العالم الأبيض كله سيكون معي، بما في ذلك الكثير من معاونيه الكثر من أصحاب الميدعات البيضاء في كل مستشفيات العالم، هؤلاء عِلية القوم، مصابيحه، بحسب فهم الأرضيين، لكنّ الكثيرين منهم في الحقيقة هم خدمة إبليس وسَدَنته في الأرض يزرعون بذور الموت كل يوم يهلكون الحرث والنسل، في حين كان مطلوباً منهم وفق القسم المُحنث أن يزرعوا الحياة، رجال الأمن يزرعون الرعب في حين كان مطلوبا منهم أن يزرعوا الأمن والطمأنينة في النفوس. رجال ..... قال لي خادم

إبليس: ستجد الكثيرين منهم من سيُقدمون لك آلاف التذاكر التي يحتاجُها المسافرون في الأرض. والذين يجب أن توسع أنت وأمثالك من دائرتهم كل يوم نحتاج أكبر عدد ممكن من المسافرين، كل ما كان الأمر كذلك، كان عملنا نحن ووضعنا على الأرض في استقرار، وكنا في مأمن تام عن المُساءلة عما نفعل ولماذا؟ وخصوصاً عن الثروة. يجب أن نُوزع أكبر عدد ممكن من تذاكر الهجرة والسفر عبر الحبوب عبر قوارب الموت عبر الإجرام ...المهم أن يُسافر أكبر عدد ممكن من الشباب، كل على حسب قدرته وطاقته، يجب أن نُوفر كل وسائل الهجرة وآلياتها لكل الأصناف هذا هو عملنا.

النظام السائد في دول كالتي ننتمي إليها مبني على الهجرة ومساعدة المهاجرين، كل السبل المُؤدية إلى ذلك مشروعة. عندما نعجز عن تهجير العدد الكافي والمطلوب يكون لزاما علينا إشعال الحروب لنضمن لهم هجرة أخرى إلى مكان أوسع من المكان الذي نعيش فيه، نزرع الحروب ليهاجر الناس، نوفر قوارب الموت للمقامرين بحياتهم والحالمين بحياة أخرى، نوفر العمل للأذكياء والمتوفقين خارج حدود البلاد طبعا، و بعد تفكير عميق اهتدينا إلى أن نجعل الفئة المتبقية- والتي يمكن أن تكون مصدر إزعاج لنا- تُهاجر وهي مستقرة في مكانها، ولذلك استوردنا الحبوب ليهجُر الناس عالمهم ويتركوه لنا ولأتباعنا، نحن فقط من يتمتع بخيرات هذا العالم، هكذا نتخلص ممن يمكن أن يكونوا مصدر إزعاج.

قلت إذا كنت قد فهمت معنى التشاركية لأنني اضطررت في ذاك المعراج أن أتقاسم مع خادم إبليس ذاك بعض أرباحي والتي حددها هو، فإن عدم فهمي لمفهوم التضحية كاد أن يقضي عليّ لولا الحظ الذي لازمني في رحلتي تلك بين السماء والأرض.

إن كنت في المعراج الأول قد اكتشفت أن هناك فرقاً شاسعاً بين النجاح كمفهوم مرتبط بالزمان والمكان وبين طُرق النجاح وفق الزمان والمكان

أيضاً. فإنني في هذا المعراج قد تلاشى في ذهني مفهوم الشرف وفق ما هو متعارف عليه في زماننا ومكاننا. إذا كانت عِلية القوم بهذه الأخلاق وما أعرفه وتعلمته، إن كان تعليمي صحيحا أن الأخلاق عِماد الشرف فإنني بحثت عنها وفي قاموس أغلب عِلية القوم الذين قابلتهم ولم أجد لها أثرا أصبحنا نقيس الشرف بالمال ولا يهم المصدر، المهم والأهم المال، الغريب أنّه حتى العلم تلوث وغدا في خدمة المال العفن...

عدت من معراجي الأول ناجحاً بعد فشل، وعدت من معراجي الثاني شريفاً، الكل يتشرف بلقائي والجلوس معي.

أيقظني نادل المقهى من سرحاني، لست أدري كانت أعراض العودة من المعراج تنبئني أنني لم أكن هنا، تيبس في الفك السفلي والعلوي للفم، الرغبة في الاختلاء بالنفس، خواء داخلي غريب يعصرني يجعلني أفكر في أن أضع حدا لحياتي.

-سألت النادل:

-من وقتاش أنا هنا؟

-عندك نص ساعة.

-الماتش وفى شكون ربح؟

-كي العادة ديما جماعة برشلونة وميسي مشكبيين على جماعة رونالدو والريال.

-باهي حاجة تعمل الكيف أنا برشلوني زادة.

خرجت لا ألوي على شيء، هذه المرة لم تعد نتيجة المباراة أو برشلونة تعنيني في شيء، لست أدري إن كان ما كنت فيه حقيقياً أم مجرد خيال هلوسة لكنني عندما تلمست جيب سترتي وجدت الكثير من الحبوب، هذه المرة بكل أنواعها الرخيص منها والغالي حبوب قادرة على قطع الكثير من التذاكر إلى مختلف البقاع والجهات، كل بحسب إمكانياته المادية. هنا اختلط عليَ الأمر هل صاحب الميدعة البيضاء حقيقي؟ هل صاحب

النياشين حقيقي؟ تيقنت وقتها بل جزمت أنني لست أنا من رسم هذا الطريق وأنه يتوجب عليَ أن أمشي فيه شئت أم أبيت.

في طريق العودة إلى المنزل بِت أتحاشى لقاء أبي وأمي اللذين لم يكونا يتحاشيان لقائي. أبي كان يريد أن يرى نتائج غضبه وحظره اللذين قد يحولانني إلى إنسان ناجح وفق معايير النجاح التي يؤمن بها. أمّا أمي فكانت تريد ألا أهرب بعيداً أُسوة بأخوي اللذين هاجرا كما يُهاجر الكل في بلادي، أغنياء وفقراء، من يجد السبيل إلى الهجرة يُهاجر حتى أُولئك الذين التقيتهم في المعراج من عِلية القوم قالوا إنهم يحكمون بلادنا ولكنهم لا يسكنونها، لا يُدرسون أبناءهم فيها، وإذا مرضوا لا يعالجون أنفسهم في مستشفياتها، هم يستفيدون من خيراتها فقط، استغربت ذلك لكنني لم أبحث في الأمر لأنه لم يعد يهمني.

انفرد بي أبي وهو يحاول أن يمد من جديد الرباط الذي انقطع بيني وبينه دون أن يعرف أنني لم أعد أعيش هنا، وأنّ من يتحدث إليه لم يعد إلا جسدا ليس ملكا لي ولم أعد أملك من أمرِ نفسي شيئاً، الغريب أنني لم أتشاجر معه أبداً كما جرت العادة، اكتسبت دون وعي مني ردود فعل جديدة، لم أكن أتوقع بأنها موجودة في نفسي من قبل، أبي نفسه لم يصدق إجاباتي التي تصب كلها في خانة ما يريد أن يسمع ويطمح.

يا لي من أحمق كنت، كلمات جوفاء تفتقر إلى الصدق كانت كافية لتجعل من أبي رجلاً راضياً عني تمام الرضا وكل الكلمات الأخرى في السابق المصحوبة بالدموع والتشنج وأنا أحاول أن أُفهمه كيف يمكن أن يُساعدني وفق احتياجاتي لا وفق احتياجاته، لم تجد نفعاً وأنا صدقا لا أستطيع أن أكون كما يريد.

جعلني أبي أهرب بعيداً بعيداً يومها اكتشفت أنه لن يفهمني حتى ولو عاش مئة سنة أخرى، يومها أدركت معاناة نوح تسعمئة وخمسين سنة

استحق قومه بعدها الطوفان لِعدم فهمهم لروح رسالة نوح، أنا لست صاحب رسالة ولكنني كنت صاحب مشروع حياة...

حياة حقيقية سليمة جاء أبي ليكرر نفس مطالبه، لم يُنقحها، لم يُحاول فهمي، جاء ليُعيد نفس مطالبه التي لم ييأس منها يريد أن يراني كما تصورني في مخيلته، لم يكن يرى أي شيء آخر.

جاء بعد أن أصبحت مشروع تدمير وفساد، لكنني بعد أشهر أو أعوام على أقل تقدير سأصبح ناجحاً شريفاً .... ألا يكفي هذا يا أبي العزيز...؟ قبلت ما أعطاه لي أبي يومها من مال لأنني أصبحت أمام مشكلة كبيرة. كيف يمكن أن أُبرّر المال الذي أصبح يعرف طريقه إلى جيوبي كشلال متدفق؟ أنا من تلقى أوامر صارمة في أن أكون حذراً من هذه الناحية بالذات.

الحساب البنكي الذي افتتحته في فرع بعيد عن مدينتنا أصبح مديره يستقبلني بالأحضان ويتهلل لرؤيتي. هل يكفي أن أدعي كما يفعل أكثر الزملاء أنني وجدت كنزاً حتى أُوجه اهتمام المتابعين إلى الضفة الخرافية الأخرى، والتي يَحلو للكثير من الناس تصديقها والنبش وراء أغوارها، أو أن أدعي أنني كسبت رهانا ضخما من رهانات كرة القدم. أبي الذي قام بمجهود جبار كما قال، في ذاك الصيف استصدر من وزارة التربية بطاقة إسعاف تُمكنني من معاودة الترشح لامتحانات البكالوريا ومتابعة الدروس في معهد الفارابي الذي لا يريد أن يفك ارتباطه بي أسوة بريم التي تعرفت عليها، فلم تشأ أن تتقبل فكرة فك الارتباط بي أيضاً.

لكنني حسناً فعلت تلك السنة التي لم أكملها بالكامل، فيها تعرفت على المجموعة التي سترافقني بقية حياتي، والتي ستؤثر في مشوار حياتي أيما تأثير، يكفي أنني تزوجت أخت حسونة، لم

يكونوا زملاء الصف لتلك السنة الدراسية التي طردت من منتصفها فحسب، بل كانوا أكثر من ذلك منهم من أصبح حريفا ممتازاً لبضاعتي من الدرجة الأولى مثل ريونة، حويتة أسامة الجوادي ،..ومنهم من قطع تذكرة العبور إلى عوالم عدة منها الجريمة، الإرهاب، الخارج، النجاح، الشذوذ، الانتحار... كل هؤلاء تخرجوا من مقهى المعراج المجاور للمعهد الذي طُردت منه أشنع طرد. وقتها عرفت ماذا يعني مفهوم التضحية عند مجموعة ذئاب النظام الذي كنت أعمل لحسابه.

اكتشف أحد قيّمي المعهد وجود علبة كاملة من حبوب الهلوسة في جيبي وهو الذي كان يترصدني منذ مدة مستغلاً اعتزازي بنفسي والغرور الذي منحه وجود الكثير من المال عندي، هذا ما يُنقص بالتأكيد من اليقظة، درس تعلمت منه الكثير كاد أن يقضي عليَ. لم تنفع معه كل أساليب الترغيب والترهيب التي انتهجتها معه أغريته بمبلغ ضخم، لكنه كان من القلائل الذين يؤمنون بقانون قيم الإنسانية والذين في طريقهم للانقراض بطبيعة الحال، ما رفضه القيّم المسكين لم يكن ليرفضه المدير وزبانيته لكن بشروط قاسية. الغريب أن الذين كنت أُعول على دعمهم وحمايتهم لم يتدخلوا البتة.

مباشرة بعد خروجي من المحكمة واعتبار العلبة التي بحوزتي علبة أقراص مهدئة لأنني أعاني من مرض نفسي، وأمام تقرير الطبيب الذي ادّعى متابعته لحالتي النفسية منذ أعوام عدة، لم يكن أمام القاضي الذي لم ينظر إلى كل تلك التقارير أكثر مما كان ينظر إلى المبلغ الذي داخل التقرير، قرّر اعتباري مريضاً، وبموجب ذلك تم فصلي من المعهد وإطلاق سراحي.

كنت أبحث عن إجابة. لماذا لم يتدخل كهنة النظام؟ الذين وعدوني بالحماية اللّامشروطة في معراجي الأول، في تلك الليلة أعرجت لم

انتظر الإذن من الحارس ككل مرة، بل دخلت إلى حضرة خادم إبليس دون الحاجة إلى إذن، وجدته وسط مجموعة من جواريه يشرب الخمر.
نظر إليَ بشزر قبل أن يطلب من جواريه الانصراف.
نظر إليَ نظرة فيها مزيج من الغضب والغفران، شجعني هذا لأقترب اقتراب الخائف المحتج الخانع، ربّت على كتفي سرت في جسمي قشعريرة غريبة كأنها مَسّة كهربائية من نوع آخر، طلب مني أن جلس واستمع لأنني، كما قال، لم أستوعب كفاية ما قاله في المرة الأولى، وأن هذه ستكون آخر مرة سأستفيد منها من عطفه وحنانه الذي لم يسبق أن استفاد منه أحد من الأتباع من قبل.
قال بأنني فهمت جيداً معنى التشارك، وهنأني على هذا الفهم الجيد والذي شفع لي في مقابلته هذه المرة، وجعله يتجاوز عدم احترامي لبرتوكول المقابلة الذي خرقته. أما مسألة التضحية فإنني لم أفهمها كفاية، وهي أن رجال الصف الأول والثاني والثالث من النظام لا يمكن أن يُساعدوا أحد الأتباع الذين اكتشف أمرهم من قبل الأعداء حراس القيم الإنسانية الموجودين في كل مكان أيضاً، كما نوجد نحن في كل مكان، لا يتمتع بحماية رجال النظام هؤلاء أنفسهم لا يتمتعون بحماية اللجنة المركزية للنظام في حالة وقوعهم هم أيضاً، في المحظور، ولكن الأتباع الواقعين في ما وقعت فيه يتمتعون بالتأكيد بحماية الأتباع أمثالهم ودعمهم ممن يعمل في النظام وهم كُثر ومتواجدون في كل مكان والدليل أنك وجدت أكثر من واحد منهم، الطبيب، القاضي، المدير،... كنت محظوظاً لم يُصادفك الأعداء إلا في حالة التلبس مع الحارس.
-قلت وغير المحظوظين ممّن يصادفهم الأعداء في حالة كحالتي.
أحسنت بُني، هنا تتجلى تضحية التابع، ونختبر صدق إيمانه، في هذه الحالة عليه أن ينسى كل شيء وأن يستسلم لقدره وينتظر فقط دون أن ينبس بكلمة، إذا تكلم يكون على موعد حتمي، هنا نتدخل نحن لنضع له

نهاية من حيث لا ينتظر، صبره فقط هو من يضمن تحرره، في الأخير يتحرر، إما أن يكمل حياته مطمئناً بعيداً عن الأضواء إذا كانت مهمته على الأرض حساسة أو أن يكملها مطمئناً أيضا تحت الأرض.

أنت بني كنت محظوظاً.

النظام يحتاج إلى أتباع قادرين على التضحية، يجب أن تفهم أنك لا تملك شيئاً، نحن من جعلك على ما أنت عليه، إذا احتاج النظام ثروتك كلها، فما عليك إلا أن تهبها بخنوع تام، أنت لا شيء ونحن أيضاً لا شيء، اللجنة المركزية للنظام هي المحور، وإياك أن تسألني ما ليس لك به علم. اغرب عن وجهي أيها التابع.

عُدت أحمل خيبتي، غاب حماس المعراج الأول، غاب وَهْمُ النجاح وَهْمُ الثروة، بدأت أدرك ما أنا فيه، عُدت هذه المرة أحمل ورطتي، أحمل فشلي الذي غدوت أراه بوضوح تام، في حين ما زال كلّ من في الخارج يَرون نجاحي.

أيّةُ لعبة هذه التي تورطت فيها، عُدت إلى المنزل الذي هجرته منذ أن ضُبطت متلبساً، وجدت أبي ينتظرني ليصب جام غضبه عليَ، ليتهمني بالفشل ب .... لم يكن ينتظر ابنه بل كان ينتظر أحلامه السخيفة في ابنه، ولما تأكد هذه المرة أنها اقبرت إلى الأبد، قرّر أن يتخلص مني، تلك المرة امتدت يده إليَ صفعاً وركلاً وهو يطلب مني أن أخرج من عالمه، من جنته التي لا أستحق أن أعيش فيها.

يومها اكتشفت أن خادم إبليس كان أحنّ عليَ من أبي، أو هكذا توهمت، ألَا يُمكن اعتبار أبي وأمثاله الكثر هم ظل من الظلال الكثيرة لنظام إبليس على الأرض ليس إلّا.؟

أمي المسكينة التي لم تكن تملك غير الدموع لتؤازرني بها، أمي رمز الغواية على الأرض لم تكن إلا منشفة مسح فيها رُموز الغواية وسخهم

واتهموها وأمثالها زوراً وبهتاناً بذنب لم تقترفه، هي بريئة منه براءة الذئب من دم يوسف.

كان هذا كل ما أريده، كنت أعرف سيناريو الاستقبال مسبقا، لذلك ذهبت إلى المنزل لأجد ذريعة أتذرع بها لأغادر دون رجعة، نعم لم أعد أحمد ابنك قط يا أبي. لقد أصبحت ذئباً يفترس كل من يعترض طريقه.

أبي إياك أن تُعاودها مرة أخرى، لن أسمح لك بأن تتدخل في حياتي بعد الآن ستُراقب فقط وستبارك، إن امتدت يدك اليَ بسوء مرة أُخرى فسأكسرها، بئس الأب أنت، وبئس الآباء أمثالك، وبئس الابن أنا أصبحت.

الغريب أن كل المتتبعين لقصتي في مدينتنا البائسة، والذين كانوا متأكدين من تورطي في قضية حبوب الهلوسة تلك، اعتقدوا إنني نجوت من العقاب بفضل تدخل أبي. كنت محتاجاً إلى أن اختلي بنفسي، استأجرت شقة فاخرة لأسبوع كامل مع سيارة في إحدى المدن السياحية القريبة، في ذلك الأسبوع حضرت أكثر من حفلة "للديدجي "في الظاهر وللمسافرين عبر بوابة حبوب الهلوسة في الباطن، حققت أرباحاً هائلة.

بدأت أفكر في أن أتخذ مساعدين يجب أن أنتقيهم بعناية فائقة، التابع هو المسؤول عن مساعديه ولا علاقة لهم برجال النظام، التابع الذكي هو من يطبق قانوني التشاركية والتضحية ببراعة مع مساعديه وخصوصاً التضحية، يجب أن يكون دوما هناك مساعدون مستعدون للتضحية من أجل التابع في الحالات الطارئة والحرجة التي نصطدم فيها بأعداء النظام من حراس القيم الإنسانية الذين خسروا إلى حد الساعة كل الحروب، لا ننكر انتصاراتهم أحياناً، لكنّها تظل ضعيفة أمام اكتساح النظام للساحة العالمية. أن أتخذ مساعدين يجب أن يكون لي مشروع يبرر تواجد المال عندي وأن يُبرر التقاء الناس واحتكاكهم بي.

في إحدى التظاهرات الموسيقية اقترح عليَ أحدهم افتتاح مقهى ثقافي قريب من المعهد الذي طُردت منه.

-انا منك نحل قهوة بحذا المعهد لطردت منو.

-والله فكرة علاش ماخممتش هكا.

قال بأنني بهذا الحل سأضرب عصفورين بحجرة واحدة، مساعدو النظام موجودون في كل مكان. منهم من يعمل بشكل تطوعي، ومنهم من يساهم من ماله من أجل أن ينجح النظام في فرض الميوعة والانحلال في العالم.

في البداية اعتقدت أن صديقي يهذي، فاستخراج رخصة مقهى أمام معهد تربوي ممنوع قانونياً، لكن صديقي ضحك مقهقهاً.

-دوماً هناك استثناءات صديقي، القانون لم يُسّن ليُطبق على أبناء النظام.

لم أُصدق عندما اقتنع البنك الوطني لدعم المشاريع بدعم مشروعي بنسبة ثمانين في المئة. توصية صغيرة من مدير فرع البنك الذي أودع فيه أرباحي كانت كافية لأحصل على الموافقة مع الالتزام دوماً بنظام الشراكة.

حصلت على موافقة أسرع من البرق. الموافقة التي يحتاج الكثير من الشباب ممن أعرفهم الى أكثر من سنة ومطلب مُدجج بكل الوثائق اللازمة وغير اللازمة ليحصل في الأخير على الموافقة لبعث مشروع. الغريب أن هذه القروض تُعطى لغير حاملي الشهادات بشكل أسرع مما تعطى لحاملي الشهادات، الذين لم يفهموا بعد تأويل القانون الذي يحكم هذا العالم، النظام وخُدامه يجب أن يكونوا شركاء في كل شيء.

-أنا استفيد رجال النظام يجب أن يستفيدوا.

-أنت تستفيد رجال النظام يجب أن يستفيدوا.

-نحن نستفيد رجال النظام يجب أن يستفيدوا.

-.....

لا يمكن أن ننكر أنّ أغلب الناس قد أصبحوا كلهم على دراية بهذا القانون، لكن أغلبهم لم يهتدوا بعد إلى طريقة تطبيقه على أرض الواقع وآلياتها، بل غالباً ما يكونون عُرضة لألاعيب الدجالين والسماسرة من أتباع ومساعدين النظام لسبب بسيط، هو أن النظام نفسه يعجز عن تلبية طلبات كل من يدق بابه ولو توفرت لديه كل الشروط المطلوبة، من هذا المنطلق اكتشفت وأعلنت أنني ذو حظ كبير، إن لم أقل حظ عظيم، كل الأشياء تحدث كما أريد دون تخطيط أو مجهود كبير مني، هل يمكن أن أكون أنا هو المختار أو شيئاً من هذا القبيل؟ كل شيء ممكن تعلمت أيضاً من خادم إبليس ما دمت لا أملك أي شيء فيجب أن أتمتع، لذلك قررت أن أجرب وأن أخوض أية تجربة تخطر على بالي، ما دام الأغبياء دوماً كانوا وما زالوا يعتقدون بأن المقهى كانت من تمويل أبي كالعادة وأنني أعيش تحت حمايته.

عُدت إلى المدينة التي طُردت منها سيداً على سيارة شبابية أنيقة، وعدت إلى المعهد الذي طردت منه أيضا لأصبح شريكا له بل مؤسسة أخرى تضاهيه قوة وتربية. أنا صاحب المقهى الثقافي "المعراج" يا سادة.

لم يصدق أبي عندما رأى هذا التحول الطارئ والمفاجئ، لم يجد من بد أمام استفسار الناس إلّا أن يُزكّي الإشاعات التي تؤكد بأنه مصدر النعمة التي أنا عليها الساعة ومنبعها.

-والله يعطيك الصحة سي ... عملت المليح مع ولدك الفايدة في النجاح في الحياة مش ف القراية بركة.

-اش باش تعمل خويا احنا علاش نجروا ما عليهم ربي يكمل بخير ويسهل.

كان أبي يُعطي إجابات تقبل أكثر من تفسير لكن السامع دوما يؤولُها وِفق ما هو مُشاع عند الأغلبية.

-"سي.... ولدو طردوه من المعهد مشى حلو قهوة قدام المعهد شماتة

ف المدير، الفلوس اش تعمل".

زاد هذا الاعتقاد عند الناس إثر المشادة الكلامية التي حصلت بين أبي الذي أصبح هو المسؤول الأول عن الأشغال في المقهى وبين مدير المعهد الذي هدد بأن المقهى لن يرى النور.

-زايد سي ..... تخسر في فلوسك باش يتحل من هنا نسكروا ليك من هنا ممنوع مقهى قدام المعهد.

-كانك راجل سكروا يا أنا يا أنت في المدينة هذي، حضر روحك باش ينقلوك للخلا وللقفار.

-واحد جاهل كيفك انت يقلي هكا والله لا تحلت القهوة هنا.

-أنا أشرف منك أنت الجاهل يا أنا يا انت والله لا نعديها ليك التطريدة والباطل لطيحتوا على ولدي، شلاكة.

لولا تدخل الناس لنشبت المعركة بالأيدي، أنا الوحيد الذي كنت أعرف الحقيقة وراء تلك المعركة، المدير كان يُناور من أجل أن يحصل على ضعف ما حصل عليه في التحقيق حول الحبوب، لكنني تجاهلت الأمر لأنني هذه المرة حصلت على موافقة من هم أعلى درجة منه وتزكيتهم أولئك الذين أقسموا قسم الشرف، كانت معركته مع أبي كلها تصب في الخانة والمصلحة التي أريد.

بعد ذلك اليوم صدرت بطاقة البراءة من أبي تُجاهي، أصبحت في نظره ونظر العائلة والمدينة الناجح المتفوق وأن النظام التربوي الذي يُمثله أمثال المدير هو النظام الفاشل الذي يكسر الطموحات، وهو غير قادر على إخراج مواهب تلاميذ مثلي وقدراتهم الإبداعية.

حرصت على أن يحضر حفل افتتاح المقهى كل وجهاء المدينة، بل الأكثر من ذلك قص شريط الافتتاح كاتب ومؤلف معروف وهو يلقي

نظرة على مكتبة المقهى التي اشتريت معظم كتبها من سوق قديم يبيع الكتاب بدينار واحد.

إنها مقهى المعراج الثقافي التي يُعوّل عليها النظام في أن تُساهم بشكل كبير في زرع قيم التسامح والميوعة والاستقرار في البلاد.

كان أبي أكثر الناس الذين لم يصدقوا أنّ الأمر تم بذاك الشكل، أبي والمدير الذي حضر بعد أن قمت بترضيته بأقل ممّا كان ينتظر بكثير.

ليلتها لم يعد يُطيق أبي صبراً، كان يريد أن يسألني منذ أمد بعيد. ماذا فعلت؟ وكيف؟ الأجمل من ذلك اليوم قَزمت حُلمه القديم، جعلته يراه حُلماً تافهاً بالمقارنة بما أنا عليه الساعة، كان يريد أن يراني مُلازماً في سلك الشرطة، يومها حرصت على أن أبدو في مكانة أكثر بكثير من التي كان يريد أن يراني عليها.

-احمد ولدي نقولو المقهى عملتها هي والكرهبة بالقرض والناس هاذوما والحفلة منين وأنت ولدي تصرف تقولش عليك مطلع كنز.

-علاش بابا ما تقولش كنز لي عند ربي مش بعيد.

تدخلت أمي لتنهي الحديث الذي لا يجب أن نذكر فيه النعمة ومصدرها التي نحن عليها كي لا تصاب بالبوار نتيجة العين والحسد.

-خليه .... ما يحسد المال إلا صحابو ربي يبقي عليه الستر من العين والحسد سيبو ها هو ولى خير مِما كنت تحب.

-ربي يبقي الستر واكهو ربي يسترك يا احمد ولدي.

-مستحق حاجة بابا؟

-لا ولدي لي عندي مكفيني الحمد لله.

غادر وهو يُحوقل ويُبسمل علامة الرضا لا التذمر هو لا يريد أن يعرف.

يُحس أن هناك شيئاً غير طبيعي، لكنه لا يريد أن يعرف، عندما يتوفر المال يصبح هو السياج الذي يحمي صاحبه حتى من ذويه وربما من نفسه، تذكرت كيف كان أبي في أحيان كثيرة يُصر على أن يعرف

بالتفصيل المُمل سابقا لماذا غِبت على سبيل المثال عن حصة الفرنسية، ولم يكن يقتنع بكل الحجج التي أُعطيها له وإن بدت معقولة، اليوم يُمثل دور المقتنع بل يُبارك اقتناعه المزيف بدعوات وابتهالات للرب أن يباركني ويحميني.

أنا كيومة تابع إبليس أعرف أنه يكذب لكن هذه المرة وافق كل الكذب هواه لا غير.

-ولدك يا سي .... ولى راجل تعمّل عليه تربية وأخلاق

-اش باش نعملوا ربي يهديهم ويكمل عليهم واكهو.

في حين أصبحت قادراً بالحاسة التي اكتسبتها أن أُميز بين رجال النظام وبين التوابع وبين مساعدي التوابع والأنصار وكذلك والأهم الأعداء، نعم حُراس القيم الإنسانية هؤلاء، أصبحت قادراً على اشتمام رائحتهم على بعد أميال. هناك مجموعة من الخصائص التي تميز نظرتهم... الناظر الذي أمسكني مُتلبسا هو الوحيد الذي لم يتشمت فيَ أثناء التحقيق، بل كان ينصحني واعتبر ما أنا فيه فرصة لأُعيد تقييم حياتي من جديد وهو الوحيد أيضا مع مجموعة من الأساتذة لم يزر مقهى المعراج كحريف بل ظل متمسكا برأيه ولم يتوقف هو وأصدقاؤه عن كتابة العرائض والشكاوى لكل الأطراف من أجل استصدار قرار غلق المقهى. لا أنكر أنني بِتُّ مقتنعا بكلام خادم إبليس بأننا في معركة مع هؤلاء.

هذه العرائض التي تسببت مرة في إغلاق المقهى لمدة ناهزت الشهر، خلالها التزمت بقانون التضحية، الصمت والصبر والبحث عن حلول عند أعوان النظام وأتباعه بالتأكيد مع الدفع بسخاء دون أن يمس ذلك بقانون التشارك أو الشراكة، خلال ذاك الشهر لم يتوقف عملي الحقيقي بل أغلقت المقهى التي لم تكن تشكل إيراداتها شيئا مهما بالنسبة إليّ، لكن مع ذلك كان عليَ أن أتصنع الدمار والتدهور وأن أحتج باعتبار الدولة

عدّواً للشباب العصامي من أمثالي، في حين ظلت حصة الشركاء تصل إليهم وفق الشروط المتفق عليها وفي آجالها المحددة.

من جملة من تعرفت إليهم أحمد ايراتيك الذي كان ضمن شلة الباكالوريا المنحوسة، احمد "إيراتيك" الذي شاركني حب ريم لا الذي تنازلت له عن ريم ودفعته ليتحمل وزر خطيئتي. ريم تلك النسمة الصيفية التي تعرفت إليها ذات صيف وهي تبحث عن تذكرة المعراج لتنسيها آلامها، اضطهاد المجتمع الذكوري الأحمق لها. لكن النساء من أمثال ريم في بلدي كمن يستنجدن من الرمضاء بالنار هربت من ظلم المجتمع الذكوري إلى جحيمه، في مجتمعنا لا مهرب منه إلا إليه، ريم هي من منحتني الكثير من التوازن الذي كنت في أمس الحاجة إليه، منحتني ما كانت هي في حاجة إليه، في حين منحتها أنا مزيدا من الاضطراب وعمّقت آلامها أكثر مما كانت.

معرفتها بي هي ما جعلت مسار حياتها كما هو، لو لم تكن مُتيمة بي إلى حد الجنون لما ارتبطت بأحمد صديقي نكاية فيَ، أو رغبة منها لإثارة غيرتي، لكنني كنت أنانياً لم أستمع لصرخاتها، لأنينها. وجدتها فرصة لأهرب لأتذرع، لأجعلها هي الخائنة، لأبحث عن الفتاة العذراء التي تمثل الشرف الذي أؤمن به.

ريم كانت أكثر من عذراء أنا من افتضضت بكاراتها، أنا من انتهك ما يُسمى هنا على الأرض زورا شرفها، لكنني الآن بت متأكّداً بأن ريم كانت أشرف بكثير مما اعتقدت وممن كنت أعتقد شرفهن وأولاهن سلمى زوجتي.

كانت ريم منسجمة ومتناغمة مع ذاتها، أذكر عندما تعرفت عليها سردت لي بعفوية قصة حبها الفاشلة في مدينة الساحل العنصرية تلك، سردت قصة رسوبها في امتحانات الباكالوريا اللعينة، كانت تتكلم باسمي وتُعبر

عن مأساتي، كانت تملك القدرة على التعبير عما يدور في خلدها، في قلبها، كانت تترجم كل تلك الأحاسيس إلى كلمات. ما أجمل كلماتها يومها قالت: إنّها لا تؤمن بمفهوم الشرف الذي يؤمن به الأرضيون وطلبت مني أن أفتض بكارتها لتتمتع بالجنس لتعرف وتكتشف لذته ومتعته.

غبي أنا، اعتبرتها عاهرة، وأقدمت على فعلي ذاك وأنا فخور بفحولتي.

أكثر من عامين مع ريم كنت سعيداً معها، لكن اعتقادي الراسخ بأنها عاهرة من منظوري، جعلني لا أفكر فيها كما يجب وقتها وأنا مغرور بإنجازاتي، بدأت أنصب شباكي حول سلمى الصغيرة التي لم ينتبه إليها أحد بعد. سلمى ذات السادسة عشرة من عمرها، كنت أريد فتاة لم تَطَلْها يد بشر، هكذا كنت أفكر، أريد فتاة عذراء بأتم معنى الكلمة.

هل كنت أبحث عن ملاك في رحلتي تلك؟ هل اعتقدت سلمى ملاكا لا فتاة لأظلمها من بعد ذلك بعد أن اصطدمت بأنها مجرد إنسانة تتغوط وتطلق الريح من مؤخرتها، بعد أن اكتشفت أن العذرية أسمى بكثير مما نعتقد وبأنها سلوك روحي قبل أن تكون مظهراً جسدياً.

أنا كيومة الذي يزرع الفساد أينما حل وارتحل أبحث عن الشرف، عن الطهارة، عن العذرية، انفصام أو ربما هو أكثر من ذلك بكثير.

ريم بين لذائذ الرغبة ووهم الحب

في عمق كل إنسان وجع صامت

بعد أكثر من علاقة غرام، حب، جنس... فاشلة، تُوجت في الأخير بزواج أعرج لم يدم أكثر من أشهر. كل هذه الترهات، المغامرات، الرغبات... مِمّا يُمكن أن نُسميه كذبا بالحب، هذا الذي يختلط بالرغبة ونعتقده حُباً، هو ليس كما نعتقد، بل مجرد رغبة وتعطّش إلى الآخر يجعلنا نعتقد أننا نعيش الحب.

في رحلة العذاب تلك لتلبية عطش الجسد الجامح ورغبته، يظن الكثير والكثيرات من الأغبياء أمثالي أنهم يعيشون قصة حب، لكن غالبيتهم يستيقظ بعد فوات الأوان من ذلك الحلم المزعج. قد تُترجم تلك العلاقة المُفعمة برغبات الجسد واحتياجاته إلى ما يُسمى "الزواج" هذا الذي يجسّد في مجتمعنا انتصار غواية المرأة.

هنا يزداد يقين الأغبياء والغبيات بأن قصة الحب تلك المشوهة قد نجحت، هل الزواج هو نهاية العلاقة وتتويجها؟ أم هو البداية الفعلية لها؟ الزواج بداية الاختبار الحقيقي الذي يجعلنا قادرين على أن نعرف إن كان ما كنا فيه مجرد عطش جنسي أم أننا كنا نعيش قصة حب كاملة بجانبيها الروحي والجسدي معاً، الاستمرار بشكل متوازن والسيرورة في العلاقة وانعكاس ذلك على الجيل الذي يخرج من منبع اللذة والحياة ...ذاك هو فقط القادر على أن يُحدد حقيقة العلاقة وقُوتها.

أنا لم أكن أعيش قصة حب حقيقية مع أحمد "إيراتيك"، كنت أعرف ذلك مُسبقاً وكان هو أيضا يعرف، لكنّنا تجاهلنا ذلك، لأنني كنت هاربة من جحيم ولفيح لظى حبي من طرف واحد لكيومة، وأحمد كان يعيش داخل الجحيم نفسه يحتاج لمن يخفف عنه لهيبه.

لو لم يتخرج في تلك السنة أستاذا ما فكرت في الارتباط به أبدا، بل كنت قبل أن يتخرج بأيام قد عزمت قطع علاقتي معه بشكل نهائي. جاء تخرجه المفاجئ ليُبعثر كل حساباتي وخصوصا أن تخرجه تزامن مع استعدادات كيومة للزواج من الحرباء سلمى.

الغيرة جعلتني أفقد توازني، لم أفكر كما ينبغي. وجدت بأنه من السهل إقناع أحمد ايراتيك بالزواج بي لأثبت لكيومة ولسلمى بالذات أنني أستطيع النجاح أن أتزوج بأستاذ، والأهم من ذلك فهو يحبني، ألَا يقولون بأنه من الأنسب للمرأة أن تتزوج من يُحبها وليس من تحبه. بالرغم من كل ذلك أقنعت نفسي أنه من السهل أن أجعل ارتباطي بأحمد ارتباطاً ناجحاً. وهذا ممكن وقد نجح فيه الكثيرون والكثيرات عبر تحويل علاقة الزواج إلى مؤسسة وشراكة ذات أهداف نبيلة يعرف كل طرف ما له وما عليه.

لكنني فشلت، هذا كل ما في الأمر. فشلت كزوجة كما فشلت كعشيقة. بِتُّ شبه متأكدة أننا نحصد العذاب من علاقاتنا ومُتعنا السابقة. علاقتي

مع كيومة الذي كان صديقاً لزوجي، والذي تغيرت لغته ونظرته للمرأة، بعد الزواج إلى النقيض. كل ذلك التفهم، ذلك الحب، تلك التضحية، كل شيء تبخر واختفى بعد أشهر قليلة من الزواج. زوجي الذي ادّعى قبل الزواج التفتح وبأنه يُفكر بشكل مُتحرر وأن المرأة كما الرجل غير مُجبرة على تقديم تقرير عن ماضيها لأي كان، كان يفعل، وكانوا ومازالوا يفعلون ذلك لمجرد الحصول على اللذة والمتعة. وكنا وما زلنا نحن النساء نصدق ذلك التفتح المزيف أيضا من أجل المتعة واللذة أيضا.

هذا الماضي الذي أرخى بظلاله وبدأ زوجي بعد الزواج يحلو له أن يستحضر ذكريات ماضيَّ، بتنا أنا وهو نجتر هذه الذكريات كل يوم بعدما كان يعتبرني حرة في كل ما مضى من حياتي وأنه معني بالحاضر، غَدَا بين عشية وضحاها يعتبر نفسه قد مَنّ عليَ بأن قبِلني زوجة له وأنا الحاملة لتاريخ مُقرف حسب تعبيره، نعم، تجرأ وقال إنني كنت دُمية يلعب بها "كيومة"، والفضل كل الفضل يرجع له لأنني صِرت بفضله امرأة محترمة وزوجة.

صارت هذه لغة زوجي الجديدة، هكذا تواصل الشجار بيننا. كيومة الذي دامت علاقتي معه أكثر من عامين، التقيت به عشر مرات على أبعد تقدير، بعد أن تزوجت أصبح يعيش معي، يستحضره زوجي يدعوه لتناول كل وجبات اليوم من الغذاء...، بل أحيانا يدعوه ليشاهد كيف يضاجعني ويقوم بالمقارنة.

مرة سألني:

-ظاهرلي انت مازلت تحبي كيومة عمرك ما حبيتني؟

لم أُجبه اكتفيت بالصمت كنت عارية في حضنه وكان يتلذذ بطعني. هكذا يجعل مني سلعة لا غير، لا إرادة لي، لا مشاعر، لا أحاسيس لم يثنه سكوتي فأردف:

-يا خي ز... أكبر وأطول من ز...

لم أجد ليلتها ما أفعله غير الصياح ونتف شعري، لم يعد للحوار معنى ولم يعد يُجدي عندما يصل إلى هذا المستوى. قلت لعل الزمن يُغيره، ينسى، لكنه كل يوم يزداد تطرفاً، فرض عليَّ مجموعة من القوانين التي لا تُحتمل، أصبحت متهمة عندما يُهاتفني أحد على وجه الخطأ، عندما يترك أحدهم تعليقا جميلاً على الصور الخادعة التي أنشرها على حائطي لأوهم الآخرين أنني زوجة سعيدة، ينقلب السحر على الساحر لأكون مضطرة لسرد تفاصيل علاقتي ومعرفتي بصاحب التعليق إلى حدود العصر الحجري، كل هذا وسيد أحمد لا يقتنع، يزداد بُعداً يوما بعد آخر، حتى عندما أخبرته أنني حامل لم يُغير هذا فيه شيئاً.

عندها قررت، أو بعبارة أُخرى، استيقظت ساعتها مُقررة أن أهجر عالم زوجي، حاملة معي ابني ثمرة الرغبة الجامحة تلك وليس الحب. كيف انقلبت كل الأشياء الصغيرة التي كانت إلى الأمس القريب منبعاً للسعادة على الأقل، للمتعة، تحولت فجأة إلى بركان للعذاب.

كيف يمكن لشخص أن ينقلب هكذا دون سابق إنذار، بعد ان أرغمت نفسي على اعتبار أحمد "ايراتيك" الملاذ الأخير لفشل قصصي العاطفية، بعد أن أرغمت نفسي وقلبي على التأقلم، معه بل على قبوله والرضا به باعتباره كما نُسمّيه النصيب أو نصيبي في هذه الحياة، ربما أكون بذلك قد ظلمته وظلمت نفسي.

أن تعيش فتاة أو أسرة من تونس في مدينة كصفاقس، حيث نعيش كلنا ونحن نتبادل تحايا الصباح والمساء محاولين بجهد كبير أن نُخفي الكم الهائل من رغبة إقصاء الآخر، لأنه لا ينتمي إلى محيطنا.

كنت أسمع الكثير من هكذا كلام من الكبار عن الجهوية والعنصرية معتقدة أنهم يُبالغون كثيراً، لكن كلما تقدم بك العمر أو الحاجة إلى الآخر الذي يشاركك المدينة، المدرسة، الكلية، العمل. واقتربت منه بدافع الحب الصداقة أو الجحيم، وقتها فقط ستُدرك أنك لست من هناك ولا تنتمي إلى

هؤلاء الناس الذين يستغربون وقاحتك وجرأتك على الاقتراب بمثل هذا الشكل الفظيع.

وأنا صغيرة يافعة كغيري من اليافعين، كنت بارعة في التمرد على وصايا أُمي وكانت هي تعرف أكثر مما أعرف بكثير. أمي التي كانت تحرص وتفضل قضاء كل العطل في مدينتا الأم القريبة من مدينة تونس العاصمة.

لم أفهم الغاية من حرصها إلا بعد فوات الأوان، بعد أن اكتوى قلبي في صفاقس المدينة في سنة الباكالوريا اللعينة تلك التي لم اجتزها حيث كنت أجتر أحزاني وآلامي.

كنت كأي فتاة في عمري أرى العالم بلون وردي متفتح جميل، لكنني استيقظت فجأة على قبحه، أحببت، أو تحت نداء رغبة الجسد اعتقدت أنني أحببت ابن حي البستان في صفاقس، ابن الجيران لم أخرج عن قاعدة العشق العربي ابن الجيران أو ابن العم وأنا ريم الغبية اكتويت بحبهم كلهم عن بكرة أبيهم.

تبادلنا أنا وابن الجيران، بعض القبلات خلسة وبعض الرسائل، كان ذلك كافيا بالنسبة إليّ لأعتبره حباً، وكان ذلك كافياً أيضاً بالنسبة إلى أمّه لتعتبر ما حصل جريمة وتعتبرني فضولية أريد أن آخذ ما ليس لي.

نهرته أمه كطفل صغير مُحرمة عليه محادثتي. لم تكتف الأم الصفاقسية بذلك بل شكتني إلى أمي. لم يكن كل ذلك ليهمني أو ليؤثر فيّ، لكن أن يقوم هو بتجميد اسمي على صفحة الفايسبوك، ويتبرأ مني أمام العلن وأمام زميلاتي اللاتي كنت أفتخر أمامهن بحبه لي.

كان كل ذلك كافياً لأعلن تمردي تلك السنة والأعوام التي تليها. لم أنجح في اجتياز الامتحان اللعين، لأنني لم أجد من يُخفف عني آلامي التي استهزأ بها الكل. نحن شعب يستهزئ بالعواطف، بالأحاسيس، لا نُقيم لها وزن، لا نعتبرها مهمة ولم ندرج بعد مُخلّفاتها في جدول الأمراض

عندنا، والأكثر من ذلك نستهزئ بمن يعيشون ما يمكن أن أسميه الإحباط العاطفي، نتهمه بالفشل والغباء كأنه كان يملك مفاتيح قلبه أو كانت بيديه وهو من ضيعها، الأكثر من ذلك نتهمه بالفشل. هل تُقيم العلاقات العاطفية بالنجاح والفشل؟ أنا ريم لا أعتقد ذلك البتة.

الفشل والنجاح نُقيم بهما مشروع امتحان وأشياء تخضع لقواعد الحب، العاطفة، الرغبة. الأحاسيس لا تخضع لتلك القواعد اللعينة. أنا لم أفشل في قصة حبي الأولى، أحببت كما ينبغي لأي فتاة أن تحب، أحسست بالحب فأحببت، لم أخرج عن طبيعتي البشرية ولم أكفُر بها بعد.

أنتم من وَأَدَ هذه العاطفة لأنكم أخضعتموها لقواعد لعينة كتلك التي ما زالت تُكبّل قلوبنا ورغباتنا وأحاسيسنا، تجعلنا نخجل من النيران التي تشتعل في أجسادنا تجعلنا نعتبرها حراماً عيباً ...

أمي دأبت على ترديد موالها القديم الجديد:

-يا بنتي ماني قُلت لك الصفاقسية ما يحبوش البراني بناتهم يعطوهم للبراني إيه أما ياخو منهم إلا إلا كان بوك غني يطنطن.

-أنت راسك رزين ماتحبيش تسمع الكلام، اشربي.

أدركت بعد ذلك بكثير وأنا أستمع لقصص الإقصاء تلك التي تفوق في بشاعتها الخيال، كيف غَدَت الأعراف اللعينة تتحكم فينا أكثر من ذي قبل.

في الجاهلية كان لا يُضير السيد وأقول السيد وليس أشباه الرجال أو الذكور هذه، أن ينجب من جارية ويُلحق نسب ابنه منها، بل من أبناء الجواري من أصبح ملكاً في تاريخ العرب. أحفاد هؤلاء الذين رَاحَ أغلبهم يشترط على من يرتبط بها من غير محيطه ألّا تنجب، فضلا عن كونها الزوجة الثالثة أو الرابعة كل ذنبها أنها ليست من ذلك المحيط اللعين وتحمل جنسية أخرى لدولة عربية تتكلم نفس اللغة وتدين بنفس الدين.

هذا المرض المستفحل في جسد مجتمعاتنا بصور شتى، يتخذ هنا صورة واضحة ويتخفى وسط مجموعة من الأسمال البالية في مجتمعات كمجتمعاتنا التي تفتخر كذباً بأنها تحررت بنسبة كبيرة من الأعراف البالية تلك، لكن الحقيقة لم نتحرر بعد. كل ما في الأمر أننا بارعون في إخفائها وراء مسميات جديدة.

في ذلك الصيف كنت محطمة تائهة فاشلة. تعرفت إلى كيومة أو أحمد، تعرفت إليه لأذوب فيه، لأنسى في حضنه كل آلامي. لم أكن أعرفه كفاية لأرتمي في حضنه بذلك الشكل الذي أدركت فيما بعد أنه يُنظر إليه على أنه ارتماء مُهين، كل ما أعرفه أنني كنت منهارة أحتاج إلى من يواسيني، يعانقني، يصدمني، يعطيني شيئاً آخر خارقاً لأنسى ما أنا فيه.

كان أبي فخوراً بمنزله الذي شيده في حي السعادة، كنت أبحث عن أي تذكرة مغامرة لتنسيني خيبتي في حبي وفي الباكالوريا، حيث أخبرت أمي كذباً كل الجيران والعائلة أنني اجتزتها، شكّل لي ذلك جُرحاً إضافيا لأن عائلتي الصغيرة لم تتقبلني كما أنا، اعتبرت عدم اجتيازي للباكالوريا عاراً يجب إخفاؤه.

صِرت أنا وأمي نتباعد يوماً بعد يوم. أجد كل صباح لائحة طويلة من البرامج التي يجب عليّ اتباعها رُغماً عني، ملزمة بحضور كل عرس من أعراس الأقرباء. تلك الأعراس السخيفة، وأنا مُدجّجة بِكَمْ هائل من المكياج والمجوهرات لعلّي أفلح في إثارة انتباه الأمهات قبل الذكور.

كان برنامج أمي واضحا، أن تعرضني كبضاعة في طريقها إلى الركود على أكبر عدد ممكن من نساء العائلة وهي تتودد إليهن ليفكرن في اتخاذي زوجة لأحد أبنائهن الموقرين.

-احنا ماشين للعرس وري للعباد سنيك ينوب ربي نرتاح من خليقتك، مُش تغطسي في البورطابل والله كان تعاوديها ما نكسر بوه الكلب قدامك مالا حالة.

رحلة الذهاب للأعراس تلك كانت عذاباً حقيقياً بالنسبة إليّ، لكن ذلك اليوم حولته صديقتي مريم إلى جنة، هي من اقترحت عليَ شراء حبة "الاكستازي" تلك

-ماشية للعرس حتى أنا ماشية شطر حبة تخليك طايرة تقول ف الجنة مش ف العرس.

كانت الغاية من كشف مريم لسرها لي واضحة، فهي لا تملك ثمن الحبة. يومها التقينا بعد موافقتي بكيومة أمام مخبز المدينة

-ع السلامة كيومة هذي ريم تقربلي من صفاقس.

-مرحبا ريم.

هذا ما قاله، ناولته مبلغ الثمانين دينار وأنا أرتعش كان منظر الحبتين ورديا جميلا، لاحظ ترددي.

-ماشين للعرس ماتخافيش هي تحب الموسيقى الحبة توا تشوفي ماكش باش تندمي هاهو نومرويا كان استحقتني في حاجة.

تعامل معي كحريفة يريد أن يكسبها لتسويق منتجاته، أعطاني رقم هاتفه لاعتقاده الذي وصل إلى حد اليقين أن التجربة ستُعجبني أو بعبارة أدق ستعجبني رحلة "الاكستازي" تلك الممتعة.

في ذلك العرس بعد أن تناولت الحبة الوردية بخوف كبير وتحت تشجيع صديقتي، بعد نصف ساعة تقريباً وُلِد بداخلي شخص آخر ليس أنا، فجأة تحولت، صِرت مُحِبة، أبتغي السلام وأنشره في القاعة. سلّمت على كل من اعترض طريقي بحب كبير، نسيت كل الحواجز حتى أولئك الذين كنت أكرههم ولا أطيق مقابلتهم من عائلتي، ليلتها وجدت نفسي أحبهم بشكل لم أكن أتصوره. أمي اندهشت من تحولي المفاجئ الذي أعجبها وهي تشجعني بنظراتها على المزيد. رقصت غنيت في لحظة نشوة، انتزعت الميكرفون من المغني لأغني للحضور الذي صفق لحلاوة صوتي. نقلتني الحبة العجيبة للعالم أو للصورة التي تُريدني أمي عليها.

أبدت الكثير من النساء الغبيات المترهلات اللواتي لم يعدن يمارسن الجنس بتاتاً مع أزواجهن فعوضن ذلك بالثرثرة والسيطرة على أبنائهن ورسم برامج حياتهم بدلا عنهم. أبدى الكثير من هذا النوع البشري ليلتها إعجابهن بي، باعتبارهن دوما في رحلة بحث عن الفتاة الخرقاء التي يسهل التحكم فيها واستغلالها.

في تلك الليلة ونحن عائدون في سيارة أبي ومفعول الحبة الذي بدأ يتلاشى تدريجياً ليحل محله صداع رهيب، نقلت لي أمي بفخر اهتمام عدد محترم من النسوة بي وهي تُمنّي النفس بأن ينتقل الإعجاب إلى فعل لأكون زوجة لأحد أبنائهن.

في الصباح حاول أبي جاهدا إيقاظي، لكنني كنت أغط في نوم عميق. اعتذرت عن عدم استطاعتي مرافقتهم الى شاطئ الرفراف بضواحي مدينة بنزرت. ولأن أمي كانت راضية عني أعتقتني يومها، ويا ليتها لم تفعل. تناهت إليَ توصياتها وأنا بين اليقظة والنوم ناصحة إياي بالذهاب إلى منزل جدتي في حومة السوق عندما استيقظ.

لم أكن أعرف أنني سأدفع ثمن نشوتي بتلك السرعة، أن تستيقظ من النوم بعد تناول "الاكستا زي" شيء فظيع، ذلك الخواء، الإحساس بالكآبة الرغبة في الانزواء، صداع في الرأس، تَيبُّس فكي الفم، حتى أنك لا تستطع فتحه بسهولة، ناهيك عن آثار العض على الشفتين، حمدت الله كثيرا لغياب أبي وأمي.

استيقظت وأنا أعاني من كل الأعراض السالفة الذكر حوالي الحادية عشرة صباحاً لا رغبة لي في شيء. لست أدري أي جِن ركبني ذلك الصباح أي جِنْ فتح لي باب الجحيم أو بعبارة أصح باب كيومة دون شعور مني وجدت نفسي أُهاتفه لأسال عن كيفية التخلص من أعراض الحبة العجيبة، كان المنطق يقتضي أن أتصل بقريبتي مريم أو أعرج

عليها لكن للمنطق قانونه، كما للقدر قانون آخر وللغباء أيضاً قانون آخر.... أنا إلى حد الساعة لم أُدرك بعد إلى أي قانون يمكن أن يُصنف تصرفي ذاك الذي غير مجرى حياتي كلها.

-عادي ريم عادي. اسمك ريم ماو؟

-ايه اما راسي باش يترشق. كيومة اسمك ماو؟

-لا أنا اسمي أحمد أما يعيطو لي كيومة. اش المطلوب مني ريم؟

-ماثماش حاجة تسكت وجيعة الراس هاذي؟

-من ناحية ثم ثم. تنجم تجيني توا؟

كيف تصرفت أمام هذا السؤال أنا نفسي لم أكن أعرف، أن بداخلي تلك الجرأة لأفعل ما فعلت ذلك اليوم، لم أُخطط للأمر، جاء فجأة وفجأة حصل.

-انا توا مانجمش. تنجم تجيني أنت للدار وحدي أنا.

-داركم وين؟

-مشاو للبحر يحبلهم السابعة متاع العشية باش يرجعوا.

- ما يجيك حد نورمال؟

-لا ما يجي حد باش نخلي ليك الباب نتاع الجردة من تالي ادخل.

-اوكي نص ساعة نكون عندك

أي عفريت ركبني يومها، لم يجد صعوبة في الاهتداء إلى المنزل، بعد نصف ساعة وجدته داخل منزلنا أنا وهو وحدنا كأننا على معرفة سابقة امتدت منذ عصور عدة، أو كأنه أحد أفراد العائلة، هو أيضا تصرف كأنه يعرفني منذ زمن طويل.

سألني إن كان في الثلاجة موزا، ناصحاً إياي بأن أتناول بعض الطعام رغم شهيتي المسدودة. بعد أن قام هو بإعداد القهوة وأرغمني على تناول موزتين. اكتفيت أنا بمراقبته وأنا أحيي فيه شجاعته وعدم خوفه، كنت معجبة بشجاعته وجرأته، يغريني الرجل الشجاع. لم يتحرش بي بتاتا كنا

في المطبخ فسّر لي مراحل تناول الاكستازي بالتدقيق وسردت له تجربتي الأولى وجدت نفسي دون شعور مني أسرد له قصة حبي الفاشلة في صفاقس ورُسوبي في الباكالوريا.

-احنا زملاء حتى انا منجحتش في الباك.

-مازال تقرا؟

-ايه علاش. اش تسخايبني؟

لا حتى شيئ.

-اوخ كيومة راسي باش يترشق.

-مالا نتعداو للمرحلة الثانية توا.

-شنية؟

-جنطة

لم أكن أعرف ما معنى كلمة "جنطة"، كل ماكنت أعرفه وقتها أنني مستعدة للموت لو طُلب مني ذلك، أحسست أنني مستعدة لِفعل أي شيء يُخلصني من صداع الراس ذاك.

ما حدث بعدها لست أدري أهو من تأثير السيجارة المحشوة ب"الماريخوانا" أم أنني ظهرت على حقيقتي ظهرت كما أنا كنت فقط احتاج شخصا مثل كيومة ليكتشف ما أنا عليه.

بعد سيجارة "الماريخوانا" الثانية التي لفها لي كيومة ببراعة، بدأت فعلاً أعراض صداع الرأس تختفي لتفسح المجال لصرخات الجسد المكبوت بالظهور، لكنني لم أكن أعرف أبداً أنها ستظهر، ستنفجر بذلك الشكل الشاذ، لم أكن أعرف من قبل أنني أتلذذ الاحتكاك مع الذكر بتلك الطريقة.

اقترحت عليَ كيومة ونحن في المطبخ أن أطهو له بعض شرائح الدجاج لنتناول معاً وجبة الفطور في تونس والغذاء في العالم، وأنا أُعد الوجبة كنت أرتدي فستاناً وردي اللون قصيراً شفافاً فوق الركبة تبّاني الأزرق كان ظاهراً، نهداي كانا يُطلان دون حواجز على من يقابلني، شعري

كان مُسدلاً على كتفي بشكل عفوي وانسيابي. كل هذا لم يُحرك في كيومة ساكنا بل ربما لم ألحظ جُملة وتفصيلا أنه كان يُحدق فيّ بطريقة شهوانية أو ربما لأنني كنت في حالة لا تسمح لي بتقييم وضعي كما يجب لكنني بعد ذلك تذكرت كل التفاصيل التي ظلت راسخة في ذهني إلى يومي هذا.

اقترب مني دون سابق انذاروصفعني بقوة على مؤخرتي صفعتين متتاليتين أحسست بهما تهزان كامل أوصالي برعشة كهربائية لذيذة وغريبة، بعدها توقف ربما ليختبر ردة فعلي، ولما وجدني صامتة، صمت الرضا في مجتمعنا صمت من تنتظر المزيد. بدأ يصفعني وأنا أتأوه وأتلذذ طالبة منه المزيد، رفع تنورتي إلى أعلى وبدأ يصفع، دخل بدوره في نوبة هستيرية وهو يتغزل بي.

-ايه عليك كنت نلوج اه ما بنك ماحلاك.

- امانك كيومة أضرب زيد زيد...

بعد ذلك بدأ يقبلني قبلات مصاحبة بالعض، لدرجة أنني كنت أصرخ صراخا غريبا ممتزجا بلذة الألم والمداعبة في نفس الوقت، يقبلني ويعضني في كل موضع من مؤخرتي، لم يشعر بالقرف بتاتاً بل للحظة أحسست بلسانه داخلها، كانت نشوة من نوع آخر وهو يعتليني ويشد شعري بقوة.

لم أُصدق نفسي عندما انتهينا خائري القوة. باءت كل الأيمان الغليظة، وأنا أقسم أمامه بأنه أول رجل في حياتي ولم يمسس جسمي رجل قبله قط. باءت بالفشل. لم يُصدق بتاتاً، ظلت نظرة الشك في عينيه لا بل نظرة الاتهام بأنه أمام امرأة مومس من الدرجة الأولى، لماذا كنت أُبرر له موقفي مع العلم أننا تشاركنا نفس العملية.

تشاركنا نفس المتعة واللذة أيّا كان اسمها. وقتها سألني إن كنت عذراء، ولم يصدق عندما أجبته بنعم. في غرفتي جردني من كل ملابسي مع

الساعة الثالثة بعد الزوال. تصرف معي كفتاة شارع، غرس عضوه داخل مهبلي متجاهلاً توسلاتي وأنا أخبره أنني عذراء، لم أمنعه، كنت فاقدة للإرادة، والأكثر من ذلك أنا من طلبت منه فعل ذلك، ربما تحت تأثير الحشيش حتى عندما رأى قطرة الدم اللعينة تلك لم ينتابه إحساس بالندم، بل قهقه عاليا وهو يصفق ويرقص.

-أو مش نرمال كسرت طفلة.

قال إن هذا كان من بين أحلامه، وللأسف كل من قابلهن سابقاً لم يكن عَذارى، رأيت بريق الشهوة والانتصار في عينيه، ولغباء متجذر في نفسي اعتبرت حالته تلك نوع من إعلان الحب تجاهي باعتباري الفتاة المميزة من بين اللواتي ضاجعهن سي كيومة. بعد اكتشافه لعذريتي تغيرت نظرته لي كليا.

قال: إنني أجمل وأروع فتاة قابلها إلى حد الساعة، بل تجرأ لحظتها وقال إنني توأم روحه.

في ذلك الصيف الذي اسميته فيمَا بعد صيف الجنس، تكررت لقاءاتي بكيومة، يزورني في منزلنا كلما سنحت الفرصة، وأزوره في الاستوديو الخاص بأحد أصدقائه كلما سنحت الفرصة أيضا لأروي عطش جسدي. لم يكن يدفعني إليه ربما إلّا ذلك العطش الذي اكتشفته فجأة داخل نفسي، كان كيومة يمتلك مفاتيح جسدي كلها.

تحررت من خجلي، هذا ما كنت أحتاجه، وعندما تحررت مكتشفة منبع اللذة ذاك الغريب واللذيذ أصبح شعاري في ذلك الصيف. "الجنس ولا شيء غير الجنس" المتعة الأولى في العالم لبني البشر، لا توجد متعة تعادلها.

كل الأوضاع السادية التي تعلمتها من السيد جوجل وجدت طريقها إلى التطبيق مع كيومة. لم نكن نتكلم عن الحب أو ما شابه، كان يكفيني أن أجده عندما أحتاجه هذا ما كنت أطلبه منه، حتى سجائر الماريخوانا عافتها نفسي، أشربها أحيانا مجاملة له

فقط. تعلقت بكيومة كأنني أعرفه منذ زمن بعيد، هذا هو الرجل الذي كنت أبحث عنه، نتعامل دون مجاملة دون قيود، لم نكن نحتاج إلى الكلمات لنعرف احتياجات بعضنا، كنا نعرف ذلك سلفاً، نعرف ذلك خارج دائرة الوعي، لأنني لا أنا ولا كيومة كنا نمتلك الشجاعة والقوة لنعترف بشذوذنا.

كنا نعتقد أن ما نقوم به مجرد طريقة من بين الطرق الحديثة لممارسة الجنس. غياب الوعي بما نحن فيه وعليه هو الذي جعل علاقتنا تنتهي تلك النهاية، لأن كيومة كذكر يحمل ترسبات الفكر الذكوري في جيناته عبر ملايين السنين.

كان يرفض أن يكون كذلك. فضلاً عن أن يرتبط بامرأة هي كذلك، سيكتشف بعد فوات الأوان أنّه ضيّع على نفسه وعليَ فرصة نادرة لنعيش حياتنا وطبيعتنا التي لم نختر أن نكون عليها، ضيّع بجهله ربما فرصة نادراً ما تُتاح، أن يلتقي ذكر وأنثى يحملان نفس الميول الجنسية، كانت هذه نقطة في صالح إنجاح العلاقة لكن الأعراف والتقاليد كانت وربما ما زالت أقوى من الأحاسيس والمشاعر وفي أحيان كثيرة أقوى من العقل نفسه. كنت قادرة دون حرج دون عُقد أن أتعرى أمام كيومة بكل حرية وأطلب منه ما أحتاجه وأخجل أن أطلبه من غيره، كما سيحدث مع أحمد زوجي من بعد، لأن كيومة كان مثلي يشعر بالنشوة ويبحث عن كل ما أبحث عنه، كنت في حاجة ماسة إلى شخص مثل كيومة، وهذا ما يُفسر تعلّقي الشديد به ورغبتي الاحتفاظ به حتى بعد أن جربت ممارسة الجنس مع غيره. لم أصل أبداً إلى النشوة التي كنت أصل إليها مع كيومة. يصفعني أحيانا على وجهي، يسبني قبل أن نبدأ، في أحيان كثيرة كان يُضاجعني وأنا أبكي وأتألم، وكلما زاد الألم زادت اللذة والمتعة طالبة منه المزيد من الألم الذي هو وقود اللذة عند فتاة ماسوشية مثلي.

رغم أن كيومة كان مثلي لكنه لم يتخلص البتة من كونه ذكراً شرقياً، وأن ما يفعله ويقوم به لا يُعيبه بقدر ما يُعيب الأنثى أو المرأة التي تشاركه قذارته

تلك إن صح التعبير، صعقني جوابه لي مرة عندما سألته بعفوية إن كان مستعدا للزواج بي.

-انا نحب طفلة بنت دارهم عمر حد لا حط عليها يديه، وزيد مش هكا؟

-بالله بالله. شمعناتها مش هكا؟

-نت تعرف وأنا نعرف.

قمت غاضبة، صفعته على وجهه وهو يبتسم قبل أن يهجم عليّ كثور صفعاً وركلاً ويضاجعني من بعد، الكارثة أنني كنت أتلذذ ذلك. أخبرته وأنا أبكي بأنه توأم روحي وبأننا خُلقنا لنكون معاً ولن يجد من تفهمه كما أفهمه أنا. أخبرته إن كان يعتبر ما نقوم به قذارة وأنا لا أعتبره كذلك فهو أكثر قذارة مني بكثير، فكيف يبحث عن الطهارة؟، لكنه صم أذنيه، لم يستمع إلى كل توسلاتي رغم إيمانه بكل كلامي، سألته بخبث:

-هل سيضاجع زوجته كما يضاجعني؟

أجابني انه سيطلقها إذا استسلمت لِما يريد كما استسلمت أنا.

-لكنك ستتعذب ولن تشعر بلذة الجنس.

قال إنه سيكتفي وسيعلن توبته ولن يعود لما يفعله بعد أن يتزوج عاقداً العزم على إرغام نفسه على كل ما هو طبيعي.

-تحتاج إلى أكثر من توبة حبيبي، الشذوذ، المخدرات، حبوب الهلوسة، الخمر... هل ستقابل ملاكاً من ملائكة الرحمان كيومة.

علاقتي بكيومة كلها ألم، ولكنني كنت أتلذذ الألم لذا كنت أُصر على انتزاعه، كنت أُمني النفس بذلك. اعتقدت جازمة أنه سيسعى إلى أن يُجرب مع غيري وسيعود إلى أحضاني باكياً طالباً الاقتران بي، هذا ما اعتقدته وقتها.

عدنا بعد عطلة الصيف إلى مدينة صفاقس أو بعبارة أخرى عدت غير ريم التي كنت عليها سابقا، اكتسبت أشياء جديدة كما فقدت أشياء كثيرة، وأهمها احترامي لنفسي في صفاقس، استيقظ ضميري مرة واحدة لينام بعد ذلك إلى الأبد أو هكذا اعتقدت.

لم تعد أمي ولا حتى أبي قادرين على السيطرة عليَ، أعلنت تمردي فجأة وبشكل وقح، الأكثر من ذلك تجرأت مرة وشربت سيجارة أمام ذهول أمي التي زارت أكثر من عراف علّه يستطيع بتعويذة من تعويذاته أن يُعيدني إلى رشدي. إلى حدود الساعة مازال العراف هو الملجأ الوحيد والأخير لأغلب الأسر لحل المشاكل المستعصية التي تعترضهم.

أمي تريد أن تُعيدني إلى رُشدي بمفهومها وليس بمفهومي، لأنني عرفت الطريق إليه وحدي دون مساعدة الآخرين، ما يُسمى شذوذي صار يؤرقني، وكيومة لا يتصل أبداً إلا إذا كان جائعاً ومتعطشاً للجنس، زارني أكثر من مرة في مدينة صفاقس، وكل مرة أعقد فيها العزم على هجرانه أجد نفسي بين أحضانه وأنا أتلذذ بإهاناته وصفعه لي على مؤخرتي ووجهي أحياناً....

لم أعد إلى المدرسة. كان عند أبي من المال ما يكفي ليسجلني في معهد خاص لتصميم الملابس هناك وجدت نفسي ووجدت ما أريد أن أقوم به. أحببت تصميم الملابسو آلة الخياطة، دون مجهود كبير كنت الأولى في المعهد، أشارك في أكثر من تظاهرة للمصممين الشباب وكنت من بين المتميزين. صممت الكثير من الملابس الشاذة حيث كنت أعتقد أن لا أحد سيلتفت إليها، لكنني فوجئت باهتمام الكثيرين وبعض الأجانب الذين مارست معهم الجنس، يكفي أن يُعجبني أحدهم لأجد نفسي بين ذراعيه. كنت أبحث في كل واحد من بين الذين قابلتهم عن كيومة أو بعبارة أصح عن النشوة التي أصل إليها مع كيومة، لم يحصل الأمر أبداً، ظل هو فارس أحلامي.

في سنة التخرج تلك ولي مواعيد سيئة مع أعوام التخرج، بدأ كيومة يهرب بعيداً ولِمَ لا وقد أصبح نجماً، افتتح مقهى المعراج أمام المعهد الذي كان تلميذاً فيه كما أصبح نجما في جل عروض "الديدجى" الموسيقية والتي هي في الحقيقة عروض "الاكتسازي" أو حبوب الهلوسة، حيث يكون معظم رواد تلك العُلب قد قطعوا مسبقا تذاكر السفر عبر ابتلاع حبة أو أكثر من تلك الحبوب اللعينة، تساعدهم الموسيقى التي تُعزف خصيصا لتحفيز النشوة وللمزيد منها، تصل تذاكر الدخول إلى تظاهرة مثل تلك إلى حدود مئة دينار تحت حماية رجال الشرطة وأنظارهم.

لم يكن ذلك ليهمني، فكيومة لم يكن يوماً قريباً مني، ولم يكن لِيغار عليَّ أو لِيسألني أين كنت أو مع مَنْ، كان يكفيني أنني عندما أحتاجه أجده وفي كثير من الأحيان كان هو من يُبادر بالإتصال. لكن هذه المرة اختلف الأمر، بَدا إعراضه واضحا وضوح الشمس ومختلفا عن السابق. بغريزة الأنثى وحاستها السادسة عرفت أن هناك فتاة جديدة وليست كباقي الفتيات اللواتي كان يُقابلهن، هذه الجديدة ربما مشروع زوجة.

لم يتطلب الأمر الكثير من البحث والتجسس على صفحته التي استطعت بسهولة تامة أن أكتشف علاقته بسلمى أُخت صديقه حسونة. المثير في الأمر أنني لم أكن في حاجة لأي بحث، فعندما واجهته بما عرفت لم ينكر الأمر، بل اعترف لي بكل وقاحة بأنه يحب سلمى فعلا ويفكر في الارتباط بها طالبا مني أن ننهي علاقتنا بشكل كامل وأن أقطع الاتصال به. لم تنفع كل توسلاتي تارة وتهديداتي أطواراً أخرى في أن أفضح أسراره ونشاطه، كان يعرف أنني لن أجرؤ على فعل أي شيء مما أقول.

منيت النفس أن الأمر لا يعدو أن يكون نزوة شهر أو شهرين على أبعد تقدير وسيعود نادماً باكياً طالباً ودي، لأن ما يجمعني به أكبر من مجرد علاقة، تجمعنا أشياء كثيرة لا يمكن أن تذوب أو تتبخر في رمشه عين. أضعف في أحيان كثيرة، تسيطر عليَ كوابيس تجعلني أعتقد أنني لم أخرج بعد من بوتقة تبعية المرأة الشرقية

للرجل الذي يفتض بكارتها، أصبح العالم مُظلماً في عيني كلما زاد وتطور إعراضه الذي لم أعد أتحمله، هذه المرة إعراض مصحوب بالإهانات.

-ياخي ماتفهمش ما تكفش ما تشعفش ماعادش شي بينتنا نقولها ليك بأي لغة باش تفهم.

-امانك كيومة أمانك.

-يابنتي بري دبري على روحك قبل ما يفوتك ترينو انا بح بح بر ني...

إهانات جديدة مصحوبة بإعراض كله ألم حلّ محل الإهانات والصفعات المصحوبة بالالتحام والجنس واللذة. إهاناته لي مع الإعراض كانت جحيماً لا ُيطاق، قام هذه المرة بتجميد حسابي على صفحته في الفاسبوك بعد أن اتصلت بحبيبة القلب وطلبت منها الابتعاد عنه. لكن الأفعى، كأنها لم تسمع ولم تُصدق كل ما قلته لها، ولم تتجاوب حتى مع توسلاتي في أن تتركه إكراما لي.

الصدفة وحدها هي من قادتني إلى أحمد "إيراتيك" في رحلة البحث على النت عن أحمد كيومة معتقدة أنه لربما غير حسابه إلى حساب جديد لم أكن أظن أنّ علاقتي بأحمد "إيراتيك" ستأخذ ذاك المنحى. استرعى انتباهي وجود صورة جماعية على صفحته فيها كيومة وحسونة ومجموعة من الأصدقاء، أرسلت له رسالة طلب صداقة من باب التجسس ليس إلا، استجاب لرسالتي بسرعة فائقة كمن كان لا ينتظر إلا هيَ لتخرجه مما هو فيه، حوار بسيط معه اكتشفت فيه قلباً مجروحاً مطعوناً أكثر من قلبي.

كان هذا كافياَ ليصبح رفيق آلامي الليلية وأنِيسها، كنت في البداية أريد أن أعرف م انطباع أصدقاء كيومة عني، فوجدت أن أحمد هذا لا يعرف أي شيء، كل ما يعرفه أنني كنت على علاقة بكيومة وأننا لم نعد كذلك كما أخبرني، من باب تحريضي على الابتعاد عن كيومة.

-اسمع ريم باش نقوليك حاجة بينتنا هو باش يخطب اخت حسونة صاحبنا تعرفيه.

كتمت آهاتي، ضغطت على أعصابي، تصنعت كما تتصنع أي انثى مذبوحة أن الأمر لا يعنيني في شيء، وأنني أنا من بادرت إلى إنهاء العلاقة معه.

-أحسن ماعملت ريم بيني وبينك انت تستاهلي ما خير.

من بين أحسن الصفات التي تميز بها كيومة بل الصفة التي ساهمت في نجاحه أنه كان شخصاً كتوماً للغاية، قد يسرد للآخرين قصة ما لكن بعد أن يُغير كل ملامحها. استغرب أحمد ايراتيك ارتباطي بواحد قذر مثل صديقه كيومة، حيث لا يستقر مع فتاة فضلاً عمّا يرويه عن علاقاته الجنسية والتي لا يمكن أن تكون إلا مع مومسات، إذ يستحيل أن ترضى فتاة محترمة بعلاقة مع كيومة مثل التي يتحدث عنها في مقهاه بعد أن تستبد به النشوة وهو يدخن سجائر محشوة بالماريخوانا.

لم يكن يعرف إيراتيك أن المومس التي يتحدث عنها كيومة في مقهاه بعد أن غير ملامحها واسمها وأشكره على ذلك هي أنا. ولما كان ايراتيك هذا يساري التفكير، فإنني لم ألمس ذلك بتاتاً في نظرته إلى المرأة التي لم تخرج أبداً عما ينظره بها الاخرون باعتبارها منبعاً للذة والغواية لا غير.

أردت أن أوقع بكيومة وأخبرت إيراتيك بأنه من واجبه أن ينبه صديقه حسونة إلى خطر هذه الزيجة باعتبار كيومة رجل مدمن وتاجر مخدرات مُهدد بالسجن في أي لحظة.

-اش يهمني انا محسوب حسونة مايعرفش العرب كلها تعرف شكون كيومة.

لم يسفر ما أقدمت عليه على أي نتائج إيجابية، فقد هاتفني كيومة بعد نصف ساعة متوعداً إياي بأنه سيكون له تصرف حازم معي إن لم أطبق فمي. في نفس الوقت الذي كنت أتلقى فيها شتائم كيومة وإهانته على الهاتف تلقيت على الحاسوب عرض إيراتيك في أن أكون حبيبته وأنا استمع لتهديدات الآخر. كتبت لأحمد مُعربة عن قبولي وإعجابي به، لم يقتصر الأمر على ذلك كنت أرقص كالدجاجة المذبوحة كتبت بخط عريض على صفحتي في الفايسبوك "أخيرا التقيت بفارس أحلامي"

وبدلت من معطيات الحساب لأضيف إلى الحالة العاطفية مرتبطة بأحمد إيراتيك. تقبل الأخير كل هذا بفرح طفولي والأكثر من ذلك ليلتها نظم فيَ قصائد حب وغزل. تساءلت: هل يمكن لمن اعتادت التلذذ بالإهانات والصفعات على وجهها ومؤخرتها أن تتلذذ وتستطعم كلاماً عذباً وحباً صافياً كهذا الذي يقدمه لي إيراتيك؟.

قررت أن أُرغم نفسي على التفاعل مع ايراتيك وتظاهرت بذلك رغم أنني كنت أتمزق وأتقزز من الداخل.

الذي أثار غضبي وسخطي وجعلني أتشبث بالذهاب بعيداً مع إيراتيك رسالة التهنئة التي تلقيتها على بريدي الخاص من كيومة يهنئني بعلاقتي وأنه سعيد لذلك بل يعتقد أنني استطعت هذه المرة أن أَختار الرجل المناسب.

عندما رأيت صور سلمى في حفلة خطوبتها لكيومة، ليلتها فقط اكتشفت أنني لست جميلة كفاية، لم أكن قبيحة أبداً لكنني لا أرقى الى مستوى الفتاة الجميلة. جسدي الرياضي الذي يقول وهو يصرخ أنني خُلقت لأكون مصممة وعارضة أزياء. بشرتي البيضاء المائلة إلى الصفرة، كل هذا كان يُغطي عيبي الكبير، انعدام الحدود الفاصلة بين جبهتي ورأسي حتى ليعتقد من يراني أول مرة أنني أُعاني الصلع.

ليلتها انهارت كل دفاعاتي. كنت في حاجة إلى حبة من حبوب كيومة، لا، كنت في حاجة إلى كيومة نفسه، إلى قذارته، الى صفعاته. بدأت دون قصد مني التحرش بإيراتيك عبر الانترنيت، لن أستطيع التلذذ بحبه العذري وبكلماته التي يحسسني بها أنني ملكة حورية، أنا لا أتلذذ إلا بالقذارة لم يكن من الصعب على أي فتاة مهما كانت أن تجد الحب أو من يحبها، لكننا معشر الفتيات نختار دوماً الخيار الأصعب بل خيار العذاب.

كان أحمد "ايراتيك" الآخر بالنسبة إليّ الملاذ، منحني كل احتياجات الروح، لكنه كان أبعد ما يكون على أن يمنحني احتياجات الجسد الذي استطاع كيومة منذ اليوم الأول أن يفك شفرته وينفذ إلى أعماقه. هذا الجسد الذي أصبح يزداد عطشاً يوماً بعد

يوم. كل الاحتكاكات مع أحمد الآخر لم تكن الا مهدئات فقط. كيومة يزداد بُعداً يوماً بعد آخر، اصطدمت بالبلهاء سلمى لست أدري ماذا عشق فيها، جميلة هي صحيح، لكنني بت متأكدة بأنها لا تصلح له، لن ينجحا، مستحيل، ذلك مستحيل.

أحمد الجديد غدا يعتبرني حياته، كل شيء فيها، لكن إلى أجل مسمى فقط. هذا هي حال ذكور بلادنا، هو يُعاني جفافاً عاطفياً وجنسياً، وبما أنني الأولى في حياته فقد تشبث بي تشبث الغريق بقشة في وسط البحر، سيستيقظ فيه الجِن الذكوري وسيحاسبني على كل تاريخي.

الفرق بين ما كنت عليه سابقاً والآن هو أنني تعلمت، بِتُّ قادرة على أن أُميّز بين معشر الذكور وأُصنف كل واحد منهم في خانته، كيومة يبحث عن الجمال والعذرية، عن السراب، وفق المفهوم العرفي اللعين، أحمق سيندم، وسيندم أحمد أيضا الذي لا يختلف عن كيومة لكنه لا يملك الخيار، فهو مجبر على أن يقبل ما يجده أمامه دون شروط مسبقة، سيستيقظان، لكن بعد فوات الأوان لأن سيرورة الزمان تُحتّم علينا أن نمشي، ألّا نبقى مكاننا، ألّا ننتظر، وهذا ما يُفسد الأشياء ويجعلها على غير طبيعتها، عندما يدركنا الندم ونكتشف الحقيقة بفعل التجربة التي يُتيحها التقدم في رحلة الزمن ونريد أن نعود إلي ما تركناه خلفنا يوماً بملء إرادتنا ونحن نقسم الأيمان الغليظة إننا لن نرتكب نفس الأخطاء. نعود لِنجد ما نبحث عنه وكان ذات يوم ملكنا وبين أيدينا قد غيّر الزمان ملامحه، نجده لم يعد يصلح لأن تُبنى على أُسسه حياة جديدة كالتي نطمح إليها. لماذا؟ لأننا نفتقد خاصية الغفران التي ننشدها في الخالق الرب.

أسامة

قبل أن تحُاسيني على ما يسمى" شذوذي" وما أنا فيه. هل فكرت يوما كيف كنت ستتصرف لو كنت مكاني؟ هل ستسعد بتنكر الكل لك؟
سؤال يعذب كل" الشواذ" أمثالي ممن لم يختاروا ما هم فيه. فهل من إجابة؟

أنا الذي وُلدت مُشوّهاً في جسد ذكر وقلب أنثى، لا، بداخلي تعيش آلاف النساء لا امرأة واحدة، أو بالأحرى والأصح بداخلي تُعشعش نيران كل النساء، لم أختر عائلتي ولم أختر موعد مولدي ولم أختر ما أنا عليه الآن.

اكتشفت ذلك صدفة عندما كان الكل يغبطني ويحسدني على ما أنا فيه، ابن رجل مهم في الدولة أو في الوزارة الأهم في الدولة، قَوَام جميل، عينان خضراوان، سيارة مع السائق توصلني إلى الإعدادية، إلى المعهد، تلك المسافة التي يحرص جُل من يعرف وظيفة أبي ألّا يتعدّاها، أساتذة قيمون عامون، تلاميذ... لم يكن أي أحد ليجرؤ على الاقتراب مني بسوء. ذِكر اسم أبي كان وحده مُرعبا للجميع، لكن ما لا يعرفه هذا الجمع الغفير أن اسمه كان مُرعباً أكثر بالنسبة إليّ، كيف وهو الذي يتبجح طوال الوقت برجولته وفحولته مُمسكاً شاربه الكث علامة الرجولة

والفحولة، كيف يمكن أن يكون ابنه شاذاً يبحث عن ذكر ليطفئ النار الملتهبة في داخله.

أنا الذي يحسدني جميع الأصدقاء على حب روان واهتمامها، هي لم تكن تهتم بي فقط، قالت لي أكثر من مرة بأنها تحبني بجنون وبأنني حب حياتها. صغيرة كانت وقتها، صحيح، لكنها كانت يافعة تعرف معنى الحب. تزور بيتنا كل يوم تتذرع بذرائع شتى لتقابلني. مرة وجدتني وحيدا انقضت عليَ لِتُقبلني، أردتُ لحظتئذ أن أُجاريها لكنني فشلت، لم أشعر بشيء بأية جاذبية من تلك التي يتحدث عنها أصدقائي خارجاً، بل بالعكس كان مذاق قبلتها شفتيها بمذاق التراب، أحسست بالتقزز، دفعتها بعيدا عني وبعنف. انسحبت وهي تمسح دموعها.

يومها لم أستطع منع نفسي من التقيؤ وأنا أستشعر أنفاسها تمتزج مع أنفاسي، لم أستشعر أية لذة، صِرت أتحسس من كل كلمة غزل تُجاهها، وكثيرا ما أسمعها من كل من أحمد إيراتيك ومالك البهيم الذي كان مُتيما بحبها، أنقذني منها ظهور حسونة في حياتنا، لأن أُمي نفسها كانت تغذي فيها حبها لي.

-ما تروحي يا بنتي روان كان لولدي أسامة إن شاء الله.

كان ذلك يعجبها، يلبي غرورها، حاولت أن تتجاوز إعراضي عنها في تلك المرة، لكن أمام إصرارها لم أجد بدا من أن أتخلص منها بكذبة، أخبرتها بأنني أحب فتاة أخرى التقيتها في مدينة الحمامات حيث تقضي أُسرتي عطلتها هناك في الشقة الشاطئية التي تحصّل عليها أبي بالدينار الرمزي من خيرات دولتنا الكريمة مع خُدامها الأغنياء والبخيلة مع الفقراء ومع ذوي الاحتياجات الخاصة، انهارت، لم تتقبل الأمر، أرادت أن تثير غيرتي باهتمامها المفاجئ بحسونة جارنا الجديد لكن بالنسبة إليّ كان ذلك كافيا لأرتاح من مشاكستها لي.

كانت تجربتي مع روان بداية اكتشافي لما أنا فيه. بِتُّ أتلذذ مصافحة الذكور وخصوصاً ذوي البنية الخشنة، كلّما صافحت أحدهم أحس كأنّ تِيارا كهربائيا خفيفا ولذيذا يسري في أوصالي.

وأنا في السادسة عشرة من عمري قبل الباكالوريا بسنة، حيث كان أبي يُمني النفس بأن يراني طبيباً.

-لو كان بدنك سيور كيما خوك راني دخلتك للطب العسكري لكن الله غالب طلعت لامك.

أبي الذي كان يتحسر دوما على هيئتي الجسدية الضعيفة والتي لا تُعجبه، لذلك كان يعقد كل آماله على أخي الأكبر ذي البنية القوية باعتباره الوارث الشرعي لمجده العسكري، ما إن تَحصّل على شهادة الباكالوريا، كان مكانه في أكاديمية الشرطة ينتظره دون عناء بل دون الحاجة لاجتياز المناظرة الشكلية لدرء الرماد على العيون ليس إلا.

في حين قَرّر أبي أن يراني طبيبا. أن يكون معدلي السنوي أقل من 16 على عشرين أنا في عرف أبي أُعتبر فاشلا. لم أُخيب ظنه بي بتاتا كانت معدلاتي تفوق ما يطلب دوما.

-هيا أسامة، حاجتي ب 16 أكهو بلاصتك تستنى فيك في الفاك نتاع الطب في تونس.

في تلك العطلة التي طلب مني أبي أن أتمتع بها استعداداً لسنة دراسية يُعوّل فيها السيد الوالد على معدل يُحقق أحلامه فيَ، حيث تنتظرني سنة كاملة من التحضيرات لامتحانات الباكالوريا.

كانت تلك أول عطلة أتمتع فيها بشكل حقيقي، تلك العطلة التي فتحت نيران ما يسمّى الشذوذ وأسمّيه رغبتي التي خُلقت عليها. فُتحت أبواب الرغبة تلك -أين كان مُسمّاها-على مصراعيها، بدل أن أرتوي كما ظننت جعلتني في ظمأ مستمر ورحلة بحث دائمة لإخمادها.

في الشارع المقابل لشقتنا في مدينة الحمامات السياحية حيث يُفضل أبي كما جرت العادة قضاء فصل الصيف كله هناك، كان هناك متجر صغير "لحماص" أصيل منطقة الجنوب، عندما أذهب إليه لِشراء المشروبات الغازية أو الفواكه الجافة مستلزمات سهرة الصيف، كنت ألمس تحرشه بي، لكنني لم أُصدق مع أنني أتلذذ بذلك. كان يدع يدي أكثر من اللازم في يديه وهو يسلم، في المرة التي فتحت فيها بوابة الرغبة المشوهة تلك، اقترب لِيُسلم عليَ من وجهي طابعاً قبلة غير عادية على وجنتي أحسست معها بنار تشتعل داخلي، نعم، هذا هو الاحتكاك الجسدي الذي أبحث عنه قُبلته على وجنتيَ كانت ألذ بكثير من قبلة روان على شفتي. صرت أتذرع بشتى الذرائع للذهاب إلى متجره، أحياناً يرفض أخذ مقابل عن مشترياتي.

-سألنني مرة:

-تتكيف أسومتي؟

في لحظات التحرش تلك والمتعة التي استشعرتُها عندما ناداني "بأسومتي" نقلني إلى عالم آخر لم أكن أعرفه من قبل، خرجت الكلمات بلحن آخر، بطريقة أخرى لم أعهدها في نفسي كأنّ أنثى سكنت فجأة هذا الجسد وبدأت تتكلم بالنيابة عني.

-آيييه

-هاهو واحد ميريت كادو من عندي يا أسومة الغالي برشة.

-مييييرسي.

بعد قبولي الهدية التي دلت دلالة لا غبار عليها أن قراءته كانت في محلها، وفي يوم قائظ تكاد الحركة في ذلك الوقت تكون منعدمة، استسلمت لنداء الجسد لبركانه، لم أعد قادرا على كبح جماح، نفسي. ذهبت إليه، ما إن شاهدني أمام المتجر كمن كان بدوره ينتظرني على أحر من الجمر. وهو ينظر يميناً وشمالاً جذبني بلطف إلى داخل المحل

وهو يَهُمّ بغلقه. بعد أن استقررت داخله كانت دقات قلبي تتسارع في الخفقان، أحاسيس شتى سيطرت عليَ وقتها، رعبي من أبي، خوفي منه، من الفضيحة في مجتمع لا يعترف بحقوق وحالات مثل حالتي، خوفي من عذاب جسدي سيطر نداؤه على كل المخاوف والهواجس الأخرى وبعث بها إلى الجحيم قبل أن نلتحم في قبلة تنهد وهو يقول:

-وأخيرا حبيبي الصغير. أحبك.

لم أكن أعرف أنني سأتلذذ بسماع كلمات مثل تلك، لكنني يومها تلذذت بكل شيء، أسلمت له شفتي وأنا اتلذذ بقبلته التي روت عطشي.

بدأ يتحسس بطريقة هستيرية جسدي ومؤخرتي، يُقبلني في كل مكان، بينما أنا مستسلم صِرت عجينة لينة بين يديه.

في وسط بستان اللذة ذاك نسيت خوفي، نسيت أبي...، لم أعد أفكر إلا في هذه اللذة التي ظلت غائبة عني لسنوات مضت، لا لم تكن غائبة كنت أُقاومها بكل ما أُوتيت من قوة باعتبارها عيباً حراماً شذوذاً، لكنني اليوم أستسلم لما خُلقت عليه ولم أختره لغاية لحكمة لا أعرفها، اليوم أستسلم استسلام الواثق إلى حد اليقين، من لا يأتي جُرماً.

اليوم أنا أحس بسعادة لا متناهية لأنني تصالحت مع جسدي ومتطلباته وتناغمت معه، فلتذهبوا إلى الجحيم أنتم وأعرافكم البالية...

سألني برفق:

-أول مرة أسومتي؟

لم أجبه أومأت برأسي علامة الإيجاب.

-ما تخافش ما نيش باش نوجعك حبي.

قام بنزع سروالي الصيفي وتباني، جلب سائلا سأعرف من بعد تلك العملية في عمليات أخرى في ذلك الصيف أنه منظف، بعدها قام بدلك

عضوي التناسلي ومؤخرتي بمرطب ذي رائحة زكية، طلب مني أن أستلقي على ظهري، بدأ يمص عضوي التناسلي بطريقة هستيرية، أحسست به ينتصب بطريقة لا مثيل لها لم أعهده فيها من قبل، بعدها شرع بلحس مؤخرتي، لم أتمالك نفسي صرت أتأوه من اللذة بصوت مسموع وهو يضع يده على فمي طالبا مني:

-بشويش حبي بشويش أمانك يسمعنا حد متعدي.

قبل أن يعتليني طلب مني أن أمص قضيبه، كان إحساساً آخر من المتعة واللذة... وضع مرطباً في مؤخرتي واعتلاني، وأنا أُحس بقضيبه يغزو مؤخرتي يُطفئ بركان نار كانت مُشتعلة بداخلي كنت أطلب المزيد، أحسست بسائله داخل أحشائي يُطفئ كل النيران المشتعلة إلى حين إلى حين فقط.

عُدت إلى المنزل بعد أن أطفئت نيران جسدي المشتعلة. كان الكل يَغُطّ في نوم عميق مُستمتعا بقيلولته، شاركتهم النوم. كانت تلك أول قيلولة وأول ليلة أنامها دون سماع صراخ جسدي المتعطش وأنينه، هذا الصراخ الذي يملأ سماء حياتنا، هذا الصراخ الذي كلنا في رحلة البحث عن إخماده، كل بحسب طريقته بحسب إمكانيته. ولكننا لماذا ننسى دوماً كلمة حسب مُيوله، لأن إدراج هذه الكلمة البسيطة في قاموسنا تجعلنا كلنا على اختلافنا متساوين في رحلة الخضوع لسلطة الجسد والرغبة في إخماد صراخه وأنينه الذي لا ينتهي إلا بانتهائه هو.

كان ذلك أول يوم استمتع فيه بالسباحة في البحر دون أن تترصد عيناي الكم الهائل من أجساد الذكور وأنا أتمنى أن أُلامسها. عرف جسدي وقلبي المنهكان الاستقرار الذي كانا يبحثان عنه، صرت أحب "الحماص" من كل قلبي وجوارحي، صار حياتي بل صرت أتصور نفسي أعيش معه إلى الأبد.

خريطة حياتي أصبحت واضحة، الجِد والنجاح ثم الجِد والنجاح وحدها من سيجعلانني مستقلاً عن الكل لأعيش حياتي كما يحلو لي. لم نعد نمارس الجنس فقط، بل نتبادل عبارات الحب والاشتياق عبر رسائل نصية في الهاتف الجوال كنت استشعر لذة لا توصف عندما يقول لي" أحبك".

وهو كذلك أرى بريق عينيه مشتعلا كلما اعترفت له بحبي. صار اسمه في قائمة أسماء هاتفي يحمل اسم شمس، اسم يحمل أكثر من دلالة وأهم شيء دلالة الأنثى ودرءا للشبهات فلربما قرأ أخي عن غير قصد بعض رسائل حبنا.

كان ذلك الصيف أروع وأتعس صيف في حياتي السابقة، كنا أنا وشمس قد سطرنا برنامجاً واضحا لعلاقتنا. بعد عودتي إلى مدينتي التي لم تعد تفصلنا عن العودة إليها سوى أسبوع واحد. سأزوره مرة في الأسبوع، هكذا اتفقنا وكنت قد مهدت لذلك فقد بعثت إلى صديقي حسونة بعضا من رسائلي أنا وشمس على أساس أنه فتاة وأنا أسرد له بحماس قصة علاقتي به.

لكن تجري الرياح عكس ما تشتهي السفن وخصوصاً رياح سفينتي أنا، تلك السنة كانت قد أصابتها لعنة شذوذي. استيقظنا من قيلولة الظهيرة على صوت جلبة كبيرة في النهج المقابل لشقتنا أمام متجر شمس بالتحديد، حيث تزامن ذلك مع دخول أبي بلباسه العسكري عائداً من تونس، هرعت إليه أمي مستفسرة عن الأمر.

-الكلب "الحماص" هذاك شدوه مغتصب طفلة ولا طفل ما نعرفش.

مجرد سماع ذلك جعلني أنهار، أحسست بطعنة كبيرة مسمومة داخل قلبي ليردف أبي حامداً الله على كون ذريته كلها من الذكورلا الإناث

-الواحد يحمد ربي ماعندوش بنات كان جيت أنا ما نجيبلوش الشرطة نفرغ فيه هذا في راسو.

وهو يتحسس ويشير إلى مسدسه. مجرد سماعي لما قال زاد من الرعب الذي زلزل قلبي، هربت مُسرعا إلى غرفتي لِأُداري الرعب الذي ركبني وظهر بشكل جَلّي على تصرفاتي.

تفطنت أمي لما كان غائباً عنها ولِمَا لم يتفطن إليه أبي. النساء أية حاسة أخرى يمتلكونها؟ كانت قد لاحظت كثرة ترددي على الحماص المذكور لكن ظنونها لم تحملها بعيداً، يومها تأكدتُ بأنها أصبحت تعرف قصتي ولعنتي، بإحساسها فقط دون الحاجة الى اعتراف مني والذي لم تسع إلى انتزاعه مني رأفة ورحمة بي.

- أمي الغالية عظيمة أنت كنت وما زلت.

لم أستطع تحمل خيانته كنت أعتقد بأنه يحبني، نعم، هذا كله ما حزّ في نفسي وقلبي وقتها لم أتحمل خيانته لي، اعتبرته يستحق العقاب الذي سيُسلط عليه لأنه خانني. لم أتحمل أن أَتَخيَّل ممارسته الجنس مع أحد غيري.

-الكلب يستحق الشنق.

كان هذا كله ما حزّ في نفسي. رأيت أحلامي معه كلها تتبخر وأنا لوقت قصير كنت أعتقد أنّني محظوظ بحبه.

-الخائن...

دخلت أمي غرفتي بعد أن اهتمت بغذاء أبي، وجدتني في حالة يُرثى لها. لم تتكلم لم تقل شيئا ظلت لخمس دقائق تتأملني بحنان ظاهر. بعدها قالت:

-كان يعرف بوك يقتلك ونموت معاك.

عانقتها. أمي المسكينة عبرت عن حبها وتضامنها الشديد لي بتلك الطريقة التي لم تخطر لي على البال، شاركتني دموعي قهري كنت أُحس بخيبة أملها فيَ، لكن حبها كان أكبر بكثير من تلك الخيبة وهذا كل ما كنت أحتاجه.

جعلت أمي كلاً من أبي وأخي يعتقدان أن سبب انهياري هو تضامني مع الفتى المغتصب. في الغد كنت أنا وأمي عند عيادة طبيب نفساني دون علم أبي وأخي. قبل أن أدخل وبعد أن انفردت هيَ بالطبيب قبل دخولي لمدة قاربت خمس دقائق، نصحتني بأن أقول له كل ما يدور في خلدي دون إحساس بالحرج أو الخوف.

لا يمكن أن أنكر أن مجرد مناقشة ما يُسمى شذوذي مع شخص مُتفهم دون أن يتهمني بإتيان منكر أو جريمة، قد أدخل بعض الطمأنينة إلى قلبي، لكنني مع ذلك أحسست أن الطبيب عاجز تماماً عن تقديم شيء مُفيد وحقيقي لأنني لست حالة مرضية، أنا وأمثالي لسنا حالة مرضية هذا ما قاله الطبيب يومها، والذي نذهب إليه لأننا نشكو عدم القدرة على الانسجام في مجتمع يترصدنا يعتبرنا منكراً يجب استئصاله كالأعشاب الضارة، لكننا لسنا أعشاباً، نحن بشر ولسنا ببشر ضار، هناك من البشر من هم أكثر شراسة ومنكراً منا وأكثر ضرراً للبشر والطبيعة، لماذا نحن بالذات؟ لماذا؟

استمع إليَ بكل انتباه وأنا أسرد له قصة ما يسمى شذوذي من الباء إلى الياء، كنت أبكي بحرقة، أبكي خوفي من أبي وأنا أتخيله يُطلق مسدسه في رأسي، أبكي كوابيسي وأنا أتخيل دموع أمي وبكاؤها، أبكي خيانة شمس لي، لم يكن شمسا كان ظلاماً آخر في عتمة حياتي البائسة.

تساءلت: لماذا خُلقت وأمثالي هكذا؟

لنتعذب، لنشقى لنحمل وزر منكر مُزيف بينما المنكر الحقيقي يعيش ويُعشعش بين الناس يحميه ويُغديه العرف.

خفف عني الطبيب طالبا مني أن أكف عن البكاء وعن لوم نفسي على شيء لم أتسبب فيه بل وجدت نفسي على ماهي عليه، مُتمّاً نصحه لي وهو يتمنى أن أفهم كلامه بشكل جيد.

-في مجتمع كمجتمعنا يجب أن تعيش ما يسمى شذوذك خارج دائرة حياتك اليومية.

استغرق مني الأمر طويلاً سنوات بعد ذلك لِأفهم تلك الجملة، لكنني في الأخير فهمتها وكانت هي الدواء الحقيقي لما أنا عليه، فهمتها عندما عدت من المغرب إلى تونس.

عُدت من الحمامات إلى مدينتي الصغيرة حيث أغلب الناس تعرف بعضها بعضاً، مِمّا يجعل حياة شخص مثلي أصعب بكثير، عدت أيضا إلى الدراسة بغير الحماس الذي كنت قد منيت النفس أن أعود به، حماس لن يجعلني بالتأكيد في زمرة المتفوقين كما يريد أبي الذي غدوت أُكن له كرهاً غريباً ممزوجاً بالخوف إلى درجة الهلع، كيف لا وهو ضيف شرف رئيس في كل أحلامي بل كوابيسي، أراه كل ليلة شاهراً مسدسه في وجهي ليمحو العار الذي لحقه من شذوذي. بِتّ أتحاشى مقابلته، الحديث معه...

أمي أصبحت تفرض بصمت رقابة من نوع خاص على كل تصرفاتي، ضايقني ذلك كثيرا لكنني لم أكن لأمتنع وأُعارض أمام الكم الهائل من الحنان الذي حاولت أن تُحيطني به، أراد حسونة أن يستفسر عن شمس.

-انتهى كل شيء حسونة قبل أن يبدأ.

كانت قصة حبي لشمس قد تكفل حسونة بنشرها وكان الجميع يسأل عن شمس الفتاة وليس الذكر.

في سنة الباكالوريا تلك تعرفت إلى كيومة الذي ربما خفّف من آلامي أو ربما عمق منها، كلنا نتشارك نفس الإحساس عندما نتكلم عن كيومة هذا الغريب الذي يعرف أسرار الجميع ويحتفظ بها دون مشاركتها ونشرها أمام الآخرين. هو من لجم لسان حويتة عندما تكلم على شذوذي أمام الجميع مفتخراً بغزوه مؤخرتي، لم يكتف كيومة بذلك بل طالبه في الغد

بتكذيب نفسه أمام الملأ وأن يَدّعي أنه كان تحت تأثير مخدر ما وبأنه قال ما قال لأنه كان غاضباً مني لأنني لم أُقرضه من المال ما يبغي.

كان تصرفاً شهماً من كيومة لن أنساه له ما حييت. جنبني فضيحة وعاراً، جنبني أن تُترجم كوابيسي إلى حقيقة. حويتة الذي استسلمت له تحت تأثير نداء الجسد الجامح الذي جرب المتعة واللذة والذي لم يعد يرضى دونها وغيرها بديلاً.

أتذكر عندما عدت من المغرب وهاتفت كيومة ليوَّفر لي زادي من "الماريخوانا" كان وقتها قد افتتح مقهى المعراج.

-اجى أسامة للقهوة، ما تعمل شيء في بالك الأمور ناضية الأولاد لاباس حويتة في الحبس.

كان يعرف أن ما يقلقني هو رؤية حويتة.

كنت من بين التلاميذ القلائل أو من بين تلاميذ النخبة الذين كانوا يعرفون أن كيومة يتاجر في حبوب الهلوسة والماريخوانا في المعهد سنة الباكالوريا. اقترحت عليَ إحدى التلميذات

-شبيك أسامة عاقدها حبة من كيومة تنسيك العالم الكل ورخيصة عشرة دنانير.

تحصن كيومة بالصمت عندما طالبته بحبة هلوسة في بداية الأمر

-اسمع أسامة انت بوك في الشرطة يسمع نتباصى.

-وشكون باش يقولو؟

في الأخير وافق، ربما لأن تورط ابن إطار كبير في الشرطة ينفعه ويحميه أكثر مما يضره، بعد ذلك بكثير بعد أن عرف قصة شذوذي اعترف بأنه هو من استدرجني عبر تلك الفتاة لأصبح من حُرفائه، اقترح عليَ حشيش "الماريحوانا" باعتباره الأنسب لحالتي لأن حبة الهلوسة ستفضح أمري من اليوم الأول وستجعلني أقول أشياء ربما لا أرغب في

قولها، كما يجب لمتعاطيها أن يكون داخل علبة ليلية لأنها تتماشى مع الصخب والموسيقى، متعاطي حبة الهلوسة لا يناسبه الهدوء بتاتاً.

أعاد لي تدخين "الماريخوانا" بعض الهدوء كلما علا صراخ الجسد كنت أُسكته أهدئه بسيجارة محشوة بنبتة "الماريخوانا "ذات الرائحة الزكية. لم تعد أعصابي متشنجة، تخلصت من مهدئات الطبيب النفسي، حتى السجائر غدوت أحصل عليها ملفوفة قبل أن يُعلمني كيومة طريقة لفها التي استغرقت مني أسبوعاً كاملاً.

برنامجي اليومي لتلك السنة كان مزدحماً للغاية، أبي يصر على أن أتلقى دعماً في كل المواد التي أدرسها، يخرج من بيتنا أستاذ ليدخل آخر وأمي دائما تُصر على أن يبقى باب الغرفة مفتوحاً.

أصبحت تشك في الجميع سجائر الماريخوانا وحدها من تُعيد بعض الهدوء لنفسي المتعبة. ما أن يخرج آخر أستاذ مُستسلما لوحدتي لعذابي أُغلق الباب وأَبدا رحلة أخرى عبر عالم جميل يصنعه دخان النبتة العجيبة وهو يخرج من فمي وخياشيمي بعد أن رسم لوحات فنية جميلة داخل مخيلتي.

كانت تلك السنة أسوأ سنة عشتها في حياتي. قبل الامتحانات بشهرين تقريباً تم طرد كيومة من المعهد. عاد بي منظر الشرطة وهم يحاصرونه في المعهد وهو يختبئ كجرذ خائف، مشهد الشرطة وهي تحمل شمس في ذلك الصيف الذي توهمت فيه أن أبواب السعادة قد فَتحت ذراعيها لاستقبالي، عندما تم اعتقال كيومة اعتبرت نفسي منحوسا، تولدت لديَ قناعة بأن جميع الأشخاص الذين يسعون لإسعادي سيكون مصيرهم الدمار.

كيومة الذي كان يُوّفر لي زادي واحتياجاتي من الحشيش غاب وأنا لم أعد قادرا على العيش دون حشيش، مذاق السجائر دون تلك النكهة العجيبة لم يعد يُلبي احتياجاتي، والأكثر من ذلك كيومة كان متسامحاً

معي يعطيني زادي حتى لو لم أتوفر على ثمنه في ذلك الوقت. صحيح أنني أكون مضطرا للدفع عندما تتوفر لي السيولة لكنني لم أكن أحمل هماً في حال غيابها.

أسبوع كامل وهاتف كيومة لا يرد، صِرت متمرداً، رفضت تلقي الدروس الخصوصية في ذلك الأسبوع، أحسست أن رأسي سينفجر لم أعد أرغب بسماع أي شيء... تلقي أي شيء. كل ما احتاجه "الماريخوانا" أمام الضغط الذي سلطه عليَ أبي هو وأمثاله اللذين لا يحاولون البتة تفهم وضعيات واحتياجات الأبناء. يكون اهتمامهم منصبا في ما يحتاجونه هم من أبنائهم، ما يريدون أن يروهم عليه. في أحيان كثيرة بعيدا كل البعد عما يفكر فيه الابن ويحتاجه.

أُصبت بنوبة عصبية حادة استدعت نقلي إلى المستشفى. هذه المرة أصَرّ أبي على مرافقتي، أمي كادت أن تنهار طلبت منه بتوسل بأن ترافقني وحدها، كانت المسكينة تظن كما يظن بعض الناس بأن الطبيب بأدواته اللعينة تلك قادر على أن يكشف خبايا البشر.

ساعدني حضور أبي معنا، الذي رفض الاستجابة لطلب أمي، طلب منه الطبيب كف الضغط المسلط عليَ بسبب الباكالوريا اللعينة وبأنني أحتاج فترة نقاهة لأسبوع كامل على الأقل. لم يتفطن الطبيب إلى إدماني حشيش الماريخوانا هذا كل ما كان يقلقني وقتها، في حين كان خوف أمي أن يتفطن إلى شذوذي.

قرّر أبي أمام معارضة أمي الشديدة أن أسافر وحدي أو برفقة أحد أصدقائي إلى مدينة الحمامات لتمضية بعض الوقت والترفيه عن نفسي كما قال:

-برا مع أصحابك لبوات أشرب أسكر إعمل الي تحب عليه المهم ترجع في فورمة قبل الامتحان.

لم تنفع معارضة أمي أمام إصرار الدكتاتور أبي، في الأخير اشترطت أن أذهب وحدي لثلاث أيام فقط، وافقت بشروط مسبقة، كنت في حاجة ماسة لأن أختلي بنفسي.

في الطريق إلى الحمامات حيث اشترطت أمي أن ترافقني وتعود هي مع السائق، أمي التي لم تعد تثق في صنف الذكور بتاتاً والأكثر من ذلك أرادت أن تطمئن وتتأكد أن متجر "الحماص" لم يفتح أبوابه بعد، كنت وحيدا رفقة محفظتي الممتلئة عن آخرها بمقرر الباكالوريا، أحمل شذوذي وإدماني على الحشيش الذي عَمّق غيابه من مأساتي وآلامي.

حرصت أمي قبل أن تُغادر وبعد إن اطمئن قلبها باعتبار متجر الحماص مازال مسدوداً، بينما كنت أمني النفس أن أجده مفتوحاً، أن يكون كل ما قيل عنه كذباً، أن تظهر براءته، ألومه قليلاً على خيانته ثم أستسلم بين أحضانه.

أصرت أمي على أن تملأ الثلاجة بكل ما لذ وطاب، وأن تحشُو أيضا مسامعي بنصائحها التي تحمل في طياتها تلميحا واضحا لما أنا فيه. بعد أن غادرت أمي وهي تمسح دموعها، تحسست المبلغ الذي أعطاه لي أبي كان كافيا ليشتري لي ما كل ما أحتاجه، المشكلة أنني لا أعرف من أين، وعقوبة مستهلكي الماريخوانا في بلدي أمام نُصب عيني، سنة سجن وغرامة مالية ألف دينار، كل هذا لا يهمني، فأمثال وأبناء رجل مثل أبي يكونون في الغالب فوق القانون، طبعا في بلد مثل بلدي فقط، ما يُقلقني هو أن يتفطن أبي لما أنا عليه. شذوذ وإدمان.

جربت الحصول على كيومة عبر مهاتفته كما كنت أجرب دوما مهاتفة شمس. ولحسن الحظ سمعت أخيراً صوته. حالفني الحظ الذي لم يحالفني قبل في سماع صوت شمس.

-وينك يا كيومة لاباس؟

-اهلا أسامة هاني.

-انت وينك كيومة؟

-قدام الفارابي.

-بالمجّد بالمجّد؟

-ايه والله تحب تجي مرحبا.

أخبرته أنني في مدينة الحمامات، لم أساله كيف نجا، كيف خرج، كل ما كان يهمني وقتها أن أحصل على الحشيش. اعتذر كيومة في البداية اعتذار من يجس نبض الآخر، لكن أمام إصراري قرّر مساعدتي شريطة أن تكون السيولة متوفرة عندي. كان المبلغ المطلوب يومها أكبر من المبالغ التي كان يطلبها من قبل.

-بالله سامحني خويا أسامة ماك تعرف الظرف لي تعدى.

-ما يسالش كيومة ما يسالش جاب ربي الفلوس موجودة المهم توصلني القضية اليوم.

-هذا كلام كون متهني.

لم يكن يهمني كل ذلك تكفلت بمعلوم سفر حويتة شريطة أن يبعث لي معه ما أحتاجه، أصبحت قادرا على لف سجائري وحدي.

نصف يوم وأنا انتظر حويتة، كانت فرائصي كلها ترتعد، لم أعد قادراً على التفكير في أي شيء غير الحشيش الذي وصل أخيرا مع المهدي المنتظر، كمن كان يحمل شحنة كبيرة من المخدرات وهو يسرد كيف استطاع أن ينجو بحمولته تلك رغم تفتيش رجال الشرطة له.

حويتة الصديق الكسول الذي شاركنا مقاعد الدراسة في الإعدادية والذي بدأ يشق طريقه بخطى ثابتة في عالم الجريمة، غَدَا مشهوراً في مدينتنا بعمليات السرقة التي يقوم بها وكيف يُهدد ضحاياه بالسكين قبل أن يسلبهم ما بحوزتهم، استغربت جداً تحوله ذاك، لكنه معنا ظل صديقاً وفياً

ومخلصاً، عندما قرر كيومة أن يبعث معه الحشيش استغربت بادئ الأمر، لماذا حويتة بالذات؟

-ههه ماتخافش أسامة حويتة عاد نتاعنا.

لم ينتظر حويتة الذي التقيته في الشارع المقابل للعمارة أمام متجر شمس المغلق أن أدعوه معي، دَعا نفسه بشكل وَقِح، كنت أُريد أن أنفرد بنفسي أن أتنفس عبير "الماريخوانا" التي اشتقت إليها، كنت وقتها خجولاً لم امتلك الجرأة الكافية لأرفض طلبه.

-أسامة تعرف تلف ولا نجي معاك نلف ليك سيجارو.

-لا نعرف حويتة شكرا.

- برجولية أسامة صاحبك جيعان نمشي نفطر معاك ومن بعد نروح.

-مرحبا

كانت تلك أول مرة أنفرد بها بذكر وحدي بعد صدمة شمس "الحماص" بعد السيجارة الأولى بوجود حويتة، بدأ الجسد اللعين يستغيث، بدأت النار المشتعلة تلتهب داخلي بعد أن أطفأت نيران الدماغ استيقظت فجأة وعلى غير المعتاد نيران الجسد الملتهبة، مع السيجارة الثالثة، غابت سلطة العقل، غابت كل السلطات، حضرت سلطة الجسد وأنينه. لم أشعر إلا ويديَ تتحسس عضو حويتة الذكري. رأيت علامة المفاجأة والدهشة في عينيه لكنه مع ذلك استجاب لمداعبتي بشكل مقزز ووقح.

-صار انت هكا ما فيباليش ايجا ايجا حتى أنا عندي مدة ما نك...

استسلمت له يفعل بي ما يشاء. كم تمنيت أن يقبلني أن يداعبني أن يسمعني كلاماً جميلاً، لكنه لم يفعل، وهذا هو الفرق، حويتة كان ذكراً شاذا يمارس الجنس معي لا غير، في حين كنت في حاجة إلى من يتقاسم معي أحاسيسي، يشعر بها يتجاوب معها، يدرك احتياجاتي كما أُدرك وأعرف احتياجاته مثل شمس الخائن الذي تحول من حالته الطبيعية إلى شاذ لعين هو الآخر.

غرس عضوه بكل قوة في مؤخرتي وهو يستمتع بذلك، لا بممارسة الجنس معي فحويتة لم يكن شاذاً في جسمه لكنه كان يحمل شذوذاً أكبر مما أحمل، كان يحمل شذوذاً ذهنياً. وهو يمارس الجنس معي اعتقد أنه امتلكني أنه أصبح لديه دليل يستطيع أن يُذلني به، كان هذا هو دافعه الأساسي، بينما كان حويتة بالنسبة لي لحظتها مجرد وسيلة أُطفئ بها نار جسدي لوقت قصير. فرق شاسع بينه وبين شمس، الآخر شعرت أنني أتحد معه روحا وجسدا بينما حويتة حصلت منه على مُهدئ لجسدي اللعين فقط، كاد أن يفتح عليَ هذا الانزلاق بابا آخر من العذاب لولا وجود كيومة في حياتنا لأصبح فضيحة يتداولها تلاميذ الفارابي طوال تلك السنة.

قبل أن يصل حويتة إلى تونس والذي حاول ابتزازي مباشرة بعد العملية اللعينة طالبا مني مبلغا ماليا، قبل أن يصل إلى المدينة هاتفني كيومة -أسامة عيش خويا معادش تعاودها مع الأولاد نتاعنا وحويتة تو نتصرف معاه ماتخافش.

وقتها فقط فهمت جملة الطبيب ما عجز الطبيب عن إيصاله إليَ عبر كلمات منمقة لعينة، استطاع كيومة أن يوصلها ويجعلها تستقر في ذهني بشكل بسيط وأخوي.

زاد هذا من حبي واحترامي لكيومة، عندما عدت إلى المدينة الأم لم يُحدثني عن الأمر، كأنه لا يعرف شيئا ولم يحصل شيء، بعدها عرفت كيف أجبر حويتة أن يُكذب نفسه أمام كل من اتصل بهم من الأصدقاء ليزف إليهم خبر شذوذي وغزوه لمؤخرتي كانت هذه من بين الخصال التي تمتع بها كيومة وتجعلك عاجزا عن تصنيفه في خانة...

عدت إلى المدينة الأم وجدت كيومة يستعد لفتح مقهى ثقافي مُقابل المعهد الثانوي مما جعلني والكثيرين من التلاميذ أمثالي وبعض الأساتذة مطمئنين إلى مصدر مُعدّل أمزجتنا.

انتهت السنة الدراسية بحصولي على الشهادة اللعينة لكن ليس كما كان يحب أبي ويتمنى، حصلت على معدل 14 على عشرين مما يعني استحالة دخولي لكلية الطب في تونس، شكّل ذلك صدمة كبيرة لأبي الذي رغم ذلك لم ييأس كما لا ييأس كل أشباهه ممن يتوّفرون على مال كثير ويريدون الحصول دوما على ما يريدون بشتى الطرق، أبي قرر أن يراني طبيبا وهذا يكفي لأن أصبح طبيبا.

حصلت على منحة من الدولة لدراسة الطب في كلية الطب في مدينة مراكش الساحرة في المغرب، هناك عرفت كيف أصبح طبيبا وكيف يمكن أن أعيش شذوذي دون أن يُشكّل ذلك عائقا لي في مسيرة عملي ودراستي، أتاحت لي الإقامة في مراكش الحمراء الجميلة أشياء كثيرة، كثرة نوادي المثليين حيث أصبحت أعيش شذوذي بعيدا كل البعد عن محيطي الدراسي والعائلي، عندما أعود في العطل إلى تونس اكتشفت أن مدينة تونس نفسها تعج بنواد كتلك، لكن الشيء المميز في مراكش الحشيش، كم هو جميل أن تلف سيجارتك في مقهى فخم دون أن تخشى أن يقتحم جلستك شرطي كئيب ليفسد جمال لحظتك .

ريم العودة من المعراج الافتراضي

سؤال : متى تهنّئ شخصاً ما إذا أخطأ؟ الجواب: عندما يتزوّج -

بعد أن دَبّت الحياة في أحشائي، بعد أن أحسست بأن هناك حياة أُخرى مخلوق آخر سيحمل لقب ابني، وسأكون مُلزمة أن أُوفّر له حياة تليق به كإنسان، وأستقبله بشكل يليق فعلاً بمظاهر الاستقبال في هذه الحياة.

بعد تفكير لأسبوع كامل مع إيقاف كل أشكال الحوار والتغاضي عن كل استفزازات الزوج، ذات يوم عندما عاد إلى المنزل شاهراً سيفه يبحث عن أدلة جديدة لخيانتي الافتراضية له، أعطيته الهاتف الجوال، أغلقت جميع صفحاتي على مواقع التواصل الاجتماعي. وقتها فقط أحسست بأنني أعود تدريجياً من معراجي الذي مازال يعيش فيه الكثير من الناس، بل مازال العالم الافتراضي هو العالم الموازي للكثير من التائهين الذين أصبحوا يعيشون هناك حياة مغايرة تماماً لواقعهم على الأرض. هل سيعوض العالم الافتراضي المحسوس عالم الميتافيزيقيا الموعود؟

بعد تفكير عميق قررت أن أعود إلى الأرض التي يجب أن أعيش فيها وعليها بشكل حقيقي وليس افتراضياً، يجب أن أُواجه هذا العالم بما أتوفر عليه من معطيات حقيقية وليس التي أوهمت الناس أنني أتوفر عليها، يجب أن أشحذها أُطورها أُطعِّمُها بالإرادة بالتصميم وبالقطع أيضاً وأحياناً إن لزم الأمر بالسُّم الزُعاف.

اعتقد زوجي أنني عُدت إلى رشدي، والرُّشد عند الذكور هو أن تستسلم المرأة لمشيئة الذكر ورغباته استسلاماً تاماً، أن ترفع الراية البيضاء، هذا فقط ما يؤهلها أن تكون الزوجة الصالحة في نظرهم والطالحة في نظر نفسها.

اكتشفت أن هذا العالم كله يمشي وفق قوانين ونواميس ذكورية، لِذا وجب أن أتخلص من أنوثتي أن أُصبح ذكراً، هذا أول ما قررت فعله والإقدام عليه سأُعامل الذكر بالمثل، سأُحلّ لنفسي كل ما يُحلُّ ويشرّع لنفسه وأزيد عليه. بعد شهر من التدرب الذهني والتأمل قررت أن أهجر حياتي السابقة، سأدع جلدي هنا واستبدله بجلد آخر كما يفعل الثعبان.

-أحمد .....

-اشنو الجديد ما تقوليش باش ترجع الفايسبوك نعرفك ماتنجمش تصبر

-لا باش نطلق.

-هههههه تفدلك.

-لا والله غدوة باش نرجع لدارنا.

-هيا تصبحي على خير ويزي من التمخوير كان تحب تمشي برا الباب مفتوح.

-المهم من غير ما تتصل بي كان ما لقيتنيش غدوة.

-تهدد في ز... برا ني ..اش تسخايب روحك؟ باش نموت بعدك النسا مطيشة ف الشوارع تلوج على الرجال.

زوجي المثقف، الأستاذ، وأنا أيضا، لم نكلف نفسينا يوما عناء المناقشة كأناس عاقلين، دوما النقاش يعني في أغلب أُسرنا الشجار ومحاولة فرض رأي القوي الذي يحمل في طياته كل إفرازات الأنا المُتسخة نتشاجر على أشياء أتفه من التفاهة، فمثلاً لا يمكن للمرأة أن تناقش وتطلب الإذن من رجل "جحش" رغبتها في زيارة أهلها، في هذه الحالة يكفي فقط أن تُعلمه، ولا أن تحرم امرأة وقحة ذكراً من زيارة أهله ومصادرته باعتباره مكسباً للعائلة الجديدة، هذا فيض من كأس. كيف يمكن لعلاقات مثل هذه أن تتطور؟ وتساهم في إنتاج جيل آخر يحمل مشعل التطور إن كانت هي مازالت تعيش في دوامة من المشاكل التافهة ولم تتجاوز أبسط أبجديات الصراع الحيواني؟.

بدَا كل شيء هذه المرة مُرتباً، أمي باتت تمثل دور المقتنعة على مضض معتقدة أنني ما أن أُزيل الشوق عني حتى أُفكر في العودة إلى أحضان الزوج نادمة طالبة غفرانه أُسوة بمعظم النساء اللواتي عانين مما أعاني، باعتبار حالتي هي القاعدة وليس الاستثناء.

-يا بنتي المصارن في الكرش تتعارك إيجا توا في نهارين تتوحشي راجلك وترجع وحدك.

-الرجل بنتي راه سترة المرا إلا عرست ماليها كان راجلها.

-يا امي راني مانفدلكش باش نطلق.

-احنا ماعندناش بنات تطلق ريم بنتي، اش باش يقولوا علينا الناس؟ الطلاق موش ف سبرنا.

- أنا جايا واكهو.

كنت خائفة. أعرف أنني سأحارب وحدي من أجل حريتي، من أجل ذاتي. سأحارب المجتمع، أسرتي، الأعراف البالية كل هؤلاء يطلبون مني بحسم أن أُلغي نفسي، أتجاهلها، أقتلها من أجل أن تستمر حياة مقرفة اسمها الحياة الزوجية، من أجل ألّا أبدو في نظر العالم المقرف الذكوري مُطلقة، والتي تعني تحت السطور وفي عُرفنا مومساً قابلة للمضاجعة ممن هبّ ودبّ.

شجعني العمل الذي ينتظرني والذي رتبت له مسبقاً في معمل صغير للخياطة، كما أن فكرة إقامة مشروع خاص بي قد اكتمل اختمارها في ذهني بشكل واضح لا لُبس فيه.

في الصباح الموعود بعد أن خرج شريكي في السكن دون أن يُودعني، دون أن يطبع قبلة حب على شفتي كما تعتقد جل الغبيات قبل الزواج،

دون أن يعتذر على الكلام الجارح الذي أسمعني البارحة وقبل البارحة. جمعت أغراضي، فقط ملابسي العادية. لم أستغل غيابه كما تفعل الكثير من النساء وأحمل كل المتاع الذي يصبح في غفلة يغيب فيها العقل أهم من كل شيء. حملت متاعي، عقلي، إرادتي، قراري، اقتناعي به معي وهذا كل ما كنت أحتاجه وقتها.

أمي ارتدت أكثر من قناع عند استقبالي، قالت للجيران بأنني سأقضي فترة الوحم عندها، لست أدري أي شيطان ركبني، قلت لكل من قابلتهم وكل صويحبات أمي بأنني تطلقت وأن هذا القرار قراري وأنا سعيدة به. لن أعيش في أي عالم افتراضي بعد الآن. ألَا يتبجح الذكور في غالب الأحيان باتخاذهم قرار الطلاق، أنا سأتبجح أيضا بقرار طلاقي. باشرت منذ اليوم الثاني لوصولي، وباشرت أيضاَ إجراءات الطلاق في المحكمة، كنت مصممة وكلي يقين بما أفعله. أتمتع بالحياة وبُرعُمها الذي يتفتح داخل أحشائي، كما أصبحت أتمتع بوضع خطط لاستقبال هذه الحياة على الأرض كما يليق بها. هو أكبر حدث على الإطلاق أن تخرج المخلوقات إلى الحياة وهي تبكي خوفا وأملا. سأهزم الخوف في بكاء ابني واستبدله ببستان من الورود المفعمة بالأمل.

إن كنت قد قطعت كل صلتي بالعالم الافتراضي فأنا لم أقطع صلتي بعالم التكنولوجيا، خصصت ساعتين من كل يوم للبحث عن أسماء أكبر

شركات النسيج، والتعرف إلى المنتجات التي تهتم بها كل شركة، مع تدوين كل الملاحظات والعناوين على كراس كبير اشتريته للغرض.

بعد شهر انتقلت إلى المرحلة الثانية، خصصت الساعتين السابقتين من الدروس النظرية إلى الدروس التطبيقية، غدوت أتدرب على خياطة أهم منتوج لكل شركة على حدة وكلي حرص على أن تكون القطعة في مستوى الجودة المطلوبة. تطلّب مني هذا العمل أكثر من ثلاثة أشهر، كنت قد تلقيت وقتها رسالة القبول من البنك الوطني للتضامن بالموافقة على دعم مشروعي الصغير، كِدت أطير من الفرح، بدأت بطني في الانتفاخ أكثر فأكثر مع كل انتفاخ صغير تزداد عزيمتي وإصراري قوة وصلابة لم يكن حملي بولدي منبعا للكسل والخمول، بالعكس كان منبعاً لقوة الإرادة والتصميم.

زوجي مازال يعيش في خيلائه الذكوري، تنقل لي أمي بين الفينة والأخرى أخباره وهي تأمل أن أغيّر رأيي، كما تدعو في كل صلواتها بصوت مسموع أن يهديني الرب وأعود لرشدي وهي لا تعرف أنني أكثر رشداً من ذي قبل.

لماذا يتمثل رشد المرأة في تبعيتها للذكر، رشدي يتمثل في تحقيق أحلامي في ألّا أعتاش على فرجي وأنا أتحمل في ذلك إهانات المَنْ.

زوجي السابق كان يعتقد أنني سأعود إليه صاغرة، أو هكذا تخيلت ولأن أمي كانت تغذّي فيه الإحساس بالتفوق.

-اصبر عيش ولدي والله حالتها بنتي تسخف تخدم ليل ونهار في المعمل والدار عينيها ما تهزهاش على المكينة، اش يعطوها زوز فرانك تسخايل الدنيا ساهلة. الدنيا صعيبة كانت متهنية معاك الحق نتاع ربي، غير الشيطان المصارن في الكرش تتعارك عاد شبيه.

لا أعرف من أين نستقي هذه الأمثال التي تضرب موعداً لِتلتحم مع الجهل. الأمعاء تتعارك، العمل مُتعب بالنسبة إلى المرأة وينقص من قيمتها، أن تعيش عالة على الرجل هو ما يجسد قيمتها الحقيقية المتمثلة بأن ترضى بالمأكل والمشرب كالبقرة وأن ترفع ساقيها في الليل للرجل الذي يُطعمها وإن لم تفعل لعنتها الملائكة حتى تصبح واستحقت لعنة الأرض والسماء.

أنا ريم لن أرفع ساقي إلا برغبة مني ولن أترك ذكراً يتمتع بأنوثتي، أنا من ستتمتع، أنا من ستقوم بالمبادرة أنا من ستدفع أحيانا لبعض الذكور الذين اشتهي مضاجعتهم وهم كُثر. كم كنت أخجل في السابق من تلك الرغبات التي تُراودني وتُسيطر على خيالي، أعتقد أنه لا توجد امرأة لم تشتهِ يوماً في مخيلتها ولم تتخيل نفسها يضاجعها رجل أسود ذو قضيب كبير، كما جعلونا نعتقد ذلك يقينا منذ كنا صغارا.

كم من مرة راودتني الرغبة في أن يضاجعني رجل جميل ووسيم...

الآن سأضع برنامجاً أُحقق فيه رغبات الجسد والروح، اللذين وُجِدا معاً لِيعيشا معاً، وقبل أن ينفصل الروح أو النفس عن الجسد الفاني سأُلبي

احتياجات الإثنين معاً ما داما يعيشان داخل دائرة وعيي وإدراكي العقلي.

أنا المسؤولة عنهما الاثنين، أعتقد أن هنا تتجلى الأمانة بكل معانيها.

حصل أحمد على رقم هاتفي الجديد من أمي، لأنّ عملي يستلزم أن يكون لي هاتف وبريد إلكتروني، لكنه كان أبعد بكثير مما اعتقدت وذهبت ظنوني، لم يكن حريصاً كما فهمت من أُمي على عودة علاقتنا إلى مجراها أكثر من حرصه بعد أن تلقى دعوة من القاضي لحضور أولى الجلسات الصُّلحية قبل الطلاق.

هاتفني ليتأكد إن كنت فعلا سأُبرئه من أيّة مسؤولية ومتابعة قانونية.

-ريم احنا ناس مثقفين الواحد يلزم يتحمل مسؤولية قرارو.

-حتى الواحد يلزم يتحمل زادة ويدفع ثمن المتع نتاعو مش هكا القانون الذكوري نتاعك أستاذ.

-اخ ريم فك علينا تحب ترجع للدار وتحكي على القانون مرحبا ما طردك حد.

-كينرجع فترة التحقيقات الاستخباراتية قداش باش تستمر مع من حكيت مع ...

-اشنو توا أنا نحب نفهم روحي ومن حقي.

-تنجم تبني حياتك احمد انا من الماضي. ولدك ربي يجيبو على خيرمرحبا بيك في أي وقت تحب تشوفوا، من عندي أنا براءة -وأمك وبوك.

-نرمال. اش يهمك؟ أنا مصححة بالتنازل أنا ليطلقتك.

اشتممت رائحة امرأة أخرى في حياته، كانت رائحتها بارزة فاضحة في كلامه تزكم الأنوف، لم أشعر بالغيرة بتاتا وقتها تأكدت أن أمره ما عاد ليهمني، أريد أن أحتفظ لابني بصورة جيدة أو أن أرسم له صورة جيدة كما أردتُها أن يكون عليها أبوه.

لكنني من بعد تلك السنوات بعد أن عرفت الحقيقة، المرأة التي اشتممت رائحتها كانت سلمى، أعتقد جازمة أنني لم أكن لأسامحه أو أتنازل عن حقوقي له لربما كنت سأعود إلى منزل الزوجية وألغي كل إجراءات الطلاق بل أُلغي كل أحلامي وبرامج مشاريعي.

هذه هي نقطة ضعف أي امرأة، الغيرة القاتلة من المرأة نفسها، الغيرة القاتلة بين بنات حواء أنفسهن، أقول هذا لأنني إلى حد الساعة أشعر بلوعة الخداع من تلك الأفعى التي اقتحمت كل حياتي لتسرقها مني.

لم تبرُد نار كيومة بعد في قلبي كم تمنيت أن أُشفيَ غليلي منه ومن سلمى معاً، أن انتقم منهما، اقتنعت أن مسار حياتي الحالي لم يكن ليكون على ما هو عليه لو لم أتعرف إلى كيومة هذا الذي امتلك بشكل فطري مفاتيح جسدي وقلبي آه ثم آه كم أحن وأشتاق إليه، وكم أكرهه في نفس الوقت.

المرأة هي المخلوق الوحيد الذي تستطيع أن تعيش بداخلها أحاسيس متناقضة كهذه.

بِت ألتمس ألف عذر لزوجي فأنا لم أصل إلى النشوة معه قط رغم تظاهري بذلك، لكنه كان قادرا أيضا هو بفطرته أن يقرأ حرماني وتطلعي عندما وجد اسم كيومة في أول أسماء قائمات الأشخاص الذين زرت "بروفايلاتهم بالفايسبوك"، جَنّ جنونه

-تتمنيكي على ز... ما زلت تتمعشقي مع سي شباب نتاعك من بعد نولي أنا المتخلف إلا تكلمت وقلت ماضي وزفت لا لالة ف الحالة هذه أنا ما نيش راجل إلا سكت نولي طحان.

لم يكن عندي ما أجيبه، في لحظات الظمأ فعلت الأنامل يومها ما تفعله الذاكرة. كل يوم تستحضر الذكريات بكل تفاصيلها، كيف يصفعني على مؤخرتي وأنا أطلب منه المزيد. تلك الشمطاء المومياء سلمى سرقته مني. لكن لا بأس، ما عاد يهمني أمره احتاجه لليلة فقط أمارس معه الجنس كما اشتهي أنا وبعد ذلك أصفعه على مؤخرته وأطرده من حياتي، عصفوران بحجرة واحدة أُريه حجمه الحقيقي وأُري للمومياء الجميلة سلمى أن الجمال ليس كل شيء وأنني قادرة على أن أدخل إلى حياتها وأُدمرها، صبرا سيحصل كل هذا، نعم كل شيء قد خططت له بإحكام، الآن مرحلة العمل ثم العمل.

سلمى

أُمنيتى المستحيلة أن أُمنح فرصة أخرى للعيش... أن أُولد من جديد لكن فى ظروف مغايرة أجيء مزودا بتلك المعارف التي اكتسبتها من وجودي الأول الموشك على النفاد... أُولد وأنا أعلم أن تلك النار تلسع. وهذا الماء يغرق فيه من لا يتقن العوم. وتلك النظرة تعنى الود وتلك تعنى التحذير. وتلك تنبئ عن ضغينة... كم من أوقات أنفقتها لأدرك البديهيات. ومازالت أتهجى بعض مفردات الأبجدية. - جمال الغيطاني

حلُمت وأنا صغيرة يافعة بأحلام وردية كثيرة، واستيقظت في رحلة الحياة تلك التي لم أختر لها بداية ولا شكل ولا جنس، ولن اختارنهايتها استيقظت على كوابيس مُؤلمة، استطعت بجهد مُضاعف أن أنسج من داخل بركان الألم ذاك أحلاماً أخرى عَلِّي أستطيع أن أعيش بسلام فقط مع نفسي ومع عالمي الذي وُجدت فيه.

رحل أبي مُبكرا عاد من فرنسا ليرحل دون سابق إنذار بعد أن اصطدم بالواقع المُر الذي أعادنا لنعيش فيه، كبرياؤه فقط من منعه من الاعتراف بخطأ العودة، كان يعتقد باعتباره كبير العائلة أن الأبواب ستُفتح أمامه وسيعيش اللّحمة العائلية التي حُرم منها سنوات عدة، عاد ليكتشف أن البلاد التي تركها منذ ثلاثين سنة خلت لم تعد هي، عاد ليكتشف أنّ اللُّحمة الاجتماعية لم تعد إلا مسرحية لِحلب المُصدّقين بوجودها من أمثاله، عاد ليكتشف لا البلاد بلاد غرب ولا عُرب، فقدت هويتها فقدت أصالتها ولم تتطور كما كانت تأمل، أصبحت مزيجاً مُقرفا بين البداوة والمدينة.

بطبيعة الحال لم يكن هذا وحده ما عجّل برحيل أبي. فالمعاش التقاعدي الذي كان يعتقد أنه سيجعله يعيش في بحبوحة من العيش لم يستطع الصمود لعام واحد، ليس لأنه غير كاف ولكن لترسخ فكرة خاطئة في أذهاننا باعتبار معاش أبي بالعملة الصعبة فهو "سوبرمان" لاينفذ، والمطلوب منا أن نصرف كما يحلو لنا بهذا الشعار الجميل اقتنعنا بالعودة إلى تونس.

-نعيشو غادي وزرة.

لكن الرياح لم تجرِ كما تشتهي سُفن أبي، اجتاحت تونس موجة غلاء صاروخية جعلت بعض السلع التونسية في فرنسا أرخص بكثير مما هي عليه في بلادنا الأم. كنا نحن الأبناء نستطيع أن نتفهم موقف الأب لكن أمي لم تكن ولم تتفهم البتة موقفه ولا وضعه.

أبي الذي عاش عمره كله وهو يتوهم أو هُم من جعلوه يتوهم ذلك لغاية في نفس يعقوب أنه كبير العائلة يُساعد فقيرهم قبل غنيهم، حاضرا في كل مناسبات الأفراح والأتراح لم يكن حضورا رمزيا فقط بل حضوراً مادياً، والأكثر من ذلك كان منزلنا في فرنسا مبيتاً جامعيا لكل المتفوقين الذين أسعفهم الحظ وساعدهم أبي بضمان توفير إقامة لهم في بلاد الغرب إلى أن يستكملوا دراستهم، لا أذكر أبدا أننا عِشنا دون غريب بيننا، ربما هذا ما جعل أبي يعتقد أنّه بمجرد رجوعه للبلاد سيُتوج ملكاً أو شيئاً من هذا القبيل.

-سيدي جا

-سيدي تفضل

كان لا يُنادى إلا بهذا الاسم الذي يستوجب حسب العُرف فاتورة باهظة للحفاظ عليه وللأسف كان أبي مستعدّا لدفع الفاتورة طيبة منه ربما أو رغبة منه في الحفاظ على الاسم الرنان." سيدي كبير العائلة"

كان اهتمام أبي بعائلته الكبيرة نقطة الخلاف بينه وبين أمي والتي بعد فشلها في صرف اهتمامه عن عائلته أصبحت تُطالبه بنفس الحضور عندما يتعلق الأمر بمناسبة تهم عائلتها. هكذا عاش أبي منقسماً في أداء واجب مقدس بالنسبة إليه بين العائلتين، وهذا ما جعلني أُفكر في أن أعيش لنفسي فقط، وبعد ذلك فليأت الطوفان.

بعد العودة النهائية إلى تونس دون تخطيط مُحكم، دون قراءة لما ستؤُول إليه الأمور هناك، دون تفكير فينا نحن الأولاد ودون استشارتنا. عودة تحت تأثير العاطفة شأن كل القرارات التي تُتّخذ في بُلداننا ويتخذها عمالقة من حُكامنا.

ظهر العجز المادي بعد مرور أقل من سنتين، ظهرت الكثير من الديون التي لم يكن الأب ليُعلن عنها، كبرياؤه كان يمنعه، لكن الأمر هذه المرة وصل إلى المحكمة وبدأت سيرة كبير العائلة العائد من بلاد الغرب على لسان جُل أفراد العائلة من الطرفين والذين استفادوا لسنوات خلت من دعم الرجل.

لم يساعد أحد أبي، بل الأكثر من ذلك أصبح محطة سخرية...، بعد أن جرب كل الحلول باع المنزل الثاني الذي كان يُدر إيراداً شهرياً محترماً، استطعنا أن نُؤمن بثمن المنزل الضخم نسق حياتنا المعتاد لأكثر من أربع سنوات، عندما أقول نسقنا المعتاد فأنا أقصد أن منزلنا يتحول إلى فندق للعائلتين، فندق يقدم خدمات مجانية لمن يستحقها ولا يستحقها، ليعود الضنك بعد انتهاء المال المُدّخر، عاد الضنك أقسى مما كان في السابق تخلصنا من الخادمة من السيارة ووقتها رحل أبي أيضا بهدوء وهو يتمشى في الشارع، لم يُزعج أحداً ولم يطلب مساعدة من أحد، رحمه الموت من مذلة السؤال لكنه تركني الأضعف بين حلقة أبنائه الثلاثة.

كانت أختي خَنْسة أكثر المتضررين من العودة المفاجئة والأكثر امتلاكاً للجرأة على أن تقول ما تريد وأن تفعل ما تريد، دفعت ثمن جرأتها صحيح، لكنها استطاعت أن تعيش كما تحب.

تزامنت وفاة الوالد مع تخرجها لِتنفض الغبار على خنسة المتهورة والمستهترة، وتَحُل محلها خنسة أخرى مسؤولة مهتمة بأخويها أكثر من أي شيء آخر، عملت في مركز اتصال، لم تضيع وقتها بتاتا، ولم يثنها هذا عن متابعة جميع مناظرات الوظيفة العمومية، كما تزامنت وفاة الأب مع اجتياز حسونة أخي لشهادة البكالوريا.

خنسة من حملت مشعل تدريسه كل المواد، لم يكن في حاجة لأي أستاذ، ولم يكن في حاجة أيضاً للمراجعة مع زمرة الأغبياء من أصدقائه، حتى تلاخيص التاريخ والجغرافيا هي من تكفل بذلك، لم يجد أخي صعوبة في الحصول على شهادة الباكالوريا، ما نجح مع حسونة لم ينجح معي. لم تنفع كل مجهودات خنسة لإعادتي إلى سكة الناجحين في الدراسة، ترك رحيل أبي فراغاً كبيراً في حياتي بعد وفاته عُدت أتبول بشكل لا إرادي على فراشي. وقتها أيضاً صِرت انتبه إلى نظرات الذكور التي تخترق جسدي متفحصة كل شبر فيه، نظرات كلها شهوة ورغبة في الاقتحام، وكان ذلك يُرضي غروري.

في مناسبتي حفلة نجاح أخي حسونة في البكالوريا وموت والدي في استرعى انتباهي نظرات كل من كيومة وقيس وأحمد "إيراتيك" كل هؤلاء كانوا يراقبونني ويترددون فتح حوار معي، لكن الذي كنت أود أن يهتم بي، كان غافلاً عني، أسامة صديق الشلّة، بل كنت أنا من تتودد إليه، في المناسبتين حرصت على تمكينه من مشروبات نجاح الباكالوريا وحلوياتها، كما مكنته من فنجان قهوة العزاء مصحوبة بابتسامة مناداة واستغاثة. كل شيء فيه كان مثيراً، تلك الرقة التي تفوق ربما رقة أنثى، كلماته المحشوة باللغة الفرنسية، مناداة أصدقائه له بالدكتور، جماله

وجاذبيته الأخاذة، كل هذه الأشياء جعلت من أسامة فارساً لأحلامي لشهور عدة قبل أن توقظني خنسة كالعادة بصدمة.

لم أخرج من دائرة أحلام الفتاة الشرقية التي يجب في الغالب أن تتعلق بأهداب رجل ليُخرجها ممّا هي فيه، كان أسامة صديق حسونة فارس أحلامي، دوما كنت أرى نفسي عروساً قد زُفت إليه. كنت أمارس العادة السرية وأنا أتخيله فوقي رقيقاً كنسمة صيف لم أغفل عن مراقبته عندما حضر مراسم تشييع جنازة أبي، لاحظت خنسه اهتمامي بل لهفتي عند رؤيته.

-توا تأكدت أنك بقرة أول ما حبيت حبيت "مي...ن" شاذ

-اه شكون قالك؟

-العباد كلها في بالها.

-امانك خنسة بالرسمي تحكي اوه مسكين

-كان مصدقتنيش نجيب ليك حبيبو حويتة يحكي ليك.

-خنسة ياخي الشاذ مايعرسش؟

-مهبولة ولا بعقلك انسيها الحكاية والله هذاك لي مازال تاخو واحد...

هههههههه

لم تغب صورته عني بعد ذلك، أحسست بآلامه تعاطفت معه. لم أشعر بالتقزز الذي شعرت به خنسة البتة، لو طرق بابي على ما هو عليه لقبلت به، لكن كلام خنسة وإعراض أسامة عني كانا كافيين بأن يجعلا من قصة حبي تلك الناشزة من طرف واحد حبيسة الأحلام والعادة السرية التي كان فيها أسامة فحلاً فقط في مخيلتي أنا الغبية التي تخيلت نفسي زوجة لطبيب.

أصير فيما بعد زوجة لرجل أعمال صغير في الظاهر ومجرم ومُروج مخدرات وحبوب الهلوسة والفياغرا في الباطن. لولا وجود خنسة في حياتي لكان مصيري الجنون بعد وفاة أبي وصدمتي في فارس أحلامي.

عاد التبول اللاإرادي والرغبة في الاختلاء بالنفس وعدم مقابلة الناس، أُمي أصرت على اعتبار الأمر سحراً من أحد الأقرباء اللذين تعرفهم، وبالتأكيد لا يمكن أن يكونوا إلّا من أقرباء أبي، وإنّ ما حصل بالسحر لا يُفك إلا به.

الطبيب النفسي الذي زُرته تحت إصرار خنسة كان له رأي آخر، بعد أن استمع إلى كل هواجسي المرعبة التي باتت تعشش داخلي وحالة الهلع التي بت أعيشها. بعد أسبوع من زيارة الطبيب الذي وصف لي بعض الحبوب، الذي أعتبر حالتي حالة عابرة تحتاج فقط إلى تفهم العائلة والتفافها وبرنامجاً للترويح عن النفس.

بعد أسبوع تراجعت الحالة يمر شهر أو شهران دون أن تتكرر لكني أمام أتفه موقف محرج أو خوف كنت أجد فراشي في الغد مُبللاً. جعلني هذا أكثر انطوائية على نفسي لكن خنسة كانت لي بالمرصاد، كما جعلتني حالتي تلك أُسلم بخنوع تام مقود حياتي لخنسة مُتبنية دون تحفظ كل أفكارها ونظريتها في الحياة التي كانت بطبيعة الحال نتيجة تجربة تخصُّها هيَ ولم أخُضْها أنا. إلى حدِّ الساعة لم أعرف إن كنت مُحقّة أو مخطئة فيما أقدمت عليه، وإن كانت أفكار خنسة ونصائحها مناسبة لي أم لا.

تأملتني مرة وقالت:

-الجميلات ليس مطلوباً منهن في زماننا هذا أن يجتهدن، المطلوب منهن أن يظللن جميلات هذا يكفي في الوقت الراهن، ستنجحين في أمور أخرى.

جربت معي أختي أشياء كثيرة علّها تكتشف بداخلي موهبة ما. طبخ، تصميم دراسة لغات، فندقة ... لكن دون جدوى.

-أنت بقرة ما تصلحي لشيء لكنك بقرة نتاع نـي...ك، جميلة وهذا يكفي في الوقت الحاضر ومطلوب في عالم الساعة.

شعرت بارتياح كبير عندما كفت خنسة عن توجيهي في الدراسة وتوابعها رفعت الراية البيضاء، صرنا أكثر قرباً وأكثر حميمية من ذي قبل، في المناسبات الدينية التي تلت رحيل أبي حيث كنا ننظر إلى المكان الشاغر الذي تركه رحيله، لم يعد المنزل مكتظا بالزوار كما كان، لم تعد لتلك الأعياد نفس النكهة التي كانت في حياته، نستسلم للبكاء ونحن نجتر الذكريات في صمت، كانت خنسة تنام ملتصقة بي لتطمئنني ولتثبت لي أنني لن أتبول لأنها بجانبي ولن تتركني.

خنسة كانت تناضل من أجل أن تُنير طريقنا، حكت لي قصتها مع مروان بكل تفاصيلها، أكثر من ست سنوات حب في الأخير لم تجن إلا الخيانة والنكران.

-أنا لن أخوض أية علاقة. أنت فشلت. فكيف بي أنا؟

-أنت عزيزتي لن تفشلي، يكفي فشل واحد منا، ستعيشين الحب بمعايير هذا الزمان، وستنجحين، أعدك. كما أعدك أنني سأعيد صناعته بنفسي من جديد وسينجح الأمر، ثقي بي.

لم تعد تؤمن بالحظ بالحب ب.... تؤمن بالعقل فقط. أعادت بناء حياتنا من جديد وفق ضوابط أخرى تتماشى مع ما هو موجود ومطلوب في السوق. أصبح العالم عندها سوقاً تخضع لقانون العرض والطلب لا غير، لم تتأخر كثيراً في إيجاد بديل لمروان، بل جاء وفق كل المواصفات المرغوب فيها باستثناء ....

مع اجتيازها لمناظرة الكفاءة المهنية بنجاح وتخرجها أستاذة للغة الفرنسية، فيهذه الفترة اكتسبت خنسة قوة في طريقة تفكيرها، واكتسب منهج حياتها شرعية بنجاحها، باعتبار قِراءتها الجديدة للواقع المعاش قراءة صحيحة، مكنني هذا من تجنب كل الأخطاء الغبية التي تقع فيها الكثير من الفتيات عند الدخول في علاقة، كان أول درس تعلمته من بين الدروس الكثيرة التي تعلمتها منها عندما دخل كيومة حياتي. أن أجعله

يصدق أنه أول حب في حياتي وجعلته يعتقد ذلك إلى حد اليقين كما أحب أن يعتقد هو بطبيعة الحال، كانت خنسة تُصر على أن أُقابل كل من يطرق بابي من باب تكافئ الفرص، شريطة أن تتوافر فيه مجموعة من الشروط. أن يكون مقبول الشكل إن لم يكن جميلاً، هذا شرط أولي، ذا دخل جيد إن لم يكن غنياً، والأهم أن يكون قادراً على أن يُقدم لي الحياة التي استحقها من منظور خنسة.

لم تصدق خنسة عندما رأت صورته مُرفقة بطلب صداقة على حائطي الأزرق. قالت لي بحزم: "خطوة واحدة، وحدك لا. هذا ما نريده ويحتاج الأمر إلى ترتيب وتخطيط مُحكم".

كان كيومة معروفا في مدينتنا الصغيرة وفي عائلتنا لاعتبارين اثنين أولهما. شارك كل من أختي خنسة وأخي حسونة مقاعد الدراسة في معهد الفارابي، زد على ذلك فقد صارت مقهى كيومة مكان جلوس اخي وشلته، زد على ذلك فقد زارنا مرة أو مرتين في منزلنا في حفل نجاح حسونة، وبعدها بقليل عندما مات أبي، بالإضافة إلى كون عائلته تمتلك عمارات وبعض المحلات التجارية المعروفة في المدينة الصغيرة.

كيومة كان حُلم جل فتيات المدينة كيف لا وهو نموذج الشاب المطلوب؟ شقة جاهزة، سيارة، مشروع خاص يُدرّ الكثير، والأهم أنه كان ذا إطلالة أكثر من مقبولة، هو حديث جل الشباب من أقرانه بما فيهم أخي حسونة الذي يعتبره رمز النجاح، باعتباره ليس مضطرا أن يذهب كل صباح إلى الجامعة ليتخرج بعد ثلاث سنوات ويجد البطالة في انتظاره، وفي حالة أسعفه الحظ سيعمل كالبغل بمرتب شهري أقل بكثير من إيراد المقهى التي تدر مرتب أستاذ في يوم أو يومين أو في أسبوع على أبعد تقدير.

لم تتركني خنسة على سجيتي معه، أخذت الأمر على عاتقها، أردت أن أعترض لكنني وجدت نفسي أجبن من أن أفعل ذلك.

بطبيعة الحال كان لخنسة أسلوبها قبل الهجوم وقبل الموافقة على أن يصبح من دائرة أصدقائي على الحائط الأزرق، كل ليلة عند عودة حسونة من مقهى المعراج كان يجد خنسة في استقباله مع مجموعة من الأسئلة الاستخباراتية.

- شبيك لتوا سي حسونة تطلعش تزطل كيما صاحبك؟

-شكون فيهم؟

-يا شومي الشلة كلها ولات تزطل.

-وين المشكلة؟

-لا لا بالرسمي حسونة كيومة صاحبك نتاع زطلة وبنات وحرابش كيما يحكو عليه؟

-يا بتي صلي عل النبي الزطلة نرمال عشبة تي العباد كلها تزطل.

محامين قضاة بوليسية جات على كيومة مسكين خاطيه الراجل ولد عيلة.

لم تخرج تصريحات حسونة طوال فترة الاستخبار تلك والتي أعلنتها خنسة عن هذا النسق.

حسنا فعلت خنسة. أدارت المقابلة إن صح التعبير أحسن إدارة، جعلته ينتظر ردي على طلب الصداقة لأكثر من أسبوع، وبعد ذلك قامت باستفزازه باسمي بطبيعة الحال برسالة على الخاص.

-ع السلامة كيومة يا خي مثبت تحب صداقة على الفايسبوك ولا تلوج على حاجة أخرى؟

لم ننتظر. كمن كان ينتظر مثل هذا الحوار

-اشبيك سلمى احنا عشرة.

-ايه نعرف وخصوصا العشرة عندك أنت مع البنات كيفاش عاملة.

-أنا ناوي عل الحلال والله والله والله

-هههههه قديمة برشة ولي ناوي عل الحلال ما يحلفش ولا نسيت ما تعرفش الدار.

-معناتها أنت موافقة نحب نعرف.

-تتقدم ومن بعد تعرف الجواب باي باي.

كم تمنيت أن أُحاوره، وقتها أحسست بقلبي يدق. كل القصص التي سمعناها من حسونة أخي عن هذا الغامض كيومة تؤكد أن الفتيات هن من يسعين لنصب شباكهن له.

خنسة يزداد موقفها تصلبا يوما بعد يوم تكمل الحوار معه من هنا وتبدأ مشوار السب والشتم لفصيلة الذكور ومجتمع الذكور لتختمها بالمقولة المعتادة.

-عبدة الفروج خنازير.

خفت أن أفقد كيومة، صِرتُ أتلهف كل يوم سماع أخباره، رفضت خنسة أن تمده برقمي وهددتني بقطع علاقتها بي إن أنا فعلت.

-قلبك حن حبيتيه باهي لالة توا نخليه يشريك بالذهب شوية صبر ولا معندكش. بقرة.

أصبحت أُتابع خنسة وهي ترسم حياتي، علاقتي، من موقع المتفرج لا غير.

اختلف الأمر هذه المرة عن كل من قابلناهم في السابق، كانت بمجرد أن تطلب أن أقطع علاقتي بأحدهم كنت أمتثل فوراً رغم أن العلاقة في أحيان كثيرة تكون قد وصلت مرحلة تبادل القبلات إلى الجنس الفموي أو الاحتكاك. رغم ذلك كنت دوماً مقتنعة بوجهة نظرها

-"نعم لتلبية رغبات الجسد بحضور العقل، بعيدا عن الأقارب والمعارف مع الغرباء وفي أماكن بعيدة".

شعاران كفيلان بحماية فتاة تعيش في مجتمع ذكوري شرقي يؤمن بالشرف المزيف كمجتمعنا. كانت كل المعطيات الشخصية التي تُعطيها خنسة لمن نقابلهم صدفة في إحدى العلب الليلية أو في شاطئ من شواطئ الصيف، في مقهى، في الحافلة تكون خاطئة ابتداءً من الاسم.

تحرص خنسة على أن نختار فريستينا بهدوء كأننا ذكور، وبعد ذلك نحن من يُوقعهما في الشباك نتجه مباشرة إلى ما نريد الجنس بأشكاله التي تجعلنا نرتوي وفي نفس الوقت شريفات في نظر المجتمع. هذا المثل كما قالت خنسة ينطبق عليَ أنا فقط، باعتبارها هي في مثل سني خسرت أشياء كثيرة لأنها لم تجد من يُوجّهها ويُوقظها.

هذه المرة بِت أخاف أن تطلب مني قطع صلتي بكيومة. وخصوصاً بعد اتصال تلك الحمقاء ريم تستعطفُني أن أدع لها كيومة لأنها تحبه ويعني لها الشيء الكثير. لم تجبها خنسة ليلتها، بل الأكثر من ذلك بكت تأثرا برسالتها، كاد الرعب أن يقتلني، دَلَّ على ذلك فراشي الذي أصبح مُبتلا في الصباح أعتقدت جازمة أن ابتلاله هو ما شفع لي عند خنسة في ألّا تطلب مني ما كان عالقا في طرف لسانها. عانقتني طلبت مني ألّا أخاف.

-غاظتني ريم سلمى أما لي متعرفوش الحمقاء حتى كان خليتو أنت ماهوش باش ياخوها ويعرس بيها، خذا لي حاجتو أكهو خنازير ماني قلت ليك.

خنسة المجنونة لم يمنعها استعدادها للزواج بأن تهتم بكل صغيرة وكبيرة في علاقتي بكيومة. الأخير الذي أصبح صديقاً افتراضياً على الفايسبوك بدأت اتصالاته الليلية منتظمة كل يوم يزداد إصراره أكثر من ذي قبل. وِفق خنسة "كلما ازداد عطشه ازداد إصراره" لا تخافي عزيزتي أنت جميلة ربما يكون عرض كيومة أضعف عرض ذكوري تلقيته إلى حد الساعة.

-لكنه يعجبني خنسة نحبو امانك.

لأول مرة تنظر إليَ خنسة بغضب.

-حب لاباس في مخك.

-علاش خنسة؟ نجم نحب

-هههههههه نعرف أنت تنجم تحب نقصد هو يا بقرة

-امانك يعني أنا ما نتحبش.
-اووووووه البنت المزيانة عندنا يتشهاو ين.... ها فهمت توا عزيزتي.
كان عطيتو لي حاجتو بيه قبل الزواج ها وذني كان يعرس بيك.
لم أجد غير الدموع وقتها لأحتج على كلامها، لكنني مالم أفهمه ساعتها فهمته واصطدمت به فيما بعد، نعم أمثال كيومة لا يعرفون الحب، يعرفون كل الأشياء إلّا الحب، وكل الأشياء التي يريدونها أيضاً، يحصلون عليها وصادف أن كنت من بين الأشياء التي أراد سعادة كيومة الحصول عليها لا غير.
لو تمعنت واستوعبت كلام خنسة في أن أُحدّد بوضوح ما أُريد الحصول عليه لعشت بسلام، لكنني لم أجنِ غير ليال طوال من العذاب والأرق.
فترة الخطوبة الزفت مرت بصعوبة بالغة بالنسبة إليّ أنا التي كنت أسيرة لتوجيهات خنسة الصارمة. سمحت لي بالحب الافتراضي معه فقط وعند اللقاء لا شيء غير القبلات، الغريب أنه لم يكن يُصّر على طلب المزيد، لو فعل لأعطيته دون تردد، لكنه كان يخاف أن يُدنس صورة العذراء العفيفة التي رسمها لي في مخيلته.

كان يتسابق مع الأيام لأُزَف إليه، جعلني ذلك أُكذب كل أقوال خنسة ونظرياتها في صنف ما تسميه الذكور. خنسة التي اختارت بعقلها أن تُشكّل حياتها بعيداً عن المنهج الموروث.
-المكتوب، النصيب، لي كتب ليك باش تاخذو ...
قررت أن تصنع قدرها بنفسها لأنه يدخل في خانة اختصاصها. لم تكن لتحتاج إلى شيء غيبي ليُباركها ليُعطيها السعادة ليُساعدها. لأنها كفرت بكل شيء منذ أمد بعيد.
تمّ زواجي بعد مرور سنتين على زواج خنسة، لكن دون أبناء هل كان القدر يترصدها؟ وهي التي بدأت تكتسب ثقة بنفسها عاماً بعد عام. هل هو

مكر ميتافيزيقي؟ كان يضحك منذ البداية وهو يراها تحاول عبثاً أن تصنع السعادة، الأسرة، النجاح، القوة بإرادة من حديد. مكر يضحك ليقول لها ستظلين مهما أُوتيت من الحكمة وقوة العقل والتدبير، ستظلين أنت وأمثالك دوما في حاجة ماسة إلى الكينونة الغيبية سمها ما شئت، حظ، قدر، إله... لكن بصمتها لا يمكن لعاقل أن يُنكرها ويدّعي القدرة على العيش دونها. كيف يمكن لهذا كله أن ينهار أمام مقولة طبيب.

-تعرف مادام احنا نعملو لي علينا الباقي كلو على ربي.

-بالله دكتور نحب نعرف شنو الباقي هذا بالتحديد؟

-مانجمش نفسروليك ما يتفسرش.

-خوذني على قد عقلي دكتور وقرب لي.

-عِلمياً كل مراحل زرع طفل الأنبوب في رحمك سيدتي وللمرة الخامسة كلها صحيحة، لم يشبها أي خطأ. كنا في حاجة إلى من يبارك ويُيسر هذا العمل، أو بعبارة الدين من ينفخ الروح في هذا العمل وهذا ليس من اختصاص الطبيب.

عُقم خنسة دمّر كل حساباتها، حياتها لم تعد كما كانت، أحست أنها طُعنت في الظهر، الطفل بالنسبة إليها حياة، استمرار .... خصوصاً في مجتمع كمجتمعنا.

-عالسلامة خنسة، أوخ ياخي لتو ماسهلش ربي؟.

-والله مازال ماسهلش ربي اش نعمل مش بيدي.

-ازرب روحك عيش اختي الصغار هم عمارة الدار من غيرهم الراجل يطير.

-الا بالحق العيب منك ولا منو؟

هل يمكن أن تحافظ على توازنها من تتلقى في اليوم قرابة عشرة أسئلة من هذا النوع. لا يمكن كما قالت هي أن تعبر عما بداخلها وبداخل أمثالها مهما حاولت وأُوتيت بلاغة الكلام.

تزوجت كيومة كما أردتُ وكما خَطّطَت خنسة، رغم الكم الهائل من المشاكل التي اعترضت طريقي بعد إعلان الخطوبة الرسمية مباشرة اكتشفت الكم الهائل من الفتيات اللواتي كن على علاقة بكيومة، أغلبهن اتصلن بي، بأمي، بخنسة، منهن من تجرأت واتصلت بأخي حسونة، كلهن يُحذرنني بأنه لن يتزوجني سيلعب بي فقط كما فعل بهن لا غير.

كانت خنسة لهن بالمرصاد، واحدة فقط منهن امتلكت النّفس إلى آخر رَمق وهي تُقاوم وتحاول إفشال زواجي بكيومة، رغم ارتباطها في تلك الفترة بصديق كل من حسونة وكيومة نفسه.

إنها ريم. تلك الفتاة اللغز التي حازت على تعاطف خنسة، سيجمعني بها أكثر من خيط وعداوة غريبة. أنْ تُكنّ العداء القوي الذي يصل إلى درجة الرغبة في التدمير لشخص لم تلتق به بتاتاً ولا تجمعك به أي معرفة سابقة، أمر محير وغريب لكنه كثير الحدوث، شكّل وجودها السابق في حياة زوجي لغزاً بالنسبة لي، هذا الذي أرخى بظلاله على علاقتنا الزوجية وجعلني أعيش في دوامة من الشك المريب الذي قادني رفقة العطش الجنسي إلى الخيانة، ومع من؟ مع زوج ريم نفسه، صديق كل من حسونة أخي وكيومة زوجي.

فاشلة كنت لم أستطع أبداً الخروج من دائرة أصدقاء حسونة الذكور وعن توجيهات خنسة، حتى بعد غيابها إن تعذر عليَّ الاتصال بها، كنت أستحضر كل وصاياها، فأتبعها بكل حذافيرها. اقتحمت ريم التي لم يسبق أن شاركتني حتى تحية الصباح، اقتحمت عليَ حياتي منذ الأسبوع الأول من زواجي، بدأ الشك يَعصُر قلبي كونها ما زالت مرتبطة بعلاقة مع زوجي رغم أنها تزوجت بعدي بأشهر قليلة فقط، ربما نِكاية في نفسها أو بي أو بكيومة هذه التي كان يستحضر زوجي اسمها أكثر من مرة في حالات لا وعيه.

هي من دفعتني إلى أن أرتمي في أحضان زوجها وأحضان الخيانة الافتراضية التي قادتني إلى أن أخون زوجي قبل أن أكمل عامي الأول من الزواج. خنسة نفسها لم تصدق عندما اكتشفت الأمر.

-انت سلمى يطلع منك الشيء هذا طلعت محترفة سامحني كنت غالطة فيك برشة منك نتعلمو.

لم تُؤنبني كما كنت أعتقد، بل اعتبرت الأمر أكثر من عادي ومتوقع، باعتبار الخيانة بالنسبة إلى الرجل والمرأة في مجتمع كمجتمعنا لم يعرف بعد أن التوافق الجنسي شرط من أهم شروط نجاح الحياة الزوجية واستمرارها، فالخيانة ستظل هاجساً يسكن مخيلة أغلب الأزواج رجالاً ونساءً، يحتاج فقط إلى ظروف مناسبة ليعرف طريقه إلى التطبيق.

علاقة ريم بكيومة دمرت زواجي كما دمرت زواجها. أي شخص هو زوجي؟ أي نوع من الدمار الذي يزرعه أينما حل وارتحل؟

عرس فخم لم تحلم به -كما قالت خنسة-من أفنت حياتها وشبابها في التحصيل والعمل.

-الأغنياء يعطون للمرأة الجميلة أكثر بكثير ممُا تعطيه الدولة والمجتمع للمرأة العاملة المُجدة عزيزتي.

-لا تخافي ستحصلين على كل ما تريدين بقليل من الصبر والحكمة. ستحصلين على ما لم أحصل عليه أنا المبرزة في الآداب الفرنسية. فعلاً في ليلة ما يُسمّى الدُّخلة بَدَت كل قراءات خنسة للواقع تتجلى بوضوح، كم كنت أتمنى أن تكون مخطئة، وكم من مرة حدثت نفسي بذلك، لكن الحقيقة كانت أمَر بكثير من قراءة خنسة لها.

الهدايا المالية التي حصل عليها كيومة ليلتها أذهلت الجميع، كيف يمكن لشاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره أن يمتلك هذا النسيج الاجتماعي المستعد للتضحية أيضاً. فاق مبلغ الهدايا مصاريف الزواج، كنت شاهدة على عَدِّه برفقة أبيه وأمه وأنا بلباس العرس، حيث انشغل عني حبيبي بِعَد

النقود، تلك لا أنكر أنا نفسي انشغلت عن نفسي وعنه وأنا أرى ذلك الصندوق المملوء بالهدايا والأوراق المالية.

اعتذر الأب والأم وهما يحملان المبالغ المالية معهما واعدين ابنهما أن مبلغ السفر لشهر العسل سيكون في الغد عنده بالعملة الصعبة، وأنّ الباقي سيودعانه باسمه في البنك. تمنيا لنا ليلة سعيدة وخرجا.

لم تكن ليلة الدُّخلة كما كان العرس، بِسبب الارتباك، تسابق الأحداث، أو الصدفة، سوء الحظ. ما إن اختلى بي كيومة ولمسني وهو ينزع عني فستان الزفاف حتى ارتبكت دون شعور مني، خرجت ريح قوية بصوت مزعج من دُبري، حتى أنني من كثرة الخجل تعثرت في الفستان وسقطت على الأرض وأنا أهرول إلى الحمام لأداري خجلي وأتخلص من الرائحة الكريهة التي عمت المكان، لم يُساعدني زوجي على النهوض بل دخل غرفة النوم، وعندما خرجت من باب الاستحمام وكلي خجل منتظرة في الصالة أن يدعوني إليه كان هو خارج الشقة، لم يكن فيها، بدل أن أتمتع بليلتي الأولى كما تخيلتها قضيتها وأنا أذرف الدموع، حنقت على نفسي اتهمُها بالقصور، لم استحضر كما يجب كل الوصايا التي حرصت أمي أن تحشو رأسي بها بمناسبة الليلة.

-الرجال يحبو المرا النظيفة قبل ما يرقد معاك نظفي فمك نظفي....

فهمتني؟

-ايه يا ما فهمتك.

-كل جمعة تمشي للحمام تنقي.... فهمتني؟

-ايه فهمتك ياما.

-قومي قبلو مكيجي استهلاي ف روحك ما تقعديش كي العبيثة يهرب الراجل.

لم أكن أتصور بأنه سيهرب من الليلة الأولى. منعني كبريائي من الاتصال بخنسة مخافة استهزاء زوجها فقط، انتظرته، عاد بعد ساعة تقريبا، تلك التي مرت عليَ كأنها دهر بحاله.

-ياخي وين مشيت؟ نرومال انت في مخك؟

-تي شيء، في بالي باش تتعطلي تبدلي حوايجك خرجت نعمل سيقارو.

د خلنا إلى غرفة النوم. كانت رائحة الخمر تفوح منه، أرغمت نفسي على تصديقه. لم يهتم بلمسي أو بمداعبتي البتة، ما أن وضع رأسه على المخدة حتى عَلا شخيره كأنه بقرة تحتضر.

زاد توتري، لم أنم كما ينبغي حوالي السادسة صباحا تحسست الفراش وجدته مُبتلاً لِأعرف أنني تبولت. عاد التبول اللاإرادي. ما هذا الحظ؟

حاولت أن أنتزع الغطاء من تحته، قمت بمصارعته، ظن هو أنني أتحرش به، قام وبريق الشهوة يملأ عينيه كأنه شخص آخر غير الذي كان نائماً بجانبي منذ ساعة خلت. بدأ يقبلني وهو يعتذر، لكنني كنت مشغولة بالغطاء، وبتباني المبتل مخافة أن يتحسسه بيديه، حاولت صده بقوة زاد هذا من إصراره.

-ايه حبي عندك حق سامحني ما يسالش تحبي تضربيني اضرب مايسالش والله نحكي بالرسمي.

وهو يمسك كفي ويضعها على خده يشجعني على صفعه، أمام الصدمة وسرعة تغيره والفراش المبتل الذي لم ينتبه إليه، كانت أنفاسه تفوح منها رائحة الخمر، طلب مني أن أتجرد من ملابسي لم يُمهلني، انقض عليَ دون قبلات، دون كلام جميل بسرعة أدخل قضيبه الذي لم أتمتع بدخوله البتة. كل الظروف كانت غير ملائمة للتمتع، لكن زوجي وجدها كذلك.

ماذا أفعل؟ استسلمت له استسلام النعجة للجزار، نال وطره، بدأ يتمعن فيَ وأنا عارية، قبلني بعد ذلك على جبيني.

-هكا نحب مرتي شريفة بنت أصول.

طلبت منه أن يُكمل نومه في الصالة لأنني سأنظف قطرة الدم تلك الممتزجة برائحة البول.

المشكلة أنه أصر على ألا أَمس الغطاء حتى تراه أمه، كل هذا كان كافيا لأتبول على نفس الفراش الأبيض للمرة الثانية وأنا بين اليقظة والنوم، قطرة الشرف وسط رائحة البول واللون المائل إلى الصفرة. ماذا تُجسد يا ترى؟

اقتحمت عليَ حماتي الغرفة حوالي الساعة العاشرة صباحاً. ما كان ابنها غافلاً عنه لم تغفل هي عنه، قبل مجيئها تلقيت توصيات من خنسة بتلفيق رائحة البول تلك كلها لابنها السكران.

بدت غير مصدقة الأمر لم يكن أمامها إلا تصديقي وعلامات الامتعاض بادية على وجهها.

كان اليوم الأول رائعا بكل ما تحمل الكلمة من معنى، رغم ما شاب ليلة الدخلة من مواقف محرجة، لكنني كنت سعيدة وأنا استحضر اعتذاره لي رغبته أن أُعاقبه، قوله أنت شريفة، فرح حماتي بي، تشجيعات خنسة، زغاريد أمي وهي ترى قطرة الدم تلك، حفل الغذاء في شقتي الفاخرة كان رائعا، حضرته كل من أمي وخنسة وأم كيومة. هذا الأخير الذي استيقظ حوالي الواحدة بعد منتصف النهار شاركنا وجبة الغداء بخجل كبير ليخرج بعدها لشرب فنجان قهوة كما قال.

ما غاب عن زوجي من أمر التبول ليلة الدخلة الناشز لم يغب عنه عندما انطلقت الطائرة التي سَتقِلُّنا إلى دولة تايلاندا لِقضاء شهر العسل. ما إن أقلعت الطائرة حتى شعرت بالبلل يغمر ثيابي، غرقت في خجلي ولم أعرف كيف أتصرف، كان هو أول من تفطن.

-صار أنت هكا وأنا نسخايب روحي مالا حالة.

انتبهت بعد ذلك المضيفة التي هدأت من روعي. كنت أنتحب في صمت، تمنيت أن يُفتح لي باب الطائرة وأسبح في الهواء. كانت الأعين المجاورة كلها مُنصبة نحوي، والعرق يتصبب من جبين زوجي.

المضيفة كانت أكثر من رائعة. رافقتني إلى بيت المضيفات نزعت عني كل ثيابي، أدخلتني إلى الحمام، قامت بتنشيفي وأعطتني لباس نوم خاص بالطائرة. عُدت إلى مكاني لأجد فريقاً آخر من المضيفات وهن منهمكات بتنظيف وتجفيف البقعة المبتلة على الكرسي، كان زوجي متوتراً في حين حاول بعض الركاب التخفيف من توتري عن طريق ابتسامات بلهاء لا معنى لها ولم أكن لأتجاوب معها. كل ما كان يهمني نظرة كيومة لي لم يكلمني بتاتا استسلم لأغانيه، وضع سماعات الهاتف على أذنيه واعتبرني جاراً غير مرغوب فيه لا أقل ولا أكثر.

عندما وصلنا إلى مطار دبي أمسكني من يدي كالنعجة، أدخلني إلى متجر للملابس، طلب مني أن أختار ما أشاء وأن أُسرع في نزع لباسي المضحك ذاك.

-اشري حاجة استر بها روحك ومن بعد توا نتفاهموا.

لم أتمتع بلذة الشراء ولم يُخفّف عني كيومة ما كنت فيه، اعتبرني مذنبة لكوني لم أُخبره بحالتي تلك، رغم أنني أقسمت له بأنها حالة قديمة لم تُعاودني منذ زمن بعيد كل هذا ولم يقتنع.

-توا كي باش نطلعو ف الطيارة مرة أخرى باش تعودها ولا كيفاش؟

-ياخي بيدي نعملها نحب نتفضح هكا كي نخاف برشة ولا نتفجع نبول على روحي هاهو في بالك.

-توا في بالي بعد ما حصُلت.

-امانك احمد وليت توا حصُلت.

لم يحصل ما خفت منه عندما أقلعت الطائرة من مطار دبي إلى كوالالمبور عاصمة ماليزيا، لكن ما حدث هناك جعلني أكتشف بشكل

واضح أي كابوس أنا فيه، ما معنى أن تتزوج امرأة بمُدمن مخدرات وأي الأزواج هو زوجي. قبل أن تحط الطائرة في مطار كوالالمبور بدقائق أصدر ربان الطائرة تنبيهات صارمة إلى الركاب، كَون السلطات الماليزية لا تتساهل مع مستهلكي المخدرات على أراضيها، وأن العقوبة تُطبق هناك بشكل صارم على كل من تخول له نفسه خرق هذا القانون بغض النظر عن جنسيته أو كونه عابراً. طلب ربان الطائرة بكل لطف من الركاب توخي الحذر والابتعاد عن كل ما يمكن أن يعيق حريتهم ويفسد إقامتهم أو عطلتهم. كان هذا الإعلان كافيا ليتصبب جبين زوجي عرقاً. ظل هناك ليومين كاملين لم نشارك جملة وتفصيلاً المجموعة برنامج الرحلة الترفيهي، لم يغادر زوجي الفندق، ناهيك عن حالات التشنج المصاحبة بحالة التعرق التي تعتريه. والغضب لأتفه الأسباب. كنا نمارس الجنس فقط كنوع من الطقوس الدينية خالياً تماماً من أي مقدمات عندما يعتليني كأنه يتخلص من شخصيته الحقيقية بل الأكثر أُحس بأنه يقوم بمجهود كبير ليكبح جماح شيء ما لا أدرى ما كنهه، سيتبين لي فيما بعد بشكل واضح. ما إن يتخلص من سائله ويرمي به داخل أحشائي حتى يغادر كمن كان مُجبرا على القيام بطقس ما من باب الواجب لا غير. وأكثر من ذلك، في ذينك اليومين اكتشفت أن الحوار مع زوجي دون أن يتناول مخدرات يكاد يكون مستحيلاً، لم يتوقف بتاتا عن التدخين طوال اليومين وهو يلعن اليوم الذي فكر فيه مجرد زيارة أوعبور بلد كماليزيا يحد من حريات الأفراد بحسب تعبيره.

أكثر من ثلاث علب سجائر في اليوم حتى الأكل يطلب إحضاره إلى الغرفة. لم تكن لكيومة مشكلة سيولة مادية، كان يتصرف كرجل غني ميسور.

عندما أعلمنا مُنظمو الرحلة أننا سنغادر في اتجاه دولة تايلاند صباح الغد، بدأت غُمة زوجي تنقشع لتصبح أكثر وُضوحا وانقشاعاً هناك. حيث

شاركنا في كل البرامج الترفيهية التي نظمتها الوكالة... ولِلَحظة أحسست أو شعرت بالسعادة لمستها في البداية رغم أنني لم أكن أرتوي كما كنت أمني النفس جنسياً.

صُوّري التي ألهبت مشاعر الأصدقاء والصديقات في تونس والحساد وأنا على شواطئ تايلاندا،التسوق في السوق الحرة الماليزية، في مطار دبي كل هذا جعلني ِللَحظة أُحس بأنني إمرأة سعيدة نسبياً. زوجي وجد في تايلاند كل ما يحتاجه رجل مثله، هناك "الماريخوانا" بكل أنواعها مُتاحة، عادت رائحتها تداعب خياشمي وأنا بين أحضانه عارية. بدل أن يلعب بمهبلي، يمصه يجعلني أحس بأنوثتي يجعل بعض صور أو لقطات أفلام الإباحة العالقة في ذهني تجد طريقها إلى التطبيق. ظل زوجي كما هو وفيا لعادته في ممارسة الجنس، لا تعدو ممارسته أن تكون طقساً روتينياً مُملاَ، إلى أن جاء أحمد "ايراتيك" أحمد الآخر وليس زوجي، لينتشل جسدي الجاف مما هو فيه وينقله إلى عوالم اللذة التي كان يبحث عنها. كان زوجي بعد أن يقضي وطره بالطريقة التي يراها مناسبة له وليس لي يقوم بالمقارنة بين جودة "الماريخوانا" في تايلاند ونظيرتها في المغرب وتونس، بعد ذلك في أقل من سنة بت أقوم بنفس المقارنة بين طريقة ممارسته الجنس وطريقة أحمد الآخر بين قضيبه وقضيب الآخر...

-هايل الحشيش نتاعهم المرة الأولى غشوني أما هذا هايل

من الريحة تعرف.

كان يمكن لكل شيء أن يستمر كما هو وأن أَدّعي السعادة والنشوة الكاذبة أُسوة بالكثيرات من النساء اللواتي يُصبن بنفس صدمتي من اليوم الأول من الزواج. كان من الممكن أن أُعَوّد نفسي وحياتي على نسق حياة زوجي وأن أعيش راضية "بالمكتوب" كما يقولون في تونس أو بالنصيب كما هو معروف، لكن زوجي في تلك العطلة اللعينة استفز كل مكامن الشر النائمة بداخلي.

كانت البداية بعد أن زُرنا ذاك الشارع اللعين كان يمكن لشهر الزفت ذاك أن يمر وقد رسم في خيالي انطباعاً إيجابياً أو بعبارة أدق، أكون قد تأثرت بانطباعات الآخرين المليئة بالحسد والغيرة باعتبار ما أنا فيه نعيماً حقيقياً.
شهر عسل لا تناله إلا المحظوظات، زوج شاب غني من أسرة غنية، له صلة قرابة مع الوسامة رغم أنه ليس بالجذاب...
كان كل شيء يصب في اتجاه هذا المنحى، لو لم نَزُر ذاك الشارع اللعين شارع المومسات في تايلاند، حيث يعترضن الرجال في الطريق ولا يهمهن إن كان برفقته امرأة أو لا، يتحرشن به أمام مرافقته، همّت إحداهن في الشارع بأن تمس قضيب زوجي الذي رأيت في عينيه بريق الشهوة الغائب عندما يكون معي، كل حواسه استجابت لنداء المومس، الفرحة المرسومة على شفتيه، الدولار الذي أعطاها إياه...
وعودتنا المبكرة ليلتها إلى الفندق طالباً مني أن نخلد إلى الراحة باعتبار البرنامج كان مزدحماً ومُتعباً، كان يراودني الشك بأنه يفكر في العودة إلى ذاك الشارع، لكنني لم أتصور البتة بأنه سيفعلها. سيتركني أنا زوجته العروس الجميلة النظيفة ليذهب ويضاجع مومساً في الشارع تعرض جسدها لمن هب ودب مقابل المال، وربما تَحمِل أكثر من مرض.
تظاهرت بالنوم. لم ينتظر ليتأكد من ذلك، خرج مباشرة ليعود مع الفجر ورائحة الخمر تفوح من فِيه كالخنزير.
-وين كنت سيد أحمد؟
-اه انت رقدت من هنا الجماعة كلموني مشينا سهرنا، قعدة شراب ماك تعرف.
-لا مشيت عند القحاب، بابا ما نيش بوهالية نتاعك.
كان جسده كله بقع حمراء من أثر العض وأحمر الشفاه، استغربت ذلك، حاولت أن أتصور كيف يمارس معهن الجنس.

-اسمع سلمى لأولو شرط أخرو نور. أنا هكا أنا نحب مرا محترمة نجيب معاها صغار تاخو لي تحب وتسيب ز...ي فهمت توا خليني شايخ نحب نرقد.

كم من الأشياء الجميلة، كم من الأحلام... وُئِدت، ماتت ليلتها. ماتت الثقة في النفس، ماتت الفرحة، مات الحب، مات الاحترام، مات الأمل في حياة كريمة.... لتستيقظ كل الأشياء والأحاسيس الأخرى. هل سأكذب إن قلت إنني ليلتها كرهته؟ ندمت على كل لحظة فكرت فيها أن أحبه، لم أكرهه فحسب. بل كرهت نفسي، ضعفي، كرهت كل الأشياء الجميلة التي حلُمت بها يوما، ليلتها لم أتبول على فراشي ولم أعد أتبول من وقتها.

استيقظت بداخلي أُنثى أخرى، امرأة كانت غائبة كل الغياب عن وعيي وإدراكي. من ليلتها لم أعد في حاجة لأن أكلم خنسة وأحكي لها ما جرى وما حصل كما جرت العادة وأطلب دعمها ومشورتها. ليلتها فهمت بشكل أو بآخر كل مقاصد الدروس السابقة التي حاولت أن تُوصلها وتجعلها مستقرة في ذهني، ليلتها عرفت تأويل كل أحاديثها وفهمت ماذا يعني بالذات مصطلح مجتمع ذكوري متعفن.

كانت تلك أول ليلة أدخن فيها سيجارة مُحشوة بنبات "الماريخوانا" أعادت الهدوء والسكينة إلى نفسي، جعلتني أضحك وأبكي في نفس الوقت، نظرت إلى خيانة زوجي من منظور آخر، بَدا لي مضحكاً مسكيناً مثيراً للشفقة والاشمئزاز.

جعلت أعصابي تسترخي. نامت ليلتها سلمى القديمة أو بعبارة أدق سافرت إلى غير رجعة عبر بوابة "الماريخوانا" لتستيقظ في الغد سلمى أخرى بُعثت من رحم الخيانة والنجاسة.

كيومة الذي كان يبحث عن واجهة من الطهارة لتُغطي الكم الهائل من القذارة التي يعيشها، لم يكن يعرف أن انعكاس النجاسة لا يُوَلِّد إلّا مثيلتها، وأن الصورة التي يحرص على أن يرسمها في مخيلة المجتمع الذي يعيش

فيه مجرد وهم خادع لتخيلاته التي يفرضها نمط النفاق الاجتماعي الذي نعيش فيه ونتنفس مناخاته العفنة.

في الصباح استيقظ زوجي سعيداً، تناهى إليَ صوته من الحمام وهو يُدندن ويُغني علامة السعادة والفرح، الشيء الذي يغيب عندما يضاجعني هناك حلقة مفقودة عليَ أن أبحث عنها، ذاك الصباح تأكدت أن لا شيء يجمعنا غير ورقة حقيرة تؤكد أنني زوجته. كان سعيدا بخيانته، في حين كان الألم يعتصر قلبي، سكاكين استيقظت معي ذلك الصباح تنهش لحمي دون رحمة تفرض وتطرح ألف سؤال. لماذا؟ الجواب على هذا السؤال نوع من التحدي هو أصبح.

أثناء وجبة الفطور تظاهرت بقبول اعتذاره الأمر الذي شجعه على أن يُخرج ما في جعبته:

-اسمع سلمى انت مرتي ما يخصك معايا شيء لي تحبيه تاخذو. تحب سيارة نشري ليك سيارة، تحوص تسافر تعمل لي تحب حاجة وحدة تفكري تخونيني نقتلك، واضح.

لم أفكر في ذلك قبل أن يقول ما قاله، لكنني رأيت علامة الإصرار والتحدي في عينيه كأنه يستبق الأحداث أو ما سيحصل. أعجبتني فكرة الخيانة. لحظتها داعبت بيدي مهبلي وأنا أتخيل من سيعتليه الأول. لم أشعر بالخوف منه، لأنه لا يعيش كما يعيش البشر. كيف لامرأة أن تخاف من رجل يعيش ثلثي يومه بين النوم والسكر والسفر عبر كل ما يصادف طريقه، مخدرات حبوب هلوسة... كان كلامه من باب التهديد الذكوري الأجوف لا غير.

-معناتها انت حلال تخون من الجمعة الأولى علاش ومع شكون مع قح...ة.

-سلمى أمانك ما نحبش نخسرك والله لا نحبها أنا شاريك عملت ليك لي تحب، طلبت صيغة جبت ليك زوج، طلبت عرس عملت ليك عرس نتاع أميرة، طلبت تسكن وحدك شريت ليك شقة في حي راق. اش تحب اخر؟
-نحب نعرف واش عندي حق نحبك ولا لا.
- انت مرتي وأنا راجلك نجيبو صغار ربيهم كيما تحب أنت. أنا ندفع أكهو.
كان الاتفاق واضحاً وضوح الشمس، وكانت خنسة مُحقة في كل شيء.
عُدنا إلى تونس كان في استقبالنا عبشة، شاب تنفر منه العين تأبى النظر والتمعن فيه، فكيف بلقائه وحضنه والسلام عليه. التقى هو وزوجي لقاء الحبيب بحبيبه، دق ناقوس الشك في ذهني، هذا لا يفترق وإياه، يمكن أن يكونا شاذين، ظل هذا الاعتقاد راسخا في ذهني إلى أن محته هلوسته وذكره المتكرر لاسم ريم وهو نائم.
رافقني زوجي عشية اليوم الأول لعودتنا إلى منزلنا كما تقتضي العادة، كنت مُحملة بالهدايا للبعيد والقريب، أميرة أنا في فستاني ومُزينة بأساور من الذهب الأبيض وخاتم زواج من الماس، سيارة فاخرة نظيفة، زوج أنيق وغني، لحية سوداء مهذبة، لم يُطِل البقاء معنا كما تقتضي العادة، إذ يكون اللقاء في هذه المناسبة نسوياً تتساءل فيه النساء بخبث وهن يتغامزن ليعرفن إن كان الرجل قد غزا فعلاً كما يجب الفرج الحليق أم لا، الهدايا والصور التي ظهرت بها تُغني عن أي تعليق، تُسكت الأفواه، تجعل من ينظر إليَ يعتقد أنني أميرة مَكسوة بالذهب. الكل زوجات العم والخالات طوال السهرة وهن يتأملن هداياهن غير مصدقات. لأول مرة في تاريخ العائلة تجلب العروسة هذا الكم من الهدايا لكل الأقارب. كان هذا محور حديث السهرة التي انتهت عند منتصف الليل، حيث كان من المفروض وكما جرت العادة أيضا أن يَمُر الزوج لاصطحاب زوجته العروس باعتباره لم يشبع بعد من اقتحام فرجها الحليق.

غادرت النسوة وهن يتساءلن هذه المرة عن سبب تأخر العريس لتنقذني خنسة من غمزاتهن وتساؤلاتهن الماكرة.

-لا العروسة والعريس باش يباتو بحذانا الليلة نحبو نفرحو بيهم.

تجاوزت الساعة الثانية صباحاً ولم يظهر العريس، حيث فضلت خنسة قضاء الليل معنا، كانت على علم تام بكل ما جرى في تايلاندا، وكنت أنا كلي آذان صاغية لما يجب عليَ فعله.

في الصباح، انتظرنا اتصال أو مجيء السيد كيومة إلى منتصف النهار، وقتها تحول الغضب إلى شك وخوف في أن يكون الرجل أصيب بأذى، اتصلنا به كان الهاتف خارج التغطية. رافقتني خنسة إلى الشقة، دخلت محاولة ألَّا أُحدث ضجيجاً لامتزاج الشك بالخوف، كانت المفاجأة والصدمة التي جعلتني أصرخ.

عبشة نائم في فراشي.

-اوه اش يعمل هذا في فرشي؟

-تدخلت خنسة وجاء العريس بمنشفته من الحمام وهو يطلب الهدوء.

-سكر جلغتك اسكت.

استيقظ عبشة كالأبله وهو لا يدري ماذا يفعل. طلب منه كيومة أن ينتظره في الأسفل قرب السيارة.

-نجم نعرف آش يعمل هذا في فرش اختي سي احمد؟

-من فضلك مدام خنسة خلينا بالقدر هذا موضوع ما يعنيكش تحب تحكي من بعد مع اختك وتعلميها وتقريها كيما العادة أنت حرة أمّا موش قدامي.

-وانت لالة ستنيتك البارح تكلميني نجي نروح بيك كي ماتكلمتش قلت هذي متوحشة دارهم خليها نرمال جا عبشة بات بحذايا فيها حاجة هذي مالا عباد منيكة.

بعد خروجه أضحى الشك في شذوذه أقرب إلى الحقيقة.

لم تمكث خنسة معنا طويلاً، استغربت واستنكرت ردة فعلي لكنها لم تكن تعرف أن أمر كيومة لم يعُد يعنيني، أنا نفسي استغربت ردة فعلي تجاهه وتجاه تصرفاته الغريبة، لم أعد أشعر بشيء، كل الأحاسيس ماتت هناك في تايلاند.

بعد تلك الحادثة، صار كيومة أبعد ما يكون، كل يوم تزداد المسافة والفجوة بيننا. أُمي تُصر على أن أحبل باعتبار هذا هو السبيل التقليدي لحماية مؤسسة الزواج وربط الذكر بالأنثى إلى ما لا نهاية، خنسة أيضا تُشجعني أن أفعل ما عجزت هي عن فعله، لكن كيف السبيل إلى ذلك؟ زوجي يستيقظ تمام الساعة الثانية بعد الزوال، لا يكلمني لا بسلام ولا تحية، يتجه مباشرة إلى الحمام وهو يطلب مني انتقاء الملابس التي سيرتديها عندما يخرج، والويل لي ثم الويل إن أخطأت فهم ما يريد، سأسمع عندها أجمل عبارات الغزل والحب....

-بهيمة يا خي ماتفهمش لتو ماتعرفش...؟

فهو يحرص على ارتداء الجديد في عالم الموضة، ومن أرقى الماركات العالمية، فضلاً عن الأساور والحلي والعطور. لا يعود إلا مع منتصف الليل أو بعده بساعة. في الأيام الأولى كنت أنتظره بعد أن أُحضّر طاولة العشاء يتظاهر بتناول وجبة العشاء معي مجاملة لا غير، بعد ذلك يأوي إلى فراشه. قليلة هي الأيام التي يتحرش فيها بي، بمعدل مرة كل أسبوعين، يقضي وطره المقدس وينسحب.

بعد أن استمر النظام على هذه الحال لأكثر من شهرين دون تغيير، نظام حياة زوجي قارّ لا يتغير حفظته عن ظهر قلب، ظل الاستثناء الوحيد الذي لم أفك شيفرته في تلك الفترة هما اليومان في الشهر. يعود مع الفجر على غير عادته في كامل صحوه برفقة حقيبة الظهر الخفيفة التي تكون مليئة بالنقود. في هذين اليومين يطلب مني أن أُوقظه في الساعة الحادية عشرة صباحا. يستحم يحمل حقيبته بعد أن يختلي بها لأكثر من ساعة ليتجه

مباشرة إلى الوكالة البنكية. عرفت فيما بعد أنه في هذين اليومين يكون حاضراً في إحدى تظاهرات موسيقى الحبوب المهلوسة، حيث تزدهر تجارته التي لم يصرح لي لا من بعيد ولا من قريب بممارسته لها. أحياناً تكون هذه التظاهرات في مُدن أخرى قريبة، الحمامات، سوسة .... بعد مرور أكثر من ثلاثة أشهر على هذه الحالة وبعد أن أصبحت خبيرة في اختلاس النقود من محفظته، حقيبته، جيوبه... كل يوم خمسون ديناراً وعندما يعود من تلك الحفلات مئة دينار تجرأت مرة فضاعفت المبلغ تناهى لي صوته وهو مُختل بحقيبته:

-يكون عبشة يسرق فيَ هذاك لي مازال.

-شبيك؟

-لقيت مائة وخمسين ولا مائتين دينار ناقصة. بالكشي طاحو عبشة مايعملهاش.

كان هذا كافيا لأعرف حدود مبالغ الاختلاس التي لن تثير شكه وحفيظته، ناهيك عن مبلغ الألف دينار التي يسلمها لي آخر كل شهر ثمن فاتورتي الغاز والكهرباء والماء ومصروف المنزل لم يكن بخيلا معي.

-كان تحب حاجة قول الفلوس موجودة هنيني بركة ما نحبش نجي نلقى فاتورة ماهيش خالصة.

بين عشية وضحاها بِتُّ أتقاضى ثلاثة أضعاف مُرتب خنسة. أنستني لذة جمع المال مطالب الجسد والفرج لفترة، لتستيقظ بعد ذلك كبركان هائج يحتاج لمن يخمده بأسرع وقت ممكن، شجعتني الثقة الزائدة التي اكتسبتها باعتبار زوجي شخص يسهل خِداعه، على البحث عن السبيل لإخماد رغبة الجسد المشتعلة.

-تو انت ترجع نص الليل. اش نعمل؟ نقلق راهو.

-عادي امشي عند أمك، عند أمي تصرفي.

أحيانا أطلب منه أن يوصلني إلى منزلنا وأحيانا أخرى أستقل سيارة أجرة.

لو لم يكن يردد اسمها أكثر من مرة، هل كانت الأمور ستأخذ ذاك المجرى؟ لا أنكر، بأنني بِت أفكر كل يوم في كيفية تلبية رغبة الجسد بطريقة آمنة لا تثير الشكوك.

أصبح إخماد صوت الرغبة هو الهاجس الذي يقُض مضجعي. فتاة لم تتجاوز الثالثة والعشرين، ذات جمال تتغذى بشكل جيد، تشاهد كل يوم فيلم إباحي، زوجها بارد جنسياً، فيمَ ستفكر ليلا نهارا يا ترى؟ لم أكن أفكر إلّا في الكيفية التي تجنبني العار والفضيحة، وفي المقابل تسكت رغبات الجسد الملحة.

كامرأة كان ذكره لاسم امرأة أخرى أعرفها كافياً ليُسيل لعابي وأُصر على معرفة التفاصيل. بدأ الشك يعصر قلبي، لربما يفكران في الطلاق ليرتبطا مع بعضهما، هو يردد اسمها في أغلب الليالي.

هي شبه منفصلة عن زوجها، هذا ما قالته لي أمي التي زارت أم ايراتيك لتستطلع أخبار العدو ريم. تخيلت أنني بدأت أمسك بخيوط اللعبة الغائبة، في حين كنت أمشي وأرسم طريق الخيانة دون وعي وتدبير مني. لم أكن أفكر وحدي، كالعادة كانت معي خنسة، لكن تفكيرها خانها هذه المرة بعد أن أكد أخي حسونة أن شكنا في كون كيومة شاذ هو شك مثير للشفقة وأن علاقته بعبشة لا يمكن أن نفهمها، طالباً منا أن ننزع هذا الوسواس المَرضي على حد تعبيره. لم يكن من بد أمامنا إلّا اعتبار علاقة كيومة وريم مازالت قائمة، زاد من شكوكنا أن الأخيرة لم يعد لها وجود على جميع صفحات التواصل الاجتماعي، وهي التي كانت إلى عهد قريب تشارك الجميع كل تفاصيل حياتها، أو ما تريد من الناس أن يعرفوه، هي من شاركت الجميع رحلة شهر عسلها إلى تركيا مع تعليقات أكثر من مستفزة.

- في شهر العسل مع زوجي حبيبي...

لم تكتف بذلك بل تجرأت ونشرت مقطع فيديو صغير تُقبل فيه احمد ايراتيك على شفتيه وهما على ضفاف البوسفور في تركيا. لا أنكربأنها نالت مني وحسدتها، بل وقتها آمنت أن الحب هو من يخلق السعادة وليس المال، أنا التي خانها زوجها في الأسبوع الأول من شهر الزفت.

شكل غياب ريم المفاجئ عن جميع صفحات التواصل الاجتماعي مبرراً جديدا يدعم شكوكي.

-اللفعة هذيك ما غابت إلّا تحضر في مصيبة.

-والله لا يجد عليَ تحب ايراتيك ملخر هي حاجتها بكيومة.

-وزيد سي شباب يهتري بها في الليل.

في هذه الفترة والشك يعصف بي من كل الجوانب، وجدت على صفحتي الزرقاء الفاسبوك رسالة طلب صداقة من أحمد زوج ريم غريمتي أو هكذا كنت أتصورها.

لم أتردد، كنت وحيدة، قبلت الدعوة لأجد صاحبها على الطرف الآخر متلهفا لفتح حوار معي.

-أهلا سلمى، عرفتني؟ جاركم أحمد صاحب حسونة.

-وراجل ريم.

- ايه وراجل ريم لتو أما غدوة ما ظهر لي.

. تصنعت ما تتصنعه أغلب النساء.

-اللطف شبيكم مازلتو عرسان، فيسع شبعت منها؟

-سلمى تحب الصراحة ولا تحب نعديو الليل نكذبو على بعضيتنا.

بقبولي فتح الحوار والاتصال مع أحمد "ايراتيك" هل كنت في رحلة البحث عن الحقيقة أم في رحلة بحث عن الخطيئة؟ هذه الأخيرة التي سَتنجرُّ عنها أمور لم أكن يوماً من الأيام أفكر حتى مجرد التفكير في أنني سأفعلها. هل هي دروب الحياة التي تقودنا دون إرادة منا ووعي إلى حيث لا نعرف؟ أم أنها مجرد أعذار نتدثر بها لنواري ضعفنا أمام الشهوة

واللذة؟ هل نحن نعيش فقط لتلبية نداء الجسد وصراخه؟ نَتحدّى بذلك كل تحذيرات الروح والضمير نُدمن رغبات الجسد إلى حد العبادة هذا ما حصل بعد تلك المحادثة.

أحمد ايراتيك

يا قبلةُ الحبِ يا من جئتُ أنشدها شعراً لعل الهوى يشفي جراحاتي
ذوت روحي وهي يابسة ماتت أغاني الهوى ماتت حكاياتي
ماتت بمحراب عينيك ابتهالاتي واستسلمت لرياح الياس راياتي

أصبحت على قناعة شبه تامة بأننا أمة عليلة مُصابة بأمراض عدة، أولها وأهمها انفصام في الشخصية. حالتي هي انعكاس لحالات عِدة، أصبحنا بارعين جداً في خلق وصُنع السعادة على صفحات التواصل الاجتماعي. صنعنا هناك المدينة الفاضلة التي كنا نحلم بتأسيسها على الأرض، لا يهم، المهم أن أحلامنا وجدت أخيراً طريقها إلى التحقيق.

في العالم الافتراضي نعيش الحب الحقيقي، صُوّرنا ونحن نتبادل النظرات، نُعبر لبعضنا عن هذا الحب العظيم ونُشهد على ذلك الجمع الغفير الذي يتفرج ويتابع قصصنا عبر العالم الافتراضي، هناك فقط نحن مُتدينون. عبارات التدين والأخلاق الحميدة التي نتدثر بها تُخفي شذوذنا، كبتنا الجنسي...

في العالم الافتراضي نحن أُناس متفتحون نقبل الرأي والرأي الآخر، نُشارك في حوارات متعددة عبر انضمامنا إلى مجموعات منسوبة إلى المُثقفين، لا ننكر أننا في هذا العالم نتعارك أيضاً يسب ويهدد بعضنا بعضاً. لا ننكر، لكن كل ذلك يتم وفق ضوابط أبعد ما تكون عن الواقع المعيش، لم نستطع إلى حد الآن أن نترجم أفكارنا أو حياتنا الافتراضية إلى واقع، حتى ثورات ما يسمى بالربيع العربي انطلقت حُلماً افتراضياً

على شبكات التواصل الاجتماعي، وعندما رأيناها على الأرض كانت مولوداً مشوهاً قبيحاً ملوثاً بالدم لا يشبه البتة ذلك الربيع الذي كنا نحلم به. لم نعرف كيف نترجم كل ذاك الكم الهائل من الأحلام والرغبات المكبوتة منذ آلاف السنين إلى واقع.

علاقتي بريم أو علاقتي بالعالم بصفة عامة، كانت أجمل عندما كانت افتراضية، حتى الجنس الافتراضي كان أكثر مُتعة من الجنس الحقيقي.

ولجت إلى سِلك الوظيفة فجأة دون سابق إنذار، عندما يئست ظننت أن العالم قد أدار لي ظهره، كانت ريم ستهجرني لو لم أتوظف. علاقتي بها في الأيام الأخيرة قبل الوظيفة كانت أكثر من متوترة، لا ترُد على رسائلي الكثيرة أو بالأحرى على توسلاتي، تجد دائماً أكثر من عذر لعدم مقابلتي، لكنني توظفت فجأة، صِرت أستاذاً للمادة التي عشقت بُحورها، أستاذاً للغة العربية ومكان التعيين مدينة طبرقة الجميلة. في ذاك الصباح عندما قرأت رسالة نجاحي في امتحانات الكفاءة المهنية، تغير كل شيء في حياتي دون سابق إنذار، تغيرت معاملة الأهل والأحباب والأصدقاء كما أصبحت ريم أكثر قربا من ذي قبل. خلقت لها أكثر من عذر بل تقبلت كل الأعذار التي سردتها أمامي.

-اعتبرني اختك، بابا وأمي كانوا يظغطوا عليَ، توا معادش حبيبي أستاذ حتى قدام العباد نفتخر بحبي أنا.

لم أكن أعرف كيف أتصرف، كالمذبوح كنت أرقص. عائلتي الصغيرة أصبحت فجأة مستعدة للعطاء، للتضحية أكثر من ذي قبل، أبي كاد أن يُغمى عليه من هول الفرحة.

آه ثم آه، نحن معشر الفقراء، أشياء بسيطة والتي هي حق من حقوقنا يُحدث فينا تحقيقها هذا الزلزال.

لم تتحقق أحلامي بتوظيفي كما كنت أُمني النفس. حصلت على حق أستحقه منذ زمن طويل، بل أستحق معه تعويضاً محترماً عن سنوات

الضياع والحرمان الثلاث تلك التي أَثّرت في نفسيتي، حفرت أخاديد من جراح وجعلتني أقرب إلى المريض النفسي.

أصرت ريم بأن أتقدم لخطبتها بشكل رسمي حتى قبل أن أُباشر عملي.

في حفلة الخطوبة تلك وجدت نفسي مضطرا لمناقشة تفاصيل كانت غائبة تماماً عن ذهني أبرزها موعد الزواج الذي تَقرر يومها في الصيف المُقبل.

بعد أول عام دراسي أباشر فيه تزوجت، تكفل أبوها بكل الأشياء التي عجزت عن توفيرها، تغيرت نظرة عائلة ريم وموقفها مِني مئة وثمانون درجة، اختفى تجاهل أمها التي كانت لا تُطيق سماع اسمي في السابق.

أصبحت بين عشية وضُحاها تناديني بابنها، أبوها أبدى مرونة وتفهماً يعجز اللسان عن وصفهما.

-اسمع ولدي احنا شارين راجل لي ثقلت عليك خفافت علينا.

أمدني برزمة فيها خمسة آلاف دينار سلفة إلى حين ميسرة كما قال، وهو يشيد بالشباب الذين بدأوا حياتهم من الصفر أمثاله واستطاعوا تحقيق كل أحلامهم فيما بعد.

أهي الصدفة التي جعلت عُرسي يتزامن مع عرس كيومة أم أن ريم هي من تعمدت ذلك، لم يكن هناك وجه مقارنة بين حفل عرسي وحفل عرسه، الاختلاف كان واضحاً، عرس فخم بكل ما تحمل الكلمة من معنى وآخر أكثر من متواضع. شيء واحد لم تستطع ريم وقتها الاستغناء عنه، أعفتني من شراء الصيغة الذهبية الحقيقية واكتفت بالتقاط مجموعة من الصور وهي ترتدي صيغة بيضاء وأخرى صفراء من الذهب المزور، مقابل شهر عسل في تركيا.

كان لها ما أرادت في شهر العسل ذاك. لم نتمتع كنا مشغولين بتصنع الابتسامات والسعادة ونحن نلتقط الصور في الأماكن المعروفة في تركيا، كنا حريصين على أن يعرف الناس المتفرجون على صفحات التواصل

الاجتماعي حجم السعادة التي نعيشها، القبلات، الورود، عشاء في مطعم على ضفاف البوسفور... كل ذلك لم يستطع أن يُخفي الكم الهائل من التعاسة التي شعرنا بها، أحسست بريم مذبوحة "ترقص من شدة الذبح" لا غير، لم تستطع أن تنسى كيومة. نعم كنت مجرد بديل ربما لإثارة الغيرة أو شيء من هذا القبيل. بعد الوظيفة تطور دوري... حقيقة اكتشفتها بعد الزواج انقشعت الغمامة، أن تعيش مع شخص ما اليوم كله، سيختفي القناع بفعل القوة.

حاولت أن أُقنع نفسي بغير ذلك باعتبار أنه من الصعب في الوقت الحاضر بل من المستحيل أن يرتبط شاب بفتاة لا ماضي لها، لكنّ ماضي زوجتي يلاحقها، لم تتخلص منه بتاتا.

بعد أن اضطررنا لنقضي معظم الوقت مع بعضنا، جمعنا منزل واحد، اكتشفنا معاً الحقيقة المُرة، بَدا الشك يتسرب إليَ شلالاً منذ اليوم الأول. كل كلمات الحب التي كانت تكتبها زوجتي على صفحة الفايسبوك قبل الزواج لم تَسْعَ لأن تسمعها لي وأنا زوجها، السعادة التي ظهرنا مُتدثرين بغطائها أمام الآخرين لم نعرف السبيل إلى ترجمتها على أرض الواقع، زد على ذلك العذاب الجنسي الذي اكتشفته معها وكان غائباً عني فيما سبق. أحسست أنها تتصنع المتعة لا غير لينقلب هذا الإحساس إلى يقين أنها لا تتمتع البتة.

كنت في البداية أتحرج من مناقشة الأمر معها، لكن مع الأيام زاد نفورها مني بل باتت الممارسة واجباً ثقيلاً عليها، تُسلم لي نفسها دون أدنى إحساس أو رغبة، يكاد عنصر المشاركة حتى من باب التظاهر كما في السابق يكون غائباً.

من هنا بدأ الشك يتسرب وبدأ الماضي يعود. صِرت أشك من مجرد انزوائها في ركن وهي تتصفح بشغف الرسائل والتعليقات على الصفحة الزرقاء، تضحك في أحيان كثيرة ملء شدقيها. ترددت كثيرا في اقتحام

خصوصيتها، لكن لم أستطع المقاومة كاد الشك أن يقتلني، وكانت نقطة البداية لعهد جديد أو بداية النهاية عندما اكتشفت اسم كيومة على رأس قائمة الأشخاص الذين تزور زوجتي صفحتهم.

-تنجم تفسر لي، اش معناها؟

-ماعندكش حق تمس بورتابلي.

لم أعرف كيف صفعتها كانت كل أطرافي ترتعد، الزبد يخرج من فمي، كسرت الهاتف، لعنت أباها، أمها، كلّ عائلتها، منذ ذلك اليوم صارت حياتنا كلها مشاحنات وشكوكاً، الغريب أننا لم نتحاور كما يجب، لم نناقش الأمر من أي جانب، بل بالعكس ظلت ريم رافضة إعطائي أي تفسير كلما سألتها عن الأمر. أصبح لشكوكي ما يُبررها، كل هذا جعلني أرفض جل طلبات زوجتي مهما كانت تافهة ومشروعة.

-في العيد باش نمشي نعدي جمعة بحذا دارنا

-لا استني نشد عطلة نمشي انا وياك نباتو ليلة ونروحو

-لا نحب نعدي جمعة وحدي.

-لا عاد قلي تحبي تتسرمحي لالة ولا توحشت حبيب القلب تلقاكم شيخين تشاطو مع بعض كل ليلة....

تزامن إعلان ريم المفاجئ الخروج من العالم الافتراضي بشكل نهائي مع دخول سلمى زوجة كيومة حياتي الافتراضية. انسقت وراءها في لحظة وجيزة وأصبحت أسيراً لها، ربما كنت أسيرا لرغبة الانتقام من كيومة، هكذا بِتُّ أقنع نفسي. اعتبرته المسؤول عن العذاب الذي أعيشه، لم أمتلك حرية الاختيار لم أكن أعرف طبيعة العلاقة بين كيومة وريم، لم أفكر في ذلك قط من قبل كان وجودها في حياتي الكالحة وقتها يكفي.

لكنني أُسوة بإخوتي العرب، بدل أن اتهم نفسي وأبحث عن مكامن الخلل فيها وفي طريقة تفكيري، بَرأتها، اعتبرت نفسي ضحية، وحَمّلت كيومة مسؤولية ما أنا فيه. هل فعلاً كنت أبحث عن الحقيقة كما أوهمت نفسي؟ أم عن النشوة واللذة؟ عن شيء آخر، الانتقام ربّما...

لم أكن أتخيل للحظة أن سلمى ستتجاوب معي وسيحصل ما حصل، وهي التي كانت تُعْرِض عني عندما كانت صبية بكبرياء لا تُخطئه الأحاسيس.

الزمن هو القادر، هو الساحر الوحيد الذي يُبدّل المواقف ويُغير الأحاسيس، المشاعر، المواقف. لم تتجاوب سلمى معي فقط، بل وجدت أن ما يقُض مضجعي يقُض مضجعها أيضاً، إذا كان كيومة بالنسبة إليّ من دمّر حياتي الزوجية فهي كانت تعتبر ريم كذلك.

اكتشفنا منذ المحادثة الثانية أننا كنا نبحث عن شيء آخر غير الحقيقة التي تذرعنا بربط التواصل بها. لم أكن لا أنا ولا هي نملك دليل إدانة واحد على تورط كل من ريم وكيومة في علاقة خيانة، ربما كنا نبحث عن شيء آخر. بعد ثلاث محادثات لم نجد ما نقوله بخصوص ريم وكيومة ليتخذ الحوار مسارا آخر فتح لي باباً من أبواب اللذة، الشك، المتعة، النجاسة، الخيانة...

هل كان كيومة سبب تعاستي كما تصورت سابقاً، أم أنني ما كنت لأعرف طريق اللذة والمتعة لولا وجوده في حياتي. ريم المجروحة بكل

مساوئها، هي من خَفّف عني وطأة الثلاث سنين من البطالة والكبت... لو لم تكن هي في حياتي وقتها بمشاكلها، بقبلاتها، بجسدها، لكانت حياتي جحيماً لا يُطاق. هي من أمدني بحبل النجاة، بروح المقاومة، من زرعت الثقة في نفسي بقصد أو بدونه هي من جعلتني أنظر إلى كيومة وأمثاله كند بل أعلى مرتبة.

-واحد جاهل يتفوق عليك فيق راك أستاذ عندك دبلوم فز دبر على خدمة.

والآن زوجة كيومة تفتح لي ذراعيها، تمد لي يديها، هل قدري هو كيومة أم أنا قدره؟

-تعرفي سلمى إني كنت معجب بيك برشة من قبل.

-هههههه نعرف، مش وحدك الكل كان معجب بي.

-وعلاش ما تجاوبتش معايا؟

-هههههه انت ما دقيت واحنا ما ردينا.

-وإذا دقيت توا.

-أووووه ياراجل متنساش، أنا معرسة.

-أمانك سلمى حلي الكام نحب نشوفك.

لم تكن امرأة عادية، ملاكً هي كانت ليلتها، أو هكذا تخيلتها أنا المحروم المكبوت على الدوام، بلباسها الأبيض الشفاف، جسم أبيض غض، شعر طويل يغطي أغلب ظهرها.

كيف لكيومة أن يترك كل هذا الجمال وحيداً ويفضل قضاء أوقات السهرة مع الصعاليك أمثال عبشة... يا له من أحمق.

-بردت، شفتني توا، نسكر الكام.

-لا لا لا أمانك.

-مازلت مزيانة ولا تبدلت؟

-مزيانة أنت ملكة أميرة حورية، جمال خارق صاروخ آه لو خذيتك والله لا نبعد عليك دقيقة.

كانت تُغير وضعية جلوسها أكثر من مرة لِتُظهر مفاتنها أكثر، لم أعد أستطيع التحمل، فجأة كأنه رَكبِني عفريت، صِرت أنظم فيها قصائد شعر طالباً منها أن تُريني المزيد من مفاتنها، الغريب أنها استجابت بسرعة البرق من كان ينتظر بفارغ الصبر فرصة مماثلة.

كأنني لم أتذوق من قبل لذة الانتشاء بالجنس الافتراضي، كانت لذة فريدة من نوعها، تجردت سلمى من كل ملابسها، بما فيها الداخلية رقصت على أنغام "زي الهوى" بشعرها الطويل الذي يغطى كل ظهرها، كانت لذة الاستمناء تلك لا تعادلها لذة، للجسد الجميل سلطة ربما لم يُعبر عنها إلا الشعراء، كيف لرجل مثل كيومة أن يدع امرأة كالتي عنده تشعر بالجوع الجنسي، بالرغبة، كانت عطشانة، تخلصت من خجلها دفعة واحدة وهي تطلب مني أَن أُقرب الكاميرا أكثر لترى بوضوح تام قضيبي، وهي تداعب مهبلها. تسألني سؤال العطشى لو كنت بجانبها، ما عساي كنت سأفعل؟ كيف سأعتليها؟ ما هو الوضع المفضل عندي؟ وخصوصاً مدى صلابة قضيبي؟ وتحثني على قول المزيد واستعمال كل العبارات الخليعة...

كانت علاقتي بكيومة في الظاهر علاقة صداقة، أما في الباطن فيشوبها توتر كبير، لم أتخلص البتة من إحساس النقص تُجاهه من جميع النواحي وخصوصاً إحساسي بأنه هو من تخلى عن ريم لي. لم تكن ريم ومثيلاتها في نظرنا نحن من تربى على الفكر الذكوري وتَجرّعه، إلّا مجرد متاع كان هو السباق إلى استعماله، بذلك يكون له قدم السبق عليَ، هكذا بِتنا نحن الذكور وما زلنا نقيس قوة فحولتنا ورجولتنا بعدد الفروج التي غزوناها.

في صباح اليوم الذي غزوت فيه قلعة كيومة افتراضياً، دخلت إلى مخدعه، ضاجعت زوجته، أحسست بزهو لا مثيل له، أحسست وقتها أننا

تعادلنا، بل أنا من انتصر في الأخير. منحني هذا الإحساس الطمأنينة يومها أبديت استعداداً كبيراً لمسامحة زوجتي ريم، وطلبت منها في الصباح نسيان الماضي وبدء صفحة جديدة، أعجبني خضوعها الأخير وتنازلها عن كل شيء من أجل الحفاظ على علاقتنا الزوجية، أو هكذا اعتقدت بغباء منقطع النظير.

ريم في ذاك الصباح الجميل وأنا أُعطيها محاضرة في التسامح وأَمُنُّ عليها به، أعلنت أنها توصلت إلى قرار ترك المنزل وبأنها تُبرئني من كل شيء، ستترك المنزل وهي تحمل في أحشائها ابني.

اعتقدت للوهلة الأولى أنه مجرد تهديد ومناورة، قرّرت أن أتعامل معه بصرامة لأحافظ على نقاط السبق التي حققتها فقط في مخيلتي العليلة.

-كيما تحب أما إلا خرجت صعيب برشة باش نرجعو كيما كنا.

خرجت إلى المعهد مُنشرح الصدر لم أُعر تهديداتها أدنى اهتمام، فهي لم تفعلها عندما تشاجرنا أكثر من مرة، لم تفعلها عندما امتدت يدي إليها بالصفع والركل، عندما حرمتها من الخروج من المنزل لأي غرض كان إلا بإذني أو معي. لن تفعلها مناورة نساء فاشلة لم يخطر ببالي بتاتا أن ريماً ستفعلها.

خرجت من المعهد منشرح الصدر كما دخلت إليه، ما زالت صور سلمى وكلماتها وهي عارية تُداعب مُخيلتي، تُسيطر عليها، تبعث في نفسي الزهو والانشراح ما زلت أستحضر الصور والكلمات وأتلذذ بها لم تنته اللذة بعد، بدل الذهاب إلى المنزل وكنوع من المناورة قرّرت أن أتناول وجبة الغداء في أحد مطاعم مدينة طبرقة، حيث استسلمت لجمالية الذكريات التي بِت انسجها ابتداء من ليلة أمس.

كنت أُخطط أيضاً لفرض مزيد من السطوة على ريم لاعتبار بسيط، فأن يستمر الخلاف بيننا لأيام أخرى سيُتيح لي النوم وحيدا في بيت الصالة، مما يعني حرية التواصل مع سلمى الملاك الذي اقتحم حياتي فجأة، أعادت

إلى حياتي توازنها المفقود، لن أحس بالإذلال هذه المرة عندما أقابل كيومة، لن أخجل من تعليقات الأصدقاء التي تناهت ونقلها لي بعض أصدقاء السوء

-انت منيك تعرس بوحدة كان يعرفها صاحبك.

بِت الآن أنا من يقتحم مخدع نومه.

عُدت إلى المنزل حوالي الساعة الرابعة بعد الزوال لأجده فارغاً. رسالة صغيرة محطوطة بعناية فوق سرير غرفة النوم.

من المعذبة والتائهة ريم

حظاً سعيداً.

أحمد. أعتذر عن كل إساءة سببتها لك دون قصد أو بقصد مني أرجوك لا تحاول الاتصال بي مجدداً، فكرت أنه من الأحسن أن نُصلح خطأ زواجنا مُبكراً قبل أن يتفاقم إلى أشياء أخرى مجهولة ربما تكون أصعب.

شهر كامل وأنا أفكر لم أهتدِ إلى طريقة يُمكن أن تجعل من علاقتنا علاقة ناجحة لأنها لم تُبن على أُسس صحيحة، كُنتَ مُحقاً في أشياء كثيرة، ربما فعلاً كُنتُ أَهرب من أشياء أخرى، كنت أهرب من نفسي من ضعفي من نظرة المجتمع لي اعتقدت للحظة بأنك الملاذ الآمن الذي يمكن أن أحتمي به، أن أشعر بالأمان لأنني كنت أبحث عنه، ونسيت أنك أيضاً كنت تهرب من أشياء أخرى، وكنت تنتظر مني أشياء لم أفلح في أن أُحققها لك. فعلاً أنا آسفة، لكن تذكر أنني غادرت وأنا أحمل في أحشائي رابطاً سيربطنا مع بعض في رحلة الحياة هذه، فأرجوك وأتمنى أن يكون هذا الرابط قويّاً بما فيه الكفاية ليجعلنا ننسى خلافاتنا وأن نتعامل بتحضر.

أقول هذا لأنني خائفة والرعب يقتلني، فأنا هربت لأنني أريد أن أُوفر للجنين الذي في أحشائي حياة كريمة، أنا لم أقدر أن أُعطيك ما تريد، صدقني حاولت، لكنني لم أقدر، لم أقدر على النسيان كما أنك لم تقدر على ذلك.

أحمد. أنا لن أطلب شيئاً لنفسي، لن أُقاضيك في المحاكم، لن أطلب نفقة المتعة، لأنني تمتعت أيضاً، أريد منك شيئاً واحدا فقط، أن تكون أباً جيداً عجزنا أنا وأنت أن نكون زوجين جيدين لظروف ربما خارجة عن إرادتنا نحن الاثنين، فلننجح أرجوك في أن نكون أبوين جيدين.

شكراً على كل الأيام والساعات الجميلة التي قضيناها معاً، كنت بحاجة في وقتي ذاك العصيب إلى رجل مثلك يُنسيني خيباتي ويُخففها عني، وربما كنت أنت أيضا في حاجة في ذاك الوقت إلى فتاة مثلي.

الآن صدقني لم نعد نحتاج بعضنا، ولم نعد قادرين على تقديم الأفضل لكلينا، لذا أنا أُغادر حياتك بملء إرادتي.

عندما دخلت حياتك لم أكن أُفكر ولم أكن قادرة على التفكير، كنت مذبوحة مجروحة عمياء، لكنني الآن فكرت جيداً وأنا مقتنعة تمام الاقتناع بما أفعله، ليتني اكتسبت طريقة تفكيري هذه من قبل، بل ليت كان هناك من يُعلمنا كيف نفكر بعقولنا لا بعواطفنا، وإن صح التعبير لا بغرائزنا، أتمنى لك حظاً سعيداً. إلى اللقاء لأننا سنلتقي أكيد، لكن أرجوك عندما نلتقي نتحاور فيما يخص مستقبل ابننا وحياته إن كتبت له الحياة.

شكرا تحياتي، ريم

هذه الرسالة كان مضمونهاً غائبا في نقاشاتنا وحواراتنا السابقة، لا أنكر أنني تأثرت أيما تأثر بما كتبته ريم، فجأة استيقظت كل الذكريات والمواقف الجميلة لتزيح بالضربة القاضية كل رواسب القلب الراكدة

والأحقاد، حاولت وقتها صادقاً نادماً أن اتصل بزوجتي مباشرة بعد قراءة الرسالة.

كان خط هاتفها مغلقا، لأسبوع كامل وأنا أجرب الاتصال بها دون جدوى. أبواها وعداني خيراً وطلبا مني التريث وعدم الحضور إلى بيتهما في الوقت الراهن، وبأنهما سيفعلان كل ما بوسعهما لإعادة العلاقة إلى مجراها الطبيعي، لكنهما لم يفلحا في جعلها تُكلمني أو تهاتفني على الأقل.

في الليلة الأولى، الأصعب على الاطلاق، لم تغب ريم وحدها، بل حتى سلمى كانت غائبة. لم يكن الوقت مناسباً للتفكير فيها لكنني وجدت نفسي رغماً عني أفكر فيها وأَبْغي وِصالها، اعتقدت جازماً أنها تعمدت فِعل ذلك، كل الرسائل التي تركتها على الخاص لم تنفع في جعلها تفتح الحوار معي، لعلها تريد أن تُمثل دور النادمة على ما جرى ليلة أمس، ندمت أشد الندم أنني لم أُوثق العملية ولم أُسجلها، ووعدت بأنني سأفعل المرة القادمة إن كانت هناك مرة قادمة. قبل أن أخلد للنوم المستعصي ليلتها على الجفون، بعد منتصف الليل تركت لها رسالة.

"سلمى أتمنى أن تكوني بخير ريم تركت المنزل وقررت الطلاق ومصرة عليه. وأغلقت الهاتف"

كنت شبه متأكد أن خبراً مثل هذا سيجعلها تتصل، لمعرفتي ويقيني أن ما يهم سلمى بالأساس هو تتبع أخبار ريم أكثر من أي شيء آخر. وكان شكي في محله، في الصباح وجدت أكثر من رسالة من سلمى، تلومني فيها على عدم صبري وكيف أنني أغلقت هاتفي بعد منتصف الليل طالبة مني أن أُبقي هاتفي في وضع استخدام لأنها ستتصل بي مباشرة بعد خروج كيومة من المنزل، ولأنني أعرف أن الأخير لا يُغادر إلّا بعد منتصف النهار بساعة أو ساعتين شأنه في ذلك شان عِلية القوم في بلد مثل بلدي.

شعرت بالخواء باللاجدوى، كرهت نفسي التي حدثني ألف مرة بأن أتجاهل نصائح صهري وأن ألحق بزوجتي وأُعيدها إلى المنزل، أن أفتح صفحة جديدة، في تلك اللحظة كان كل ذلك قابلا للتحقيق لو لم يُبدل اتصال سلمى كل مجريات حياتي.

يومها قررت أن أتمتع بإجازة مرضية لمدة أسبوع، أعود فيها إلى منزلنا أصطحب معي أبي وأمي إلى منزل ريم لإعادة المياه إلى مجاريها كان هذا هو اقتراح حماتي والذي استحسنه كل من أبي وأمي.

في الطريق إلى مدينة تونس، بعد أن احتسيت ثماني زجاجات جعة "سلتيا" وأنا أفكر في ما أنا فيه. اتصلت سلمى:

-ألو وينك؟

-انا جاي لتونس.

-بالرسمي؟

-علاش؟

-آش قولك تجيني الليلة للدار.

ما إن سمعت مقترحها ذاك حتى استيقظت كل حواسي. امتزجت فيها الرغبة الشديدة بالخوف بأشياء أخرى لم أُحدد طبيعتها، ماذا تريد؟ هل هو فخ للإيقاع بي؟ أم شيء آخر، لاحظت ترددي

-شبيك. خايف؟

-لا لا لا.

-توا أنا لي مرا ماخفتش، خايف أنت ماهوش باش يبات أحمد ف الدار الليلة وزادة نسكن في عمارة في حي النصر ما يعرفني حد والجيران هنا كل واحد لاهي في نوارو.

-وقتاش تحبني نجي؟

-مع التسعة نتاع الليل قبل ما تجي كلمني.

-باهي.

بوادر حالة السكر التي كانت تنتابني وكنت قد عقدت العزم على أن أُعَمّقها بالمزيد من الشراب الروحي وأن أُدعمها بالسفر عبر بوابة "الاكستازي "حالما أصل إلى مدينة تونس. بعد اقتراح سلمى غابت هذه الرغبة كُلياً، حلّت محلها مجموعة من الأحاسيس، خليط بين الخوف والرغبة وأشياء أخرى، أنا وسلمى في بيت وشقة كيومة. آخر ما كنت أتوقعه.

عندما وصلت إلى منزل الوالد، القصر القديم الذي استغرق تشييده أعواماً وأعواماً، وبعد وجبة الغذاء الدسمة التي أعدتها أمي بالمناسبة، أَجّلتُ الحديث عن أمر ريم إلى المساء، هكذا طلبت من أمي التي لم أشف غليلها وأجاوب عن كل الأسئلة التي أمطرتني بها كالوابل منذ دخولي إلى المنزل.

خلدت إلى النوم رغبة مني في استجماع كل قوتي طالباً من أمي إيقاظي تمام الساعة السابعة مساء، يجب أن أكون على استعداد كامل لغزو قلعة سلمى. النوم الجيد من أهم مكونات وضروريات الاستعداد لعملية جنسية ناجحة. لا يمكن لمن يشكو نقصا في النوم أن يكون فحلاً على السرير، هذا ما قرأته وما حرصت يومها على تطبيقه، صحيح أن الأمر لم ينجح كما يجب مع ريم، لكنني كنت مقتنعاً بالفكرة إلى أبعد الحدود.

رغم أن نومي كان متقطعا لكنني استيقظت في مزاج جيد وشعور كامل بالحيوية والنشاط، بعد حمام ساخن ارتديت أحسن ما أملك من ثياب، تعطرت اسْتَقللت سيارة أُجرة مباشرة إلى الحي الراقي حيث تسكن سلمى مُعذبتي.

كانت الإقامة التي يقطن فيها السيد كيومة أشهر من نار على علم، علق صاحب التاكسي عندما سألته إن كان يعرف المكان.

-ولدي شكون ما يعرفش البلاصة والإقامة هاذيك يسكن فيها ولدي كان لي لاباس عليهم أطباء، رجال أعمال، محامين....

تأكدت من كلام السائق عندما وصلت هناك، تقززت من نفسي من أحلامي من كوني أستاذاً.

تساءلت إذا كان هناك تصنيف عادل وموضوعي. في أي طبقة يمكن تصنيف أستاذ القرن الحالي؟ يومها تأكدت أن وضع الأستاذ في بلدي متأزم أكثر مما كنت أتصور، بائع السمك يعيش في بحبوحة أكثر من الأستاذ، صاحب سيارة أجرة، الجزار، العطار.... والأفظع أن الأستاذ مضطر إلى تملق كل هؤلاء ليستر عورته، يستر فقره وعريه... يومها فهمت وأدركت لماذا أصبح الكثير من رجال التعليم جزارين، نعم يجب أن يكتسبوا هذه الصفة وأكثر ليعيشوا، وإلّا فعليهم أن يتسولوا، لا حل إلا بين هذين الخيارين، أصبح الكثير من الأساتذة كالذئاب تتصيد فرائسها، ولما كان احتكاكهم بالتلميذ والولي فكان لازماً أن يتحولا في نظرهم إلى فريستين، أصبح المعلم الذي يُعلم القيم هو من يُعلم الغش، لماذا؟

أنتم كهنة النظام من تدفعونه عن سبق قصد وإصرار إلى فعل ذلك، مُرتب بقيمة ألف دينار شهري سنة 2018 للأستاذ حديث التخرج قيمتها العالمية أقل من ثلاثمئة يورو، أقل من منحة البطالة في الدول الغربية، ومع ذلك فنحن في ظل القانون العاهر للعولمة والتجارة الحرة يجب أن نشتري السلع بنفس القيمة وبنفس الثمن. عن أي عدلو كرامة يتحدث هؤلاء الحمقى؟ حسناً فعلت ريم برحيلها، لم أُقدم لها إلّا الوعود منذ زواجنا، المرتب يطير منذ الأسبوع الأول، لأدخل بعد ذلك دوامة القروض والتذلل لرئيس الوكالة البنكية. ثلاثمئة دينار معلوم إيجار المسكن، مائة دينار ثمن فاتورتي الماء والكهرباء، مئة وخمسون دينار ثمن علب السجائر في الشهر، ثمن فنجان القهوة في بلادي تجاوز الدينا ر، كيلو اللحم أكثر من عشرين ديناراً، أحتاج وأمثالي الكُثُر بالملايين إلى خبير اقتصادي ومدرب تنمية بشرية لأعيش بمرتب كهذا، أستاذ لغة عربية غير قابل للتحول إلى جزار، مادة يُعرِض عنها التلاميذ والأولياء،

ماذا سأفعل؟ كيومة يعيش في إقامة خمس نجوم، سيارة، حفل عرس ضخم، حضره أعيان البلاد الذين دفعوا له بسخاء، في حين حضر حفل عرسي الجائعون والطامعون في قطعة لحم، عن أي مقارنة أتحدث؟ أي حياة تنتظرني؟

رجل التعليم كان يزرع القيم، كان محور الحياة ونموذجها، الساعة رجل التعليم يزرع الميوعة والدجل الثقافي، أصبح الأستاذ مستعدّاً أن يضاجع تلميذته زميلته في المؤسسة، صفحات التواصل الاجتماعي تنقل لنا كل يوم فضائح رجال التعليم، رجال الصحة... بعد ما كان يجب أن تنقل لنا إنجازاتهم. لا يهم عندما تحول الأستاذ والمعلم عندما استذأبا انهارت القيم في عينيهما وانهارت في عيون المجتمع لأنه هو من يزرعها.

أنا أحمد إيراتيك الأستاذ، في الطريق الساعة لأضاجع زوجة صديقي الذي أُشاركه مسراته وسهراته، لا أشعر بالندم بالخزي بالعار، بل شعرت وما زالت أشعر بالزهو، هذا هو التحول الحقيقي، غياب تام لصديقنا الذي كان يُطلق عليه في السابق اسم الضمير، هل يملك كيومة ضميراً لأملكه أنا. سمعت صوتاً يهتف ضعيفاً من داخلي:

"أنت أستاذ مُربِّ، كيومة ليس كذلك".

أجبت الصوت الغبي الذي قال ما قال في داخلي بعنف أخرسته:

"أنا أستاذ على أبواب التسول، من نظر إلى حالي؟ من أنصفني؟ من؟ من؟ كيومة وأمثاله؟ الأبواب كلها مفتوحة في وجوههم، النظام معهم، أنا ضدي شتان بيننا، كيومة وأمثاله يتمتعون بكل شيء، وأنا وأمثالي محرومون من كل شيء".

وأنا في المصعد بعد أن تلقيت إشارة الصعود من سلمى، أزعجني انعكاس صورتي على المرآة الأمر الذي لم يعجبني، فشرعت في تحسين هندامي، طردت كل الأفكار التي حاولت أن تغزو مخيلتي لِتُنغِّص عليَ فرحتي بسلمى التي فتحت الباب. لم تكن امرأة، كانت ملاكاً. أي شيء من هذا

القبيل، آه ثم آه عندما تمتزج فخامة المكان جمال المكان بجمال الشخص، هنا نكون أقرب ما يكون إلى السحر، إلى شيء من هذا القبيل.

كانت سلمى ليلتها أكثر من رائعة في روبها الأزرق السماوي الشفاف، شفتاها يكسوهما أحمر شفاه أحمر قاني خفيف ولامع، بشرة بيضاء، نهدان منتصبان يطلان بخجل، لكن أكثر ما أثارني فيها، هو شعرها الطويل الغزير الأسود الفاحم الليلي الذي يغطي معظم ظهرها تركته منسابا عليه، زِد على ذلك جمال الشقة وأثاثها الرائع، يومها اكتشفت أنني وريم كنا نسكن في كوخ لا أكثر ولا أقل مقارنة بما أرى أمام عيني، يومها اكتشفت أيضاً أنه يستحيل أن يعيش كيومة هذه الفخامة بإيراد مقهى تعيس في مدينة صغيرة.

سحبتني بهدوء إلى الصالة لتقطع عني تأملاتي واندهاشي.

-ع السلامة أحمد، مازلت خايف؟

-لا لا سلمى.

-اقعد.

بعد أن جلست، جلست سلمى غير مصدقة ماهي فيه. ملتصقة بي ارتمت في حضني وبدأت تنتحب بصمت.

رفعتُ رأسها برفق لتستقر نظرات عينيها الساحرتين بنظراتي

-شبيك سلمى؟

-لا.

لم أتمالك نفسي، هويت عليها بهدوء ألثم شفتيها، استسلمت وتَحوّل نحيبها فجأة إلى تأوه، يدها تتحسس عضوي بشغف ظاهر، بعد القبلة التي دامت أكثر من عشر دقائق، سكرت فيها سحبتني بهدوء إلى غرفة النوم وشرعت تُجردني من ثيابي. بعد أن أكملت ابتعدت مسافة متر وبدأت تتجرد هي الأخرى من ثيابها بطريقة مثيرة كأنها ترقص وهي ترمي عليَ ملابسها الداخلية وتضحك بنبرة يملؤها الشبق.

كانت كما رأيتها على" السكايب"، كما رأيتها في أحلامي ليومين سابقين حَلَمَتَا نهديها بلون الشكولاتة وهما منتصبتان. اقتربَت وبدأت تمص قضيبي، مزمار الحياة الذي ينفخ الروح في بوابة الحياة، كانت تمص بطريقة هستيرية، من كان جائعاً لمدة وفجأة وجد الطعام أمامه.

في البداية كنت مشدوها بجمال اللحظة وروعتها، فقدت القدرة على المبادرة، جعلتها هي تفعل ما تريد ازداد تأوهُهَا واستلقت على ظهرها مُنفرجة الساقين.

هنا فقط استيقظت لن أكذب إن قلت إنني ليلتها لحست كل بقعة في جسمها. كان فرجها ذا الحواف الملونة بلون الشكولاتة أكثر من صغير استغرق لحسي له أكثر من خمس دقائق وهي تطلب مني المزيد. عندما أدخلت قضيبي أحسست أن هذا الفرج على مقاسه بالضبط لا يوجد هناك أدنى فراغ، أحسست به يستقبله بكل مكوناته بجدرانه الجانبية والأمامية وكل شيء، هذا هو الفرج الذي يتحدث الأغبياء عن جماله وروعته في الخارج هَا أنا ذا أغزوه. عند الإيلاج لأول مرة كانت سلمى تتأوه تأوها يمتزج فيه الإحساس بالألم واللذة.

-بشوية حبي أمانك وجعتني.

-ايه زيد دخلو دخلو بشوية امانك حُبي.

التصقت بي بساقيها، صارت تتلقاني في الهواء بين عمليتي النزول والهبوط، أظافرها الطويلة منغرزة في ظهري بقوة، وهي تطلب المزيد أن أضرب بكل قوتي عندما قربت على القذف سألتها:

-وين نبزع سلمى؟

-لا لا لا أمانك بزع لداخل لداخل نحب نحس بيه الما يطفي ناري.

بعد القذف وإحساسها به بدأت تتقوقع كالمحارة لتعلن بعدها نهاية قبضتها القوية على ظهري قبلتني قبلة كبيرة على شفتي وقالت.

-هكا نحبك تكون سبعي برافو.

ليلتها مارسنا الجنس ثلاث مرات، وبوضعيات مختلفة لم نتكلم عن أي موضوع آخر غير الجنس، حتى عندما أردت أن أسألها عن زوجها وضعت أصبعها على فمي وقبلتني.

-خلينا الليلة نشيخو فك علينا من المرض وحديثو.

تمام منتصف الليل وأنا أُغادر معتقداً أن مغامرة كهذه يجب أن انتظرها شهر آخر، كنت مع مفاجأة أخرى.

-احمد شنو رأيك تكري شقة قريبة من هنا مفروشة ونعود نجيك كل نهار تقريباً.

-بالرسمي تحكي؟

-ياخي تشوف فيَ نفدلك معاك.

-أما هنا غالية.

-تو نخلصها معاك ما تخافش.

في منتصف الليل تنفست الصعداء وأنا في الخارج. رغم المتعة التي تمتعت بها والتي فاقت الخيال، فاقت كل توقعاتي، لكنني لم أتخلص من إحساسي بخطر بأن يقتحم كيومة في أية لحظة علينا غرفة النوم.

في الخارج بعد أن تخلصت من الإحساس بالخطر، فرض إحساس آخر نفسه عليَ كان غائبا عني لكنه استبد بي فجأة ليُنغص عليَ متعة الليلة، إحساس كان أشد إيلاماً وعذاباً من غيره.

"ومن أدراك يا استاذ بأن كيومة لم يكن هو الآخر بين أحضان زوجتك الليلة".

ألم تقل سلمى أنه سافر. إلى أين إذن؟

فرض هذا الإحساس نفسه حتى صار يقينا عندي، هكذا هي النفوس المُتعبة المُذنبة التي ترفل في لباس الآثام، غير مستقرة لن تعرف للسكينة طريقاً مهما اغترفت من ملذات الحياة، وقتها في ذلك الوقت المتأخر والشك ينهشني اختفت نشوة اللذة، حاولت أن أتصل بريم أكثر من مرة،

هاتفها كان خارج التغطية، الذي لم أكن أتخيل بأنني سأفعله هو أن أتصل بكيومة. نعم فعلت لكن هاتفه أيضا كان خارج التغطية، أفسد هذا الإحساس عليَ مُتعتي بليلتي مع سلمى وجعلني أكثر إصراراً على استكمال العلاقة معها بدعوى الانتقام لكرامتي وشرفي المهدورين.

"هي ما زالت زوجتي لا، لا يحق لها أن تخونني"

"وانت ماذا كنت تفعل؟ تصلي قبل قليل".

"اسكت أيها الصوت المعتوه أنا إنسان مظلوم ضحية المجتمع والعالم والنظام".

"كل من يرتكب أعمالاً قذرة يقول ذلك، من يبحث عن مبررات لقذارته حتما سيجدها لكنه سيكون غبياً إن صدقها".

"اصمت أيها الغبي، اصمت جاهل متحجر رِجعي لا تفهم".

عندما يصبح العقل غبياً والقلب عليلاً والنفس هي سيدة المواقف كلها، فابشروا بعالم الميوعة.

كيومة

المعراج الثالث. الحب والجشع

للجحيم ثلاث بوابات، الشهوة والغضب والجشع

لست أدرى ما الذي جعل ارتباطي بشلة الباكالوريا المنحوسة تلك ارتباطاً أبدياً، أهيَ رغبتي في أن أُثبت للذين طُردت أمام أعينهم من المعهد الثانوي؟ أي الرجال أنا؟ أم أن الأقدار هي من تُسطّر كل شيء، أو على الأقل لا يمكن إنكار لَمستها وتواجدها في حيواتنا.

بعد افتتاح المقهى، أصبح كل من حويتة الذي بدأ يشق طريقه للإجرام بثبات وريونة عبارة عن عمال في المقهى دون أجر حقيقي يذكر، يبدأ دوامهما من الصباح إلى المساء إلى أن تُغلق المقهى أبوابها، لم يكن لديهما ما يَشغلهما. فُصلا من الدراسة مثلي، وكان هذا كافياً لِيحظيا بتعاطفي، وهذا لا يعني ألا يكون لهما دور. ففضلاً عن استغلالي لهما عندما تنتهي البضاعة الحقيقية للعمل. عملية شراء الحبوب في الظاهر هي جولة على ضفاف البحيرة مع عشاء فاخر وفي الباطن هي عمل. هناك ألتقي بمن يُزودني بالبضاعة، أضعها في حقيبة كل من حويتة أو ريونة حيث أطلب منهما إحضار حقيبتيهما لربما اشتريت لهما بعض قوارير الجعة للاحتياط أضع فيهما البضاعة الخفيفة الثمينة بدون علمهما.

وإن تعذر وجود الحقيبة أتصنع الإحساس بالبرد وأطلب من أحدهما سترته بعد أن أعود من المرحاض الذي استلمت فيه البضاعة. أضع السترة أو الحقيبة مباشرة في صندوق السيارة بعد أن يكونا قد فقدا كل وعيهما نتيجة ابتلاع أكثر من حبة هلوسة واحتساء كمية لا بأس بها من الخمر. كنت قد قررت أكثر من مرة الاستغناء عن خدماتهما المكلفة في ذلك اليوم، لكن هاتفاً بداخلي ظل يحثني على عدم الاستغناء عنهما وحسنا فعلت. لولا حويتة لقبعت في السجن أعواماً عدة. كنت قد قررت وأرغمت نفسي على ذلك من باب الحرص. إن حصل شيء فالأولى أن أُضحي بهما الغبيان قبل الحادثة المشؤومة كانا دوماً يسألان.

- تي وينك كيومة نسيت صحابك وقتاش نعطيوها بلعة في البحيرة.

-انا نساكم هذا كلام شوية صبر توا نمشو.

أمّا الشخص الأهم والمحوري في حياتي فقد أصبح عبشة بدون منازع، التقينا صُدفة. جاء يبحث عن عمل، كل الظروف كانت تسبح عكس تيار حياته، نموذج آخر لملايين الشباب المطحونة في بلادي. شاب أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، مدمن على كل التذاكر الكفيلة بتغيبه عن العالم الذي نعيش فيه، أشعث أغبر ترى في عينيه مآسي الفقر والحرمان كلها مجتمعة لتشكل لوحة فريدة من نوعها يمكن أن نُعلقها وساماً على رقبة المجتمع الدولي.

لم أتردد في توظيفه ولم أندم البتة على ذلك. عندما منحته تلك الفرصة عندما أصبح غير مضطر ليستجدي ثمن تذاكر السفر حبوب، خمر، حشيش... غَدَا عبشة مُستعدا لِفعل أي شيء أطلبه منه مهما كان، لم يعد يغادر المقهى إلا لِماماً كان ينام أحياناً فيها. شاب لا يتجاوز وزنه خمسون كيلوغراماً، بالإضافة إلى النحافة التي تُميز مظهره فهو دوماً أشعث اللحية والرأس الذي يسعى إلى تغطيته طوال فصول السنة بقلنسوة صارت مع مرور الأيام العلامة التي تميزه، ما عدا فصل الصيف حيث

يستبدل القلنسوة بقبّعة صيفية. عبشة هذا اختلط عليَ أمره. أذكر أنني رأيته مع خدام ابليس في معراجي الأول، هذا ما جعلني مُندهشاً عندما رأيته أمامي أول الأمر شحماً ودماً ويتكلم، كان كما رأيته هناك بالضبط. ما إن استلم العمل عندي حتى صار هو كل شيء في مقهى المعراج، لا يغادرها صباح مساء يقضي ليله هناك في أغلب الأوقات.

وجدت فيه الضالة التي أبحث عنها. ما لم أجده في كل من ريونة وحويتة وجدته في عبشة الذي أصبح مع مرور الأيام هو كاتم أسراري والعارف بكل تفاصيل حياتي. يكفي أن أنظر إليه ليعرف ما أريد ويسعى إلى تحقيقه.

لم يعد عبشة يفارقني بتاتاً إلا في النوم، كل احتياجاته على حسابي، مأكل مشرب مُتع. حتى عندما استلم أبي إدارة المقهى اشترطت عليه ألا يمُس عبشة، وهو حر فيما عدا ذلك، أبي الذي اشتكى لي أكثر من مرة في كَوْن الأخير ليس أميناً، فقد ضبطه يختلس مبالغ تافهة، بالنسبة إلى أبي فإن ذلك معيار عدم الشرف، من يسرق القليل قادر على سرقة الكثير.

لست أدرى عن أي شرف يتحدث أبي. عبشة يسرق إن صح استعمال العبارة أحياناً عشرة دنانير، وكل ما يأخذه يعود لي، فخراج عبشة دوماً لي، لا يقبض مُرتباً ولا أي شيء. كل هذا ويصر أبي طالبا مني أن أتخذ موقفاً وفق رؤيته.

كان عبشة هو من رافقني ذاك الصيف الذي احتفلت فيه شلة البكالوريا المنحوسة تلك بنجاح أغلب أفرادها في اجتياز الامتحان اللعين لذاك العام، ولأنني لم أعتد بعد القيام بالواجبات الاجتماعية والتي ما زلت اعتبرها ثقيلة على نفسي إلى اليوم، فقد رافقني عبشة إلى منزل حسونة حيث ظلت عيناي تراقبان طوال الحفلة سلمى. بينما كان الكل منشغلا بمراقبة روان وخنسة، انشغلت أنا عن الجميع بمراقبة سلمى التي كانت تبدو نحيفة

وغير مهتمة البتة بمظهرها وإبراز مكامن القوة فيه، عبشة وحده من انتبه لانشغالي في الطريق.

-كيومة عجبتك سلمى مازلت صغيرة باش طيحها مباصيا كحلة.

-كيفاش عرفت؟

-ابب

-أما مانتصوركش تنجم تركحها.

هذه الكلمة هي ما أيقظت كل الشياطيين النائمة بداخلي، عندما يتهمني أحد بالعجز وعدم القدرة. أعتقد الآن جازماً أنّه لو لم يتفوه عبشة بتلك الكلمة الخرقاء ربما عن غير قصد لما أصبح دخول عالم سلمى من أولوياتي.

في المرة الثانية من تلك السنة كنت مضطراً لأن أزور أيضاً منزل صديقي حسونة هذه المرة، ليس لفرح بل لوفاة والده المفاجئ. لم أكتف بالمشاهدة هذه المرة سلمت عليها مُعزياً، ربما وقتها شعرت بنوع من العاطفة تُجاهها وهي تبكي أباها بطريقة مختلفة عن الآخرين.

"لشكون خليتني يا بابا الباهي علاش هكا؟"

"ما زلت صغيرة راني محتاجة ليك برشة برشة بابا الغالي الحنين " لشكون خليتني؟"

كنت على وشك أن أقول لها لا تخافي فأنا موجود، ذاك اليوم قرّرت أن أدخل حياتها من الباب لا من النافذة كما أفعل مع البقية، وكما فعلت مع ريم التي غدت بعد افتتاح المقهى تُطالب بخطوة أخرى إلى الأمام وإلّا فستتركني وأنا كنت أُريدها أن تتركني.

ثلاثة أيام بلياليها وأنا في منزل حسونة، فجأة استيقظ عنصر الواجب الاجتماعي الذي تذرعت به لأراقب عن كثب عصفورتي الصغيرة العفيفة اقتربت منها في مناسبتين راغباً فتح حوار معها لكنها صدتني بلطف.

بدأت رحلة التحرش الحقيقية البعيدة عن التلميح بسلمى بعد مرور حوالي ثلاثة أشهر من موت أبيها وتعيين أختها خنسة أستاذة. هذا التعيين الذي

أنسى الجمع الغفير ارتباطها السابق بمروان لست سنوات خلت، وتسارع الخُطاب لطرق وخطب ود الأستاذة زميلة صف الدراسة في السابق. كان كل خوفي منها... هي. ألّا توافق خنسة على علاقتي بأختها باعتبارها تعرف الشيء الكثير عن مغامراتي السابقة. لذلك قررت أن تكون كل رسائلي الأولية مطمئنة بأنني أريد الحلال وأسعى إليه.

كل ذلك لم ينفع، كلما ازداد تمنعها زاد إصراري، وازداد عبشة من تهييجي وتحريضي على الاستمرار دون أن يعلم ذلك، عندما أنقل إليه آخر التطورات.

-تي فك عليك ماني قلت ليك ماهيش باش توافق جماعة فرنسيس مخاخهم مش عربي.

-أنا كيومة، ما ثماش وحدة تقولو لا توا تشوف.

منذ ذلك اليوم الذي رأيت فيه سلمى تُعامل أسامة الشاذ بلطف أكثر مني، اشتعلت نار الغيرة بداخلي، أسامة هذا الذي يستقطب اهتمام كل من نقابلهم يكفي أن يقول بأنه سيتابع دراسة الطب في المغرب لتلتفت إليه الوجوه مهتمة تطلب وده، كان نجم ذاك الصيف دون منازع. القليلون من يعرفون شذوذه ومنهم أنا. سلمى لا تعرف ويجب أن تعرف لن أتركها لأسامة هذا الذي يمكن أن ينتصب قضيبه في أي لحظة.

"بِوَقف يولي لي سيد بوقلادة بعد ما كان يرحم ربي."

احتجت ليلتها لأُبرد وأُرفّه عن حنقي وتعجيز عبشة لي إلى أكثر من سيجارة محشوة بالماريخوانا، واحتجت أيضاً إلى لقاء مع ريم. آه ريم الوحيدة التي تُحبني كما أنا بكل عيوبي، الوحيدة التي اكتشفت كل عيوبي منذ اليوم الأول وأحبتني كما أنا، ورغم ذلك لم أستطع أن أُبادلها نفس الإحساس، لا تجد مني إلا الصد والنُكران ورغم ذلك عندما أحتاجها أجدها بجانبي.

هي من تعرف قذاراتي ورغم ذلك تُحبني، يا لها من مجنونة بينما ارتشف رحيق جسد ريم، كنت وأنا بين أحضانها أفكر كيف أوقع بسلمى.

بعد الزواج بسلمى لم أحتج إلى الكثير من الوقت لأكتشف الورطة التي تورطُها، كنت أَسير الصورة التي رسمها العالم للسعادة، والمرأة الجميلة من أهم مُقومات صورة السعادة العالمية الحالية، سلمى كانت آية في الجمال، لكن كل ذاك الجمال لم يستطع أن يُدخل السعادة إلى قلبي، لم أتذوق طعم اللذة أبداً معها.

الشيء الذي جعلني أُبقي عليها زوجة لي كل تلك الفترة، هي نظرة الحسد التي أراها في عيون كل من يُقابلني من الرجال والنساء عندما يعرفون أن سلمى زوجتي. الأخيرة لم تكن مستعدة للتجاوب معي بقيت أسيرة بُرجها العاجي أو هكذا تخيلت، هذا إذا استثنينا حادثة التبول اللاإرادي في اليوم الأول للدخلة وحادثة إطلاق الريح المُقززة التي جعلتني أعافها لحظتها، بل استنكرت أن تكون للجمال ولجسد الجمال ذاك رائحة نتنة كريهة.

كل هذه المشاكل الصغيرة تم تجاوزها وتفهمها بسرعة، كانت المشكلة الحقيقية في العملية الجنسية نفسها.

بعد الزواج تأكدت من شذوذي الذي لم أُعره أي اهتمام يُذكر في السابق، بل كنت أعتبر نفسي فحلاً وتلك طريقة ممارسة الفحول والرجال للجنس.

بعد الزواج عرفت بعد أول استشارة للطبيب أنني من هواة ممارسة الجنس السادي.

كانت ممارسة الجنس مع سلمى بمذاق التراب. آه ثم آه كم من رسالة استغاثة بعثتها لها علها تتجاوب ولو بالشيء اليسير معي، لكنها رفضت

الأمر جُملة وتفصيلا. في تايلاند حاولت أن أستفزها قبل الممارسة صفعتها بقوة على مؤخرتها فجفلت كمن لسعتها عقرب، حلت نظرة الغضب محل نظرة الشهوة في عينيها. بعدها بدأت تبكي وتنتحب، زاد ذلك من هياجي، أحسست بقضيبي ينتصب أكثر من المعتاد، أردت أن أُضاجعها وهي تبكي تتألم لكنها رفضت دفعتني بعيدا وبقوة.

-تضربني تشويني ومن بعد تحب ترقد معايا مالّا مريض.

-امانك سلمى نفدلك.

-اسمع اسيدي، مالا نعلمك التفدليك هذاك نكرهو ما نحبوش.

في الليل المتأخر بعد أن هربت الرغبة بعيداً بعيداً، قامت هي بالتحرش بي بطريقتها أو بالطريقة الطبيعية، بدأت تتحسس قضيبي بلطف مصته، لكنه لم يستجب كما أرادت، مجرد انتصاب وقتي ما أن يدخل حتى يخرج في أقل من ثلاثين ثانية رخواً مُتهدلاً، كانت تعبر عن غضبها ذاك بارتفاع الشهيق والزفير وبعض التنهُدات الطوال أكثر من اللازم، بينما أتعمد عدم الفهم، أُدير لها ظهري وأخلد للنوم وفي داخلي يغلي عذاب يُدمي القلب.

تأكدت من شذوذي عندما مارست الجنس بعد يومين مع تلك المومس التايلاندية، يا لها من صاحبة فِراسة، عرفت حل شيفرة جسدي من الاحتكاك الأول. كنت متأفِفا عِفتُها في البداية، لكن ما إن قبلتني حتى قامت بقضم شفتي، زاد الألم من هيجاني وانتصاب عضوي، انهلت عليها صفعاً على مؤخرتها بدأت تطلب المزيد وتقوم بعضّي في أماكن مختلفة، حتى عندما كانت تمص قضيبي كان أقرب إلى العض منه إلى المص. عدت منتشياً إلى غرفتي، عدت أيضا وأنا كُلي عزم على زيارة الطبيب بعد العودة إلى تونس.

عندما اكتشفت سلمى خيانتي لها لم أنكر ذلك، لأنني كنت قد صممت وعرفت أن علاقتنا لن تستمر بحال من الأحوال بهذه الطريقة أبداً، منذ ذلك اليوم عاد طيف ريم يتلاعب بكل مشاعري، وبدا الندم يتسرب إلى

قلبي ويعتصره، ريم التي افتضضت بكارتها ستتزوج أحمد إيراتيك وأنا من دفعها إلى الارتباط به.

عندما عدت إلى تونس قابلتني نظرات الحسد والغيرة في عيون كل من قابلتهم من العائلة والأصدقاء، وكلهم يثنون على حسن اختياري للعروس والعرس. ظل الجميع يتحدثون لفترة عن حفل عرسي الضخم وعن عروسي الآية في الجمال. كان الناس يتحدثون في واد وكانت علاقتي بسلمى في واد آخر، بدأت الفجوة تتسع بيننا يوما بعد يوم.

لم نكن نصلح لبعضنا في كل المجالات حتى الحوار يكون ثقيلاً ويكون أثقل منه ممارسة واجب الزوجية... العملية الجنسية التي صرت أهرب من ممارستها ما استطعت، بينما كل شيء في سلمى يدل على الشبق والمطالبة بالمزيد، ملابسها الشفافة التي ترتديها عندما أعود متأخراً، أحيانا أجدها نائمة دون تبان، كل شيء فيها يستغيث بينما أنا لا أستطيع أن أقدم لها شيئاً قادراً على أن يُطفى عطشها، عاودت كرة الصفع مرة ومرة لكن دون جدوى، لم تستجب ولو بنسبة قليلة، وأنا أستغيث ايضاً.

فكرت أكثر من مرة بأن أنهال عليها ضرباً وصفعاً وبعد ذلك أغتصبها لا لشيء لأُريها فقط أي فحل أنا، يُعذبني أن أقرأ في عينيها عجزي عن اقتحام حصنها كما ينبغي لزوج أن يقتحم حصن زوجته، لكنني أعدل عن الفكرة مخافة أن يتطور الأمر إلى ما لا تحمد عقباه، خصوصاً بعد تحذيرات الطبيب لي بأن السادي يُمكن أن يقتل شريكته وهو يمارس معها الجنس أحياناً.

صرت أهرب وأبحث عن سُبل الهروب، فبعد أن كنت أتناول حبات الإكستازي في الماضي للبحث عن أجوبة، صِرت أتناولها بعد الزواج للهروب من عالمي التعيس الذي يراه الآخرون جَنّة.

الشيء الجميل الذي تمنحه هذه الحبة السحر عند تناولها، تجعلك تنسى الغريزة... بل تجعلها غير موجودة في العالم الذي تعيش فيه قد تشاهد

عشر فتيات عاريات من أجمل ما خلق الرحمان وأنت منتشٍ بتلك الحبة الساحرة لن يحرك منظرهن فيك شيئاً، تظل ساكناً.

صارت الحبة وسيلة للهروب مرة أو مرتين في الأسبوع إذا تناولتها مرة فأنا سأكون في غنى عن التفكير في الجنس في ذلك اليوم، وإذا تناولتها مرتين ربما نسيت بأن هناك عملية أو غريزة اسمها جنس، صِرت أمارس الجنس استجابة لتحرش زوجتي مرة في الأسبوع أو في الأسبوعين، وكانت العملية دوماً تنتهي بعملية الشهيق والزفير تلك المنفرة الدالة على الرفض والاحتجاج من قبل سلمى.

زوجتي التي صارت تتهمني بعلاقة مع ريم بدعوى أنني أذكر اسمها وأنا نائم. بعد أكثر من شهر على الزواج لم يعد لي حضور في المنزل بتاتاً، وفرضت بالقوة على الزوجة المصونة بأن ترضى بهذا الوضع أو أن تعود لبيت أمها.

غدا ما يمكن أن أسميه شذوذي اللعين يفرض نفسه كلما غاب تأثير حبة الإكستازي، جاءت حادثة اغتصاب نور لتوقظني بأن خطر السجن مازال يتهددني. بعد إغلاق المقهى حوالي منتصف الليل أصَرّ كل من عبشة وحويتة أن يُكملوا السهرة في إحدى حانات تونس، طلبوا مني أن أقلهم إلى هناك. لم يكن عندي أي مانع ولم تكن المرة الأولى التي أفعل فيها ذلك، لكن تلك المرة وقبل الخروج من مدينتنا الصغيرة وفي محطة الحافلات استرعى انتباهنا وقوف فتاة عشرينية تنتظر الحافلة في ذاك الوقت المتأخر من الليل، أي شيطان وسوس لي بالتوقف، طلبت من عبشة أن يستجلي أمرها، تناهى إلى سمعي رفضها أي مساعدة منا، لماذا يستفزني الرفض؟ يجعل كل حواسي وغرائزي تستيقظ.

طلبت من عبشة أن يجعلها تركب في السيارة بالقوة، الأخير كان ينتظر فقط إشارة مثل تلك، ساعده حويتة الذي أشهر في وجه الفتاة سكّيناً، ركبت السيارة وهي تتوسل باكية مُنتحبة، كان ذلك كفيلا لأن يجعل قضيبي أو

سيفي اللعين الذي يتغذى بالدماء والدموع يستيقظ. اقترح حويتة أن نذهب بها إلى بيته العفنو لم يكن يهمني كل ذلك ما إن دخلنا حتى انهلت على الفتاة صفعا وأنا أطالبها بأن تنزع ثيابها.

-باهي من غير ضرب أمانك باش نحي أمانك بجاه...

لم تنفع كل توسلاتها ونحيبها، كل ذلك كان يزيد من اشتعالي ورغبتي. لو توقفت لكان في ذلك نجاتها، كنت أَصفعُها وأنا أُمارس الجنس معها من الخلف، كانت هذه الوضعية هي المفضلة لديَ لأنها تُتيح لي أن أمسك الفتاة من شعرها وأن أصفعها في نفس الوقت بين الفينة والأخرى على مؤخرتها. مارس معها الجنس كل الأصدقاء بعد أن انتهيت منها وارتويت.

في صباح اليوم التالي كان رئيس خدم ابليس على الخط يُؤَنبني ويُقرعني، طالباً مني مقابلاً على المحضر الذي سُجّل هذه المرة أيضاً ضد مجهول، رغم كل المواصفات الدقيقة التي أدلت بها الفتاة نور مع الرقم المنجمي للسيارة الذي حفظته عن ظهر قلب. أعطيت المال عن رضى، نزوة كتلك كلفتني أكثر من ثلاثة آلاف دينار، ليس هذا حلا لو تعلق الأمر بفتاة من عائلة كبيرة لكان مصيري السجن إن لم يكن الموت، لكن نور كانت فقيرة وصوت الفقراء آنينهم، صراخاتهم لا تُسمع في بلادي، يقتات منها وعليها خدم إبليس.

بعد تلك الحادثة صرت أنتقي بين الفينة والأخرى إحدى المومسات، كان شرطي لهن أن يتحملن صفعاتي مقابل خمسة دنانير للصفعة الواحدة، وإذا اقترنت بالبكاء والصراخ فعشرة دنانير للصفعة. مرة وأنا أمارس مع إحداهن طلبت منها في وسط العملية بأن تُذكرني بالمبلغ الذي تستحقه.

-أمانك وصلنا مائة دينار يزي ما حاجتيش.

بطبيعة الحال لم يسبق لي أن أعطيتهن ما يستحقن، كل الوعود تلك لمجرد التحفيز لأصل الى أبعد نقطة للذة والنشوة، دوماً خمسون ديناراً وأُخرجهن في منتصف الليل أو أتركهن لحويتة ليكمل السهرة برفقتهن.
خمسة أشهر بعد الزواج على هذا المنوال. أُصبت مرة بمرض السيلان جعلني أهجر سلمى لشهر كامل مخافة أن تنتقل العدوى إليها. من حسن الحظ إني اكتشفت المرض صباح سهرتي مع إحدى المومسات. بعد حادثتي نور التي كانت ستدخلني السجن، ومرض السيلان الذي دق ناقوس خطر آخر. لم يعد أمامي غير ريم. بدأت رحلة البحث عنها، لم يعد يهمني إن كانت متزوجة أم لا في رحلة البحث عن رقمها وعنها مستعملا أحد التطبيقات على هاتفي الذكي. وجدت أن أحمد ايراتيك قد اتصل بي ذات يوم بعد منتصف الليل لأكثر من مرة، لم انتبه وقتها لأنني كنت في إحدى العلب الليلية حيث تزدهر تجارتي، استغربت اتصاله وذهبت بي الظنون كل مذهب. هذا الأخير علاقتي به في الظاهر صداقة أما في الحقيقة فكلها توتر. وبغباء مني أنا من سهل له سبل الارتباط بريم لأتخلص منها، وهي التي ظلت تُناضل من أجلي إلى آخر لحظة قبل أن أتزوج فيها بسلمى.
-كيومة باش تندم والله لا تلقى كيفي ولا تقبل بيك مرة. خمم مليح كيومة راك تغلط.
-ياخي مهبولة أنت هاك مع ايراتيك. آش تحب؟
-أنت تعرف. أنا مصوحبتو، علاش؟. تعرف وتتمنيك.
-أمانك اكهو صحابي كلهم في بالهم بيك مصوحبة ايراتيك.
-توا ولى يهمك في صحابك محسوب مايعرفوش كنت مصوحباتك قبلو.

كنت بغباء، أكثر الأصدقاء فرحاً بنجاح ايراتيك بشهادة الكفاءة وتخرجه أستاذاً، لا لشيء إلّا لأنه بذلك سيُصبح قادراً على الزواج بريم وتحمُّل

وزرها بَدلاً عني. أقمت له وقتها حفلة على حسابي الخاص وجعلته يسافر ليلتها بالمجان عبر حبة الإكستازي.

صِرت الساعة أكرهه، أتمنى لو أنني لم أساعده كي يتزوج ريم. لو ظلت كما هي، لعجلت بطلاقي من سلمى... لتزوجتها، لفعلت أي شيء. في الأيام الأخيرة أردت أن أُعيد الاتصال بها، وجدتها خارج العالم الافتراضي بالكامل، غيرت هاتفها أيضا كما سمعت بأنها حبلى من إيراتيك ذاك. لم أتوقف عن تتبع أخبارها منذ عودتي من شهر الزفت الذي تكفل بإيقاظي من سباتي مبكراً، لكنني لم أمتلك الجرأة الكافية للاتصال بها إلا مؤخراً بعد أن بلغ السيل الزبى، ِ بعد أن صرت مهدّداً بالسجن مهدّداً بالأمراض الجنسية. أي لعنة هذه التي تشتعل بداخلي؟ تسحبُني نحو المجهول نحو القاع. قالت ريم بأنني سأندم، كانت أكثر من محقة. ماذا يريد مني زوجها؟ ربما تفطّن إلى محاولاتي الاتصال بها وهو يعرف كل أرقامي.

كنت قد قررت أن أتصل به عندما استيقظت صباحاً لكن الطقوس التي تعودت عليها بعد كل حفلة، زيارة البنك وتابع ابليس الذي أصبحت واحداً من زمرته وخدمه، كل هذا جعلني أنسى أمر اتصالي بإيراتيك لكنني ليلتها وجدته في المقهى مخمورا وهو يتحدث لجمع من الأصدقاء القُدامى ويعلمهم أنّ ريماً لم تعد زوجته بعد اليوم.

في البداية خِفت، ظننت أن أمر اتصاله بي ليلة أمس يتعلق باكتشافه محاولة اتصالي بزوجته وربما كان هذا سبب الطلاق، ترددت وأنا اقترب مُخفيّاً فرحتي باعتبار أن ذلك كان أجمل ما سمعت وما كنت أبحث وأصبو إليه، بل هذا ما كنت أُريد طلبه من ريم وأنا أحاول الاتصال بها منذ مُدّة.

-اهلا ايراتيك والله ما فقت بيه تيلفونك نهارتها.

-مش مشكل كيومة، حبيت نعلمك بركة راني طلقت ريم وما عادش يهمني فيها، من توا صاحبك راجل.

- ونزيدك كيومةعندهم الحق الجماعة لي قالو مش باهي تاخو مرا كنت تعرف صاحبها، مش مليح.

اقترب منه ريونة:

-نعرف صاحبي راجل وكنت نعرف باش تعملها.

بعد ذلك انخرط إيراتيك في نوبة بكاء هستيرية غريبة. اقتربت منه بحذر

-تحب حاجة ايراتيك؟ نعاونك.

-ابعد عليَ انت بالذات كيومة، ابعد عليَ مانحبكش تحكي معايا توا.

تساءلت إن كان قد أحس بأن الخبر أفرحني أو شيء من هذا القبيل. تلك الليلة لم تنفع كل محاولتي الاتصال بريم أو بمن يعرفها لكنني لم أيأس. انشرح صدري ممنذ سماعي للخبر السعيد وصرت أعرف دواء شذوذي...ريم التي صِرت أبحث عنها في كل مكان.

وكأن زوجتي أحسّت بإعراضي عنها، أصبحت أكثر طاعة وأقل تذمراً من ذي قبل بكثير، غَدَت هي من تقترح زيارة بيت أهلي، الأكثر من ذلك تكرمت ودعتهم لتناول وجبة عشاء. اشتممت رائحة خنسة في التغير الجديد. الأفعى الأنثى ذات الحاسة السادسة تبحث عن شرعية أسرية عائلية عندما أدركت انتهاء الشرعية الزوجية، تحتمي بأبي وأمي. في رمش البصر صارتا صديقتين أمام اندهاشي وأمام سير الأمور عكس التيار المتعارف عليه في الشرق الحرب قائمة دوماً بين الكنة والحماة.

كلما رأتني أمي:

-أحمد مرتك زين وتربية ربي يرزقكم بوليد توا تريذ. كون عاقل يا أحمد يزيك.

-بالله نحب نعرف، اش تقول ليك؟ اش قاعد نعمل؟ نهار كل نخدم كالبهيم باش لالة تعيش أميرة.

-عاد شبيه أميرة ونص تستاهل بنتي زين وعين العباد حاسدينك عليها كان مافيبالكش.

في تلك الفترة التي بت أتعافى فيها من مرض السيلان الذي أصابني، لم أقربها رغم تحرشاتها التي وصلت في أحيان كثيرة إلى حد التوسل.

-امانك دخلو وخرجو، بزع أكهو، ماعدش حاجتي، نحب نجيب صغير اكهو، أمانك احمد.

زرت الطبيب. استغرب امتناعي عن مضاجعة زوجتي كل هذا الوقت طالباً مني أن أمارس حياتي الجنسية المقرفة بشكل طبيعي، وأن ابتعد عن المومسات أو أستعمل العازل الطبي. جنس دون صُراخ دون آلام، دون بكاء، دون رؤية الدم عبارة عن أكل التراب وسفّه لا متعة ولا هم يحزنون.

سأتخلص منك سلمى مهما كلفني الأمر. لن أدع ريم تهرب أو تضيع مني هذه المرة، يكفي، لقد تعلمت واستوعبت الدرس. لكن الأمور تمشي عكس ما أُريد بِتُّ أتجاوب مع تحرشات سلمى، أجدها تنتظرني كل ليلة على غير عادتها، أقوم بما هو مطلوب مني يوماً وأتغاضى عن فعله أياماً أخرى، لتفاجئني في آخر الشهر بأنها حامل. صعّبت من قراري، جعلت العائلة كلها ملتفة حولها. أمي لم تعد تبرح شقتنا طالبة منها ألّا تُجهد نفسها، ورغم ذلك في قرارة نفسي ما زِلت مُصّرا على قراري لتعيش مع أمي إن شاءت، سأتنازل لها عن الشقة وأخصّص لها جِراية محترمة ولترحل عني، لا أريد أن أُكمّل حياتي في عذاب.

رهان ريم

"لا تنتظر من أحد أن يُعطيك ما عجزت أن تُعطيه لنفسك"

فمن تكن العلياء هِمّة نفسه***** فكل الذي يلقاه فيها محبب

كانت الخطة تقتضي أن أبدأ العمل في مشروعي الصغير الذي افتتحته بعد حصولي على القرض والتجهيزات الضرورية. كنت قد عقدت العزم على افتتاح المشروع بعد الولادة، حيث كنت أنتظر إجابات وردُود مجموعة من الشركات الأجنبية التي راسلتها في الغرض. كنت وقتها في منتصف الشهر السابع من الحمل، حيث أكد الطبيب أنّني انتظر مولُوداً ذكراً.

أحمد زوجي كان غائباً جملة وتفصيلاً عن متابعة كل مراحل الحمل، بعض المكالمات مع أمي من باب أداء الواجب الثقيل فقط. اشتممت رائحة امرأة أُخرى، لكن أمره لم يعد يهمني وما عاد عندي مُتّسع من الوقت لأفكر في احتياجات القلب والجسد.

العمل ثم العمل. حتى الجلسات الصُّلحية للطلاق في المحكمة لم يحضر أيّاً منها. كلّف محاميه بالقضية. وباعتباري صاحبة الدعوة في الطلاق والمتنازلة عن كل حقوقي تجاهه، فقد حصلت على حكم الطلاق بعد غيابه عن الجلسة الثالثة.

في هذه الفترة التي لم أكن مُهيأة لها كفاية، كنت أعيش خوفاً ورُعباً حقيقيين، بالّا يُحالفني الحظ في الحصول على عقد مع شركة أجنبية في الوقت المناسب، حيث صِرتُ مُجبرة على دفع إيجار المعمل.

جاء الفرج في الوقت الذي لم أكن انتظره ولم أكن أُحبذه، وجدت رسالة من شركة مستعدة لبدء عقد تجريبي بعشرين ألف قطعة من ملابس الأطفال.

كان العرض بالنسبة لي أكثر من مُغر. بعد دراسته تبين أن الأمور إذا سارت وفق الخطة التي يجب أن تمشي عليها، فالأرباح الصافية للمعمل الصغير ستصل في غضون شهرين حوالي خمسون أو ستون ألف دينار.

صار الصراع كل الصراع مع الوقت. الأوربيون لا يلعبون، كانت هناك بالفعل شروط جزائية في حالة الإخلال بالتوقيت وبمواصفات الجودة، منها أن يقوم المعمل بتعويض الشركة على كل الخسائر الناتجة عن ذلك.

أكثر من صديق وصديقة في الميدان نصحني برفض العقد لأن الشروط قاسية بل تعجيزية، لكنني قبلت التحدي، أعددت دراسة وبعثت بالموافقة المُرفقة بصور المعمل وعدد العاملات والآلات. في غضون أسبوع بعد ذلك كان عليَ أن أستقبل شاحنة المواد الأولية لِبدء العمل.

كان مطلوباً من المعمل صناعة قرابة ثلاثمئة قطعة يومياً وفق المواصفات المذكورة والتي تدربت عليها سابقاً، من حسن حظي أن أمي وأختي كانتا تتقنان الخياطة، في اليوم الأول لم نستطع رغم المجهود الكبير خياطة أكثر من مائتي قطعة، مما استوجب تبديل الخطة والعمل وفق نظام الاثنتي عشرة ساعة.

في هذه الفترة لم أكن أُغادر المعمل إلّا بعد الساعة العاشرة مساءً. صِرنا كلنا نعيش هناك، أنا وأمي، أختي، أبي، أخي الصغير. الكل يساعد قدر ما يستطيع، دون أن أنسى بعض العاملات المشكورات اللواتي تطوعن للمساعدة والتضحية.

كان نجاح الشحنة الأولى هو الاختبار الحقيقي للمعمل، والمقرر شحنها بعد خمسة عشر يوما من بِدء العمل، هذه الشحنة هي من ستُحدد استمرار العقد والعمل به أو إلغاءه بناء على جودة البضاعة.

تمت عملية الشحن يوم السبت بعد الظهر، لم أنم كما ينبغي يومي السبت والأحد وباقي ذاك الأسبوع. كان انتظار رسالة الشركة الأم أكثر صعوبة من انتظار أي شهادة أخرى. أُمي اليوم بطوله وهي تقوم بتبخير المعمل والدعاء والصلاة وأنا كنت في حالة من التوتر والتوجس التي وصلت في أحيان كثيرة إلى حد اليأس، فالتقرير الذي ننتظره على أحَر من الجمر والذي سيحدد مصيري لم يصل، لا يوم الاثنين ولا الثلاثاء ولا الأربعاء. في ذلك اليوم كنت قد عقدت العزم على أن اعتذر من العاملات وأن أتدبر مبلغاً مالياً لدفع أجورهن عن الأسبوعين السابقين، كان اليأس قد بلغ مني مبلغه.

يوم الخميس كنا أمام مفاجأة لم تخطر على البال، شاحنة أخرى بالمواد الأولية أمام المعمل ورسالة على بريدي الإلكتروني تشكرني فيها الشركة على براعتي في العمل وأنها ستكون مسرورة بالتعاون مع معملي البسيط رغم وجود بعض الملاحظات البسيطة التي يمكن تجاوزها عن طريق إرسال فريق لتدريب بعض العاملات في مسألة مراقبة الجودة. لم تكن الرسالة وحدها ما أدخل السرور إلى قلبي بل مبلغ التسبقة المالية بخمسة عشر ألف يورو.

نعم لقد فعلتها. خرجت بسرعة البرق من عنق الزجاجة، هذا المبلغ سيُؤمن رواتب العاملات ومصاريف الكهرباء ومصاريف أخرى لثلاثة أشهر قادمة.

عندما زارنا وفد الشركة لم يُصدّق رئيس الوفد بأن المرأة التي تقود هذا المعمل حامل في شهرها الثامن، وأنها تعمل أكثر من أثنتي عشرة ساعة في اليوم.

-سيدتي القانون عندنا يمنع المرأة الحامل من ممارسة عملها في هذا الوقت المتأخر من الحمل.

-سيدي نحن في بلدي القانون يُنصف المرأة فقط في الإعلام وعندما تمارس الجنس والميوعة، لا أكثر ولا أقل. النساء عندنا يعملن الى آخر يوم حملهن، وربما حملت سيارة الإسعاف إحداهن من المعمل إلى المستشفى وعليها أن تعود للعمل في غضون شهرين.

-لكنني أسمع أن وضع المرأة في تونس متميز.

-لا يوجد وضع متميز لا للرجل ولا للمرأة، يكفي أن تلقي نظرة على الأجر الأدنى لتُدرك بشاعة الكذب سيدي.

ساعدني الفريق الفرنسي في المعمل على إنجاز الكثير من الأعمال التي كانت تستنزف في السابق وقتا طويلا ومجهوداً أكبر. كنت مُصرة على تَعلُّم كل ما يطلبونه، أنا شخصياً قبل أي عاملة أخرى، ليفاجئني بعد ذلك المخاض داخل المعمل دون سابق إنذار، وعكس كل توقعاتي وتوقعات الطبيب الذي برر مخاضي المفاجئ بالمجهود البدني المضنى الذي أقوم به.

جاءت سيارة الإسعاف لتحملني من المعمل، اعتقد العمال والوفد الفرنسي أنّني سأغيب عن المعمل ربما أسبوعاً أو أكثر على أقل تقدير، لكنهم اندهشوا عندما وجدوني في صباح اليوم الثالث في الساعة التاسعة صباحا بينهم.

كانت أمي هي الغائبة عن المعمل، هيَ من تحمّلت بصدر رحب أُسوة بأغلب الأمهات في بلادي رعاية ابني مباشرة بعد أن وضعته. زاد هذا من ثقة الفريق الفرنسي في معملي، قُمنا كلنا في ذاك الأسبوع بإرسال الشحنة الثانية، في انتظار الثالثة والأخيرة التي سنقيم على شرفها حفلاً محترماً في أحد النزل بسوسة.

في تلك الفترة بعد الوضع زارنا زوجي السابق أو بعبارة أخرى طليقي الذي احتجّت أمه بشدة. لماذا لم نعلمهم. ولماذا نضع شروط الزيارة التي اشترطت أن تتم يوم الأحد مساءً. أن يأخذوا موعدا لزيارة ابنهم اعتبروها إهانة.

لأنني ببساطة تكتمت إلى أبعد حد عن أمر المعمل والمشروع. إلى تلك الساعة كنت غائبة عن العالم الافتراضي، مع قدوم ابني الذي تزامن مع النجاح الذي حققته اعتبرت قدومه كأي أم شرقية مقدم خير وذا فأل حسن، تغيرت نظرتي للحياة، اكتسبت ثقة في نفسي وقدراتي، أعدت نسج خيوط حياتي من جديد وفق ضوابط أخرى غير التي كانت من قبل.

شاركت الجميع هذه المرة صور ابني على الفايسبوك، لكنني لم أُشاركهم كل أموري الخاصة كما اعتدت أن أفعل مِن قبل. استغربت أن أول من هنأني كيومة، بل طلب في رسالة طلب صداقة ورسالة على الخاص مقابلتي لأمر ضروري ومُلح.

أيقظت رسالته كل شجون الماضي وآلامه، زاد عليها زيارة طليقي وعائلته، التي كانت زيارة معركة لا ود وتهنئة. احتج طليقي كيف اتخذت قرار تسميته دون الرجوع إليه ومشاورته.

-ياخي أنت وينك اتصلت عملت حاجة اقترحت عطيت فلوس الطبيب خلصت الكلينيك تحب تحكم وتسمي أكهو؟.

- إيه لالة هذاك ولدي.

-أحمد امانك خلينا صحاب خير.

أمي كانت أكثر حكمة مني، جعلت الوفد الزائر يتراجع عن كل أقواله واحتجاجاته بلمح البصر، بل الأكثر من ذلك جعلته يُسرع في المغادرة دون تناول وجبة الغداء.

-ايه سي أحمد، عندك الحق ولدي الولد ولدك ومن حقك تسميه كيما تحب حتى توا ما فاتك شيء ما زال ما تسجلش في الحالة المدنية. اقعد أنت

وطليقتك تفاهمو تو قداش باش تعمل ليه ف الشهر مصروف. الولد يلزموا حليب كوش ... ومرتك مهبولة تنازلت على كل حقوقها قدام القاضي خاطر تعرف لي أنت ولد عايلة ما كش باش تخلي ولدك من غير مصروف؟ نتصور ثلاثمائة دينار للشهر تكفي سي أحمد.

أمام هذا المقترح الصاروخ تجاهلت أُسرة طليقي وطليقي كل نقاط الخلاف كأنها لم تكن، قامت أُم أحمد بتقبيل الابن متجاهلة عن عمد مقترح أمي. كان ذاك اليوم الوحيد الذي احتقرت فيه زوجي السابق لم تكن لديه لا القدرة ولا الشجاعة ليتحمل مسؤوليته كأب، كيف يُعقل أن تلجأ الزوجة المطلقة للقضاء لتُرغم الزوج على دفع نفقة أبنائه، أعتقد أن قانون المصادرة الآلي في هذه الحالة هو الأنجح.

بعد هذا المقترح اعتذر الجمع باعتبار الطريق طويلة وأن عليهم العودة إلى تونس تاركين بعض الهدايا البسيطة ومبلغاً مالي قدره مائة دينار عند رأس ابني.

عادت الحياة إلى وتيرتها، لكن ذاك الأسبوع كان أسبوع عودة الماضي... عودة صرخة الجسد المتعطش للمتعة والذي دفنت كل أحاسيسه وصرخاته لتسعة شهور خلت. بعد الاطمئنان اشتعلت كل الأضواء الحمراء دفعة واحدة تُطالب بنصيبها من المتعة، صِرت أكثر حيرة من ذي قبل، أكثر شروداً أكثر وجعا، لم أتمتع بنجاحي كما يجب التمتع. النجاح يفرض نمطاً آخر للحياة، نمطاً مختلفاً، امرأة ناجحة، جسد في عنفوانه نظرات الحسد ممتزجة بالشهوة أراها في عيون كل من أُقابلهم، لكن لم أكن أتصور البتة أنني سأقابل كيومة الذي جاء إلى صفاقس وهو يتحرى أثري لمقابلتي.

استغربت عندما طلبتني إحدى العاملات وأنا في المعمل أتفقد الجودة، ولا شيء غير الجودة. نادتني لوجود شخص يرغب في رؤيتي، اعتقدت أنه أحد المزودين بالمواد الأولية التي نكون في بعض الأحيان في حاجة إليها لضرورة العمل، وفي انتظار وصولها من الخارج، تبعثرت كل حساباتي للمستقبل عندما رأيته أمامي يحمل باقة ورد ويستأذن في الدخول، كان أول المكتشفين لمشروعي من الشلة القديمة التي حرصت على قطع علاقتي بها كلياً.

ارتبكت لم أعرف كيف أتصرف معه، دعوته للدخول إلى المكتب الذي أغلقت بابه بإحكام لأول مرة منذ افتتاح المعمل.

-آش تحب كيومة؟

-نحبك.

-هههههههههه توا فقت مش موخر برشة.

-اسمع ريم صحيح غلطت كنت غالط برشة، أما توا بالمجد فقت نحب نصلح غلطتي نحب نرجع أنا وياك كما كنا.

-تصوحبني معناتها وف الليل تروح لالة سلمى سالم غانم، دويو مش ريم نتاع زمان البهيمة لقدامك توا حبيبي.

-لا ريم نقصد نطلق سلمى ونعرس بيك والله.

لم يخطر ببالي للحظة أن هذا سيكون اقتراحه، ماذا جرى؟ كيف تحول هكذا؟ بعد ذلك اللقاء بمدة ليست بالقصيرة سأعرف أن ما اكتشفه كيومة لم أكتشفه أنا بعد.

-اسمع ريم أنا وياك تخلقنا لبعضنا. انت علاش مانجمتش تعيش مع احمد باش تلقاي نفس السبب لي مخلانيش نعيش ونتمتع مع سلمى. أنا نلقى روحي كان معاك.

-في بالك أنا توا عندي وليد ولا لا.

-في بالي وقابل بكل شيء لي تقولو أنا موافق عليه، عندي فلوس برشة ريم ما تقولش هذا طامع فيَ والله لا صار ولا كنت نعرف بلي عندك معمل جملة.

-اسمع كيومة توا ما نجم نجاوبك بشيء. غالبا باش يكون جوابي لا بل أكيد لا. أما خلينا توا عل قليلة صحاب.

-ما يسالش نصبر أما موش على خاطر نوليو صحاب لا حاجتي بيك مرتي.

-لا مش توا كيومة مش توا

-نجم ناخو نومروك؟

-ايه ما يسالش .....

كان كيومة حزيناً، قاومت من أجل ألّا أضعف أمامه. كنت أود تقبيله، أَود مضاجعته، لو لم أكن بعد نفساء لفعلت ذلك، يقولون بأن المرأة تبقى دوما ضعيفة أمام من افتض بكارتها، كيومة لم يفتض بكارتي فحسب بل فك شيفرة جسدي كلها من أول لقاء، قلت له ممازحة وممتحنة:

-ثم سيجارو محشي ماريخوانا.

-ايه ثم. نفتل ليك واحد توا؟

-باهي افتل.

-ماعادش خايف تعرس بوحدة تكيفت وشربت قدامك؟

-لا لا لا بالعكس أنا نحبك هكاك هكاك على طبيعتك كيما أنت ما تبدلي شيء.

أعادت لي سيجارة الماريخوانا ذكريات الأيام الخوالي، جعلتني أتذكر كل الآلام التي سببها لي كيومة، بعد أن دخنتها طردته من مكتبي بشكل فظ:

-تو أخرج خليني نخدم على روحي.

-امانك ريم.

-علاش باش نحشم منك؟ اشبيك انت ماحشمتش ماتلفتش لوراك جملة كي خرجتني من حياتك كي الكلبة وأنا نبكي ونوح اخرج توا قبل ما نعيط للعساس يخرجك بالسيف.

نحن معشر النساء لا نُفكر كما يُفكر الرجال رغم امتلاكنا قُدرات ووسائل أكثر منهم بكثير، لو فكرنا وِفق منهجهم كُنا نحن من سيُسطر ويحكم هذا العالم. لكننا للأسف نفكر دوماً كيف نُدمّر بعضنا بعضاً، صراعنا ليس مع الرجل أو الذكر كما يُسوّق له تحت شعارات عدة، منها المساواة...

صراعنا هو صراع بين المرأة والمرأة ومحور هذا الصراع هو الرجل دوما، وهذا فقط ما يجعله ينتصر ويفتك المبادرة والقيادة ويكون في المقدمة.

مباشرة بعد أن خرج كيومة من الباب ندمت أشد الندم على ما بدر مني، ليس حُبّا فيه هذه المرة ولكن نكاية في زوجته سلمى، تلك البلهاء التي لم تحترم في السابق ارتباطي بكيومة وصَمَّت أذنيها أمام كل توسلاتي وتهديداتي. أخبرتها وأنا أبكي مرارتي أنه افتض بكارتي، أخبرتها أنني أُحبه وبأنها أجمل مني بكثير وتستطيع أن تجد أكثر من رجل يرغب

بالارتباط بها، أجمل وأغنى من كيومة، أخبرتها أنني لن أجد غير كيومة، أخبرتها أنه مريض نفسي ولن تشعر بالسعادة معه، أخبرتها أنني أنا الوحيدة التي تستطيع أن تقبله كما هو، أخبرتها .... لكن الأفعى صَمّت أذنيها، بل بالعكس قامت بعد حديثي معها بتجميدي على صفحتها الفايسبوكية، هي وتلك الأفعى العقرب أُختها. بعد خروج كيومة وتذكري أفعال الحرباء سلمى، هممت بأن أُناديه وأشترط عليه أن يُطلق سلمى ذلك اليوم قبل الغد، لكنني رأيت في ذلك تراجعاً وإخلالاً واضحا بالوعد الذي قطعته على نفسي بأن أنسى الماضي وكل آلامه.

الماضي الذي أصبح هو من يفرض نفسه عليَ بكل قوة. في تلك الليلة عدت أستحضره وأتلذذ باسترجاع الذكريات التي ظننت أنني نسيتها ودفنتها إلى الأبد.

الغريب في الأمر أن زوجي السابق لم يعد له أي وجود في حياتي... في ذاكرتي رغم أنني أحمل بين ذراعي كل يوم ثمرة عذابي الجنسي معه، رغم ذلك كلّمَا مَرّ طيفه بخاطري أشعر بالتقزز وبالرغبة في التقيؤ، أُحدث نفسي بأنّ أحسن ما فعلت هو أنني غادرت سجنه في الوقت المناسب. وقبل فوات الأوان قبل أن اعتاد عليه. الكثير من الناس يقبعون في سجون من صُنع أيديهم، لم يبرحوها ولا يفكرون في الخروج منها لا لشيء إلّا لأنهم اعتادوا عليها أصبحوا يتلذذون عذاباتهم.

الآن أنا ذكر في صورة أُنثى، أنا من ستسعى للإيقاع بمن أريد أن أتمتع بهم لا معهم. حرصت على أن يتم الاحتفال بالعقد الجديد مع الشركة الفرنسية بعد انقضاء أربعين يوماً بعد ولادتي، بعد أن يعود فرجي مُستعداً لاستقبال قضيب قوي ليغزوه. غدوت أشاهد الأفلام الخليعة كل ليلة وأنا أتخيل نفسي بين ذراعي أحدهم أتمتع بمص إحدى مزامير نفخ الروح في هذه الحياة.

يوم الحفل أو ليلة الحفل التي حضرها وفد من الشركة الأم التي تعاقدت معها وحرصت بألّا يحضره أي موظف أو عامل في معملي لسبب بسيط، هو أنني في تلك الليلة كنت قد نويت على فعل كل ما لا يجب فعله أمام من يعرفني، كنت قد نويت أن أشرب الخمر حد الثمالة وأن اصطاد ذكرا فحلا يقضي معي ليلتي تلك. لم يكن الأمر صعباً أو مستحيلاً ارتديت من الملابس المثيرة منها وطوال الحفل كانت الرغبة ولا شيء غير الرغبة هي ما تقودني ما تُحدد حركاتي، ضحكاتي، صِرت غير أنا التي أعرف نفسي. حين تستبد الرغبة تُصبح هي المتحكمة في كل شيء الضحكات، الكلمات والحركات... كل شيء يخرج مشحوناً بها ممزوجاً بها وهي تصرخ وتستنجد لإطفاء حريقها الملتهب في أركان الجسد والروح.

كيف التقت عيناي به فجأة؟ قلت كما قال هو. هذا ما أبحث عنه الليلة. طلب بكل لطف أن يُراقصني، ما إن لمسني حتى شعرت بيده تضغط بعنف قوي على يدي، عنف جعل أوصالي كلها ترتجف إلى حد التأوه الممزوج باللذة والألم... ذاك الذي أنا في رحلة البحث عنه.

شاب أسمر مفتول العضلات تونسي الجنسية كل المعلومات التي أعطيتها إياه كانت كاذبة، لم نرقص طويلا طلب مني أن أُرافقه إلى غرفته لكنني اقترحت عليه أن يرافقني هو إلى غرفتي.

أذكر أننا صعدنا إلى الغرفة منتصف الليل، لأن ما حدث بعد ذلك لم أتذكر منه أي شيء ماذا حصل؟ وكيف؟

تلك الليلة التي نجوت فيها من الموت بأعجوبة اكتشفت ما اكتشفه كيومة من قبل، اصطدمت بشذوذي، لا، الأصح أنني اصطدمت بحقيقة شذوذي وخطورته.

استيقظت حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً لم أقوَ على النهوض والحركة، راعني كثرة الكدمات على وجهي وانتفاخه في أكثر من موضع بالإضافة إلى عدم القدرة بتاتاً على النهوض من الفراش، وبقع الدم الحمراء منتشرة في كل أركان

الغرفة. اقتربت من الهاتف بصعوبة طالبة النجدة، بعد دقائق قليلة كان فريق كامل من إدارة الفندق في الغرفة حيث تكفل بعض الأعوان بإعطاء أوصاف الشاب الذي شاركني ليلتي والذي أكد الجميع مغادرته الفندق صباح ذلك اليوم، حيث لاحظوا عليه علامات الترقب والقلق والاستعجال. لم أوافق على فتح تحقيق واستدعاء الشرطة طلبت فقط استدعاء طبيب.

عندما حضر الطبيب طلبت من الجميع المغادرة.

من حسن الحظ لم أصب بكسور كلها كدمات ورضوض صغيرة سأشفى منها في القريب العاجل، الغريب هو أن مدخل فرجي ودُبري كانا يوجعاني بشكل كبير، لم أجد بُدّا من مصارحة الطبيب بالحقيقة وكل ما جرى. الأخير لم يصب بالاندهاش.

-أتعرفين سيدتي أنه من حسن حظك أُغمي عليك وأنك نجوت من الموت بأعجوبة.

-كيف دكتور؟

-على حد علمي وهذا ما سيفسره لك الطبيب النفسي الذي سيوافيك بعد قليل، أنت تتلذذين الجنس المقترن بالعنف، والشخص الذي شاركك الفراش أمس كان لسوء حظك من نوع الساديين الخطرين. أتدرين أن هناك فئة منهم تتلذذ بممارسة الجنس مع الفتاة بعد قتلها، من حسن حظك أنك أُغمي عليك واعتقد الآخر أنك ميتة لذلك تمتع كما يجب وكما يحب.

هالتني الحقيقة التي عرفتها بعد زيارة الطبيب النفسي لغرفتي والذي فسر بإسهاب كبير ما ذكره الطبيب الأول. سردت له قصة فشل زواجي وكيف أنني لم أكن أشعر بالإثارة والمتعة البتة مع زوجي السابق رغم أنني أنجبت منه.

-من حسن حظك سيدتي أنك لم تصادفي ساديّاً في فترة حملك، ما كان للحمل أن يكتمل لو حصل ذلك، لأن العنف يجعلك في حالة اهتياج فتطالبين بالمزيد، أليس كذلك؟

-أومأت علامة الإيجاب والموافقة.

-هل من حل دكتور؟

-تحتاجين إلى الكثير من جلسات إعادة التأهيل لكن تحتاجين إلى عزيمة وإرادة أكبر. أن تعودي طبيعية مستبعد، لكن أن تقاومي الغريزة والرغبة ممكن جداً وأن تَحُدي من سيطرتها عليك.

استغرقت فترة النقاهة في الفندق أكثر من أربعة أيام، اكتشفت وقتها بأن كيومة هو الأنسب لي، قبلت صداقته على الفايسبوك وسمحت له بمحادثتي، كنا نتبادل أحاديث الحب والجنس لساعات طويلة في الليل. في تلك الفترة اتفقنا على كل الخطوط العريضة لإعادة علاقتنا إلى سابق عهدها، بل لأول مرة نتكلم على شذوذنا بشكل واضح وصريح. وجدت أنه أصبح على علم تام بحالته وبأنه يشكو ويخاف من أن تقوده في يوم من الأيام إلى ما لا تُحمد عقباه، عرفت قصة خيانته لزوجته منذ الأسبوع الأول للزواج. قال إنّه كان يبحث عني في كل امرأة يُقابلها. هذه المرة صدقته، لو لم يحصل معي ما حصل ما كنت لأصد ق ذلك أبدا.

سلمى

من مفاسد هذه الحضارة أنها تسمي الاحتيال ذكاء، والانحلال حرية، والرذيلة فنا، والاستغلال معونة •

حياتي بعد الزواج أصبحت جحيماً لا يُطاق، خنسة شرعت في إجراءات الطلاق المُرفقة بإجراءات الهجرة إلى كندا، سِت سنوات عجاف من الزواج في انتظار الولد الذي لم يأت بَعد، فقرر الزوج وعائلته تحميل خنسة المسؤولية ولفظها من حياتهم. أرض بور هي في عُرف مجتمع ذكوري بنسائه ورجاله، لا تصلح لشيء، هكذا قالت حماة خنسة المرأة الأم وليس الأب.

لم تعد خنسة في خضم مشاكلها تلك تهتم لأمري كما في السابق، بل لم تعد تهتم لأمر نفسها، هي من كانت في حاجة لمن يهتم بها. الفجوة بيني وزوجي تتسع كل يوم. مَرّة في منزلنا قلت مازحة أستجلي ردة فعل أمي:

-ماتخافش خنسة حتى أنا غالبا باش نطلق نرجعو نونسوا بعضنا.

هاجت أمي وماجت وهي تسمع تصريحي هذا، قامت من مكانها لتطردني من المنزل.

-آشنو الفال هذا اللطف تحبوني نموت بغصتي، زوز مطلقات في عام، آش يقولو علينا الناس؟ عايلة بايرة. برى تلهاي برجلك وحلي ساقيك مليح باش تحبلي، قاليك طلاق قاليك، مالا مساطة قومي عليَ بري لدارك.

كانت رسالة أمي أكثر من واضحة، خنسة أستاذة تستطيع أن تُعيل نفسها، والأكثر من ذلك ملف هجرتها إلى كندا قد تَمّ قَبوله هي إجراءات بسيطة وتبدأ حياتها من جديد،

خنسة تحمل شهادة تُؤهلها لمواجهة الحياة ولهيبها، أمّا أنا فكما قالت أمي لا أملك إلّا أن أفتح ساقيَ لا غير. إن حصل الطلاق فسأكون مُجبرة على أن أفتحهما بمقابل، فلأفتحهما الآن لأقِي نفسي من التشرد الذي يُلوح في الأفق.

كيومة يستطيع أن يتخلص مني بين عشية وضحاها دون أي تبعات معقدة ما لم أكن أُمّاً لابنه لابن الجيران، المهم أن أُنجب وأنا زوجة له.

المجتمع لا يرحم، وما دامت الرحمة غائبة في مجتمعنا فلا مُبرر لوجود الشرف والعفة.

عدت إلى المنزل خائبة المسعى. شقة فاخرة، حياتي جنة لكل من يراها من الخارج، بل هناك الكثير ممن يحلم بوُلوجها. لكنني لم أحصد منها غير التعاسة، الآلام، الحرمان. وجدت كيومة يستعد للخروج وهو يحمل حقيبته وأدواته استعداداً للسهرة التي يبيع فيها منتوجاته الخفيفة الوزن الغالية الثمن القوية المفعول.

لحظتها خطرت لي فكرة دعوة أحمد إيراتيك إلى الشقة. كان مشروع الخيانة والبحث عن الجنس خارج أسوار الزواج في السابق بحثاً عن المتعة فقط، لكنه الآن أصبح مشروع حياة أو موت لأكتسب شرعية الاستمرار في الحياة الزوجية، دعم أُسرة كيومة المُؤقت والذي لن يصمد طويلا أمام الإصرار الذي يزداد حدة يوماً بعد آخر، أراه كل يوم في عينيه في تصرفاته في إعراضه عني كأنني لا شيء في حياته. أعرف ذلك جيداً لكن عندما سأُصبح أمّا لابنه من أي رجل كان فتلك هي الشرعية الحقيقية والأبدية، سيختلف الأمر كثيرا أقلُّها لن يستطيع طردي كأنني قطة شاردة، ستصبح الشقة من نصيبي وسيصبح مجبرا بقوة القانون بتوفير حياة كريمة لي ولابني ....

تلك الليلة استقبلت إيراتيك في شقتي... في عش الزوجية. وهو يُضاجعني كنت أتذكر خيانة زوجي لي في تايلاند. الغريب لم أشعر لا بالخوف ولا بتأنيب الضمير، يومها تمتعت بالجنس كأنني أمارسه لأول مرة. كان إيراتيك فحلاً أو هكذا بدا لي

مختلفاً تمام الاختلاف عن زوجي. الغبي أراد أن يقذف بماء الحياة خارج أسوار مهبلي، أصررت على أن يقذف به في الداخل، لأول مرة أُحس بدفء ذاك الماء المُقدس يُنعش أحشائي كنت متأكدة أن تلك الليلة أو الليلة التي ستليها ستكون بداية لحياة جديدة، ولمزيد من التأكد طلبت منه بأن يستأجر شقة أتقاسم معه دفع إيجارها لعشرة أيام كاملة. ما إن يخرج كيومة مع الساعة الثانية بعد الزوال حتى أغتنم الفرصة للذهاب إلى شقة أحمد الآخر مُتذرعة بأعذار شتى والتي لم يكن زوجي يكلف نفسه عناء الاستماع إليها.

في المساء أعود إلى المنزل مُرتوية الجسد. أعصابي لم تعد تتشنج لأتفه الأشياء، حينها تأكدت بأن الارتواء الجنسي مهم جداً لضمان التوازن النفسي والعصبي، هذا ما تأكدت منه بعد مغامراتي مع إيراتيك، صِرت أقل توتراً وأكثر تقبلاً لآراء الأخرين، غابت تلك الحساسية المفرطة، كما صرت أكثر قدرة على التفكير، عندما يغيب صراخ الجسد واحتياجاته يحتفظ العقل بصفائه، اكتسبت قدرة أخرى رؤية أخرى لمعالجة كل الأمور العالقة، تقربت من عائلة زوجي، قمت باستضافتهم أكثر من مرة، بل أحياناً عندما أروي عطش جسدي أُمُر مباشرة الى منزل حماتي حيث أنتظر كيومة هناك لأظهر عن قصد بمظهر المظلومة المهيضة الجناح، أحيانا كثيرة لا يأتي، أنام برفقة حماتي التي أصبحت حليفة لي، تستنكر على ابنها تصرفاته وتثني على صبري باعتباره عملا شهماً لا يأتي إلا من بنات الأصول والتربية الحسنة وبنات العائلات الكبيرة الشريفات العفيفات.

كنت في البداية أمام مشكلة حقيقية، فبوادر العادة الشهرية قد تأخرت ذلك الشهر، بِتُّ شبه متأكدة أنني حُبلى من أحمد إيراتيك لا من زوجي، الذي لم يعد في تلك الفترة يهتم بتاتاً بي لا يستجيب الى كل تلميحاتي الجنسية، أمام ما كنت فيه ولأدرئ الشبهة والشك كان يجب أن يضاجعني، رغم صعوبة الأمر وخصوصاً على امرأة جرح رجل كبرياءها، أن تقوم بالمبادرة الجنسية.

لكنني أرغمت نفسي على أن أطلب منه بطريقة أقرب إلى التوسل بأن يضاجعني أن يُدخل عضوه فقط ويقذف. استجاب بعد مدة ليست بالقصيرة، كان هذا كافياً لأُعلن بعد أسبوعين من آخر مضاجعة أنني حبلى. الخبر الذي استُقبل من طرف العائلتين بالزغاريد والأحضان، شخصان رأيت الألم وعدم الرغبة في أن يحصل ما حصل، أختي خنسة...، أمّا أن أرى في عينيْ كيومة عدم الرغبة في الإنجاب فهذا ما لم أتوقعه، وهذا ما طرد أية ذرة تأنيب للضمير كانت تلوح في الأفق. شعرت بالزهو كوني انتصرت عليه، رأيت علامة الهزيمة والانكسار في عينيه، رغم أن بعض الظنون قد ذهبت بي كل مذهب وأنا أحاول تفسير فتوره ومباركته الباهتة، أهو شك؟

كنت سعيدة بحملي. أَصَرّت حماتي بأن تُرافقني إلى طبيب النساء. وقتها فقط أدركت قيمة أو معنى أن تكون المرأة جميلة في عالم يعبد ويَتعبّد الصورة. في العيادة أحسست بأن الطبيب يتحرش بي، كانت طريقة لمسه لي فيها أكثر من شحنة، ولا أنكر أنني تجاوبت معه بتحفظ كبير، خصوصاً أن حماتي كانت برفقتي في غرفة الكشف.

في الكشف التالي ذهبت دونها لأتأكد من ظنوني التي لم تخب، ما إن رآني استبقاني الأخيرة عن عمد، كما كان أكثر أناقة من المرة السابقة. عندما دخلت حجرة الكشف بادرني:

-تبارك الله عليك ياسر مزيانة.

-شكرا مرسي ياسر جنتي دكتور.

قلتها وأنا أُحمّلها أكبر كمية ممكنة من الغنج والتأوه الخفيف.

لم يكشف عليّ، انغمسنا في قبلة طويلة بعد أن قام بإحكام غلق الباب، مارسنا الجنس، كانت لحظة لا تنسى. ظل منظر الطبيب يستهويني لسنوات عدة، استسلمت له وأنا أتذكر وأستحضر صورة أسامة، كم كنت أتمنى أن أتزوج طبيبا، لا يهم، اليوم أنا

أضاجع طبيبا، هذا يكفي في الوقت الراهن. حققت واحدة من أحلامي الجنسية. في حين لم يبادلني هو نفس الشعور، كان كل ما يهمه هو أن يقذف سائله ويرتاح يتصارع مع الوقت بعد أن أكمل قبلني قبلة أخرى طويلة وقام بالكشف علي، لم يعد يتقاضى الطبيب أجر ة الفحص، والأكثر من ذلك كنت على موعد في المرة الثانية مع هدية قَيمة هاتف جوال بقيمة ألف دينار.

في تلك الفترة قطعت صلتي بأحمد إيراتيك الذي لم يعد يستطيع صبراً. اقترح أن أتطلق ليتزوج بي، لم أكن مستعدة لأخسره باعتباره الأفضل من بين الثلاثة رجال الذين يُضاجعونني، هو الوحيد الذي يُرضي غروري وأنوثتي يجعلني أصل النشوة وأعانقها. الطبيب كان مُتعجرفاً يبحث عن اللذة لنفسه، بينما كان إيراتيك يسعى بكل ما أوتي من جهد لِيسعدني، ولم أكن أفكر البتة في الزواج به، لن يستطيع أن يوفر لي نصف المستوى المعيشي الذي أنا فيه وأُضحي بالغالي والنفيس كي لا أخرج من ذاك المستوى، لن أرضى بحياة أخرى أقل من هذا المستوى ما حييت.

كان يكفي أن أتذرع بشك كيومة أمام ايراتيك حتى يسكت ويقطع الاتصال بي ردحاً من الزمن إلى أن يعطش الجسد ويطلب المزيد، عندها فقط أبحث عن السبل والوسائل للقائه، وهو الذي يستجيب مهما كان الظروف. أذكر أنني هاتفته ذات صباح وكانت مداومته الدراسية ستبدأ بعد ساعة، طالبة منه أن يكون في الشقة بعد ساعتين على أبعد تقدير، دخلت إلى هناك قبلَه تقريباً بعشر دقائق ليدخل بعدي وهو يلهث.

-سمحني حبي والله توا خلطت تصور خلصت ثلاث بلايص للواج باش يخرج فيسع من طبرقة، قالك ما ينجم يخرج حتى يعبي هذا كلام.

أكثر ما كان يُعجبني في إيراتيك إقباله المُفعم بالوله الذي يُشعرني به كلما قابلته. لا يشبع مني البتة، مستعد هو لِلَحسي من أخمض قدمي إلى قمة رأسي، صحيح أنه يتوقف كثيراً في الوسط، لكن لا يهم كل ذلك يشعرني بأهميتي كأنثى عنده، بعد أن أخبرته أنني حامل.

-زعمة مني سلمى؟

-اعمل عقلك ايراتيك، عاملة حسابي من راجلي بطبيعة الحال.

الرجال أغبياء ويكونون أكثر غباء عندما يكونون أسيري حب امرأة أو شهوة إدمان... في هذه الحالة يكونون مستعدين للموت من أجل لعبة قمار، من أجل مبدأ، من أجل حب كرة بداخلها هواء، من أجل امرأة جميلة تطلق الريح من دُبرها وتحيض كل شهر... هؤلاء هم الرجال الذين يحكمون العالم، أنظر إلى الدمار الذي لحق الأخير لتُدرك قِمّة غباء هذا الصنف البشري التعيس.

سرعان ما مَلّني الدكتور، في الفحص السادس تعامل معي بشكل رسمي أقرب إلى الخشونة منه إلى ما كان في السابق. لم أستغرب تصرفه بل كنت أنتظره وأتوقعه، فعندما تُشارك المرأة وتمنح لأحدهم جسدها تكتشف بالوقت أثناء الاحتكاك إلى أي حد يمكن أن يضحي من أجلها من يشاركها الفراش، في الأخير بعد الكشف قال بلغة صارمة:

-اتركي سيدتي من فضلك ثمن الكشف عند السكرتيرة.

ما إن سمعت كلامه حتى ركبني وقتها عفريت ، دفعني إلى الانحطاط إلى ذاك المستوى من القذارة والاحتراف، فبعد أن صِرت أتلذذ الخيانة وأتلذذ كل شيء مُشين، لم أعد أشعر بتأنيب الضمير البتة حتى عندما كنت أرى كيومة كنت أشعر بالزهو والانتصار لأنني استطعت أن أخونه، أن أرُد له الصفعة، أن أرُدّ له الصاع صاعين، هو من خانني يوم زفافي، يستحق كل ما جرى له وما سيجري له، لأن الخيانة أصبحت هواية، لذَا قررت أن أحترفها، جميل أن أُجرب أكبر عدداً ممكناً من القضبان البشرية، أكبر عدد ممكن من مزامير الحياة المقدسة، صحيح أن الأجساد تتشابه لكن لكل واحد منها ردود فعل مختلفة على السرير، وهذا ما يصنع المتعة والجمال.

لم أعد أهتم لأمر أحد مهما كان، نفسي واحتياجاتها فقط، أعيش داخلها أتعبدها، إنه زمن الأنانية والخيانة والرداءة، يقولون جيل القذارة نحن، هو كما يقولون لكنهم نَسُوا ولم يتساءلوا من صنع هذه القذارة، الطبيب يُمارس الجنس مع السكرتيرة مع المريضة... جزار بشري أصبح هو وأمثاله، إلا من رحم ربك وهم قِلة، الأستاذ كذلك المحامي... الرذيلة هي الطابع الغالب والشرف استثناء، أستغرب كيف يستغرب بعض الناس هذه الأمور وهي القاعدة، الأستاذ يضاجع تلميذته، الصديق يخون صديقه...

نظرت إلى الطبيب بكل ازدراء، لم يكن يتوقع ردة فعلي، صرخت في وجهه ليسمع كل من في القاعة:

-ما تحشمش تبزنس عليَ ماتحشمش يا ناس أدخلوا شوفو.

استغرب ردة فعلي المفاجئة. هَمّ بإسكاتي، لكن بعد فوات الأوان، دخل أغلب من كان ينتظر في القاعة وهم يسبونه أشنع السباب، لم يُكلف أحدهم عناء سماعه، أو التثبت فيما صار، كل من كان في القاعة انتفض باسم الشرف المُزيف وهب للدفاع عنه، فتحوا لي الطريق واقترح أحدهم إيصالي إلى البيت وهو يمسح دموعي التي انهمرت دون إرادة مني.

استقليت أول سيارة أجرة اعترضتني وذهبت مباشرة إلى خنسة لأرتمي في حضنها وأسرد لها كل قذاراتي، أحسست أنني سأنفجر، يجب أن يخرج ما بداخلي يجب أن أتكلم لأرتاح، يجب أن أعترف أن تُسجّل الرياح، الهواء، الأمواج الصوتية اعترافاتي.

خنسة كانت تستعد للرحيل، ستبدأ الموسم الدراسي القادم في كندا. بعد عام سيلتحق بها أخي حَسّونة الذي هجرته حبيبة القلب بعد ست سنوات من الرغبة، الكذب، شيء آخر غير الحب، لأنه لا يستطيع أن يُؤمن لها الحياة التي تحلم بأن تعيشها. والتي أناضل أنا من أجل الاحتفاظ بها، هذه الحياة مهما كانت أصبحت في زماننا هذا أهم

من كل المبادئ والأحاسيس والعواطف... أهم من الحب، من الشرف، من كل ما قد يخطر على بال أحدهم.

أخي المحاسب في شركة خاصة بمرتب تسعمائة دينار، والذي يقترض مني أنا العاطلة عن العمل في نظر المجتمع والقارئة الجيدة لأحكامه وتقلباته، يقترض مني أحياناً مبلغاً تافهاً ليُغطي احتياجات شهره. المرتب لا يُغطي احتياجاته كشاب تربّى على مستوى عيش معين، فكيف سيُكوّن أسرة وينفق عليها؟ كما أرى الخصاصة والحرمان والتقشف في وجه إيراتيك الأستاذ، ملابسه الرثة... في حين... لكنني رأيت النعيم والخير والثراء عند كيومة، مُروج حبوب الهلوسة، وعند الطبيب الجزار الذي اعتلاني بمبلغ ألف دينار... هؤلاء من يجنون اللذة تُفتح لهم الأبواب وتَرفع لهم الجميلات سيقانهن، هؤلاء من يعيش هنا في هذه الأرض.

أمثال حسونة وخنسة وإيراتيك... يتنفسون فقط، وعليهم أن يسرقوا اللذة خُفية وفي غفلة من أصحابها ومُلّاكها، أختي خنسة بعد أن أخبرتها بالتفصيل المُمل وأنا استشعر لذة تضاهي لذة الفعل، بما أسرد أخبرتها بكل ما فعلت وأتيت مما اعتبرته أنا جُرماً حراماً. قالت وهي تحتضنني وتقبلني:

-أنت تلميذة جيدة استطعت أن تتعلمي في ظرف وجيز ما تعلمته أنا خلال سنوات، لم تفعلي شيئا عزيزتي، دافعت عن نفسك بنفس الأسلحة التي يستعملها عدوك، أو بنفس الأسلحة التي يشرّعها المجتمع الذكوري.

الخيانة في مجتمعنا بالنسبة إلى الذكر مغامرة، بل الأكثر من ذلك ترفع من قيمته في الوسط الذي يعيش فيه، وبالنسبة إلى المرأة عار وانحطاط، مجتمع مريض. كأن المرأة عندما تخون يُضاجعها قرد، ثور... كائناً آخر وليس نفس الذكر الذي يصفق له الجمع الغفير في المقاهي والشوارع وهو يسرد بفخر غزوه المظفر. كيف يستقيم الأمر أن يخرج شريكا الجريمة نفسها، الذكر بتاج الفحولة والمرأة بتاج العار؟.

لا عليك عزيزتي لا عليك، دافعت عن نفسك، عن رغباتك عن كونك امرأة كائناً حياً له احتياجات له مطالب يجب أن يسعى إلى تحقيقها، نحن نسعى إلى ملء بطوننا كل يوم أكثر من ثلاث مرات في اليوم حتى أصبح الكثير منا بوزن الفيل، نُشرّع لِفعل ذلك كل شيء، كما صار الأكل فنّاً من الطبخ إلى طريقة التقديم، لكننا نغفل أن احتياجات الجسد ليست في الأكل فحسب، الجنس جزء كبير من هذا الاحتياج وهو لم يصبح بعد حتى في طريق الفن، ما زالت تحكمه الطرق البدائية الحيوانية وما زلنا نمارسه كذلك. عيبك حبيبتي وستدركين هذا مع مرور الوقت، أنك تبحثين وتكافحين من أجل تحيق احتياجاتك... لم تحققي بعد أحلامك ولا تسعين إلى تحقيقها لأن السعي إلى تحقيق الأحلام يبدأ بالإدراك أولا... بينما السعي إلى تحقيق الاحتياج هو غريزة حيوانية....

فجأة تذكرت شيئا مهمّا وسألتني: تعرفين أبو ابنك؟

-أجبت نعم.

من هو؟

-إيراتيك.

استغربت إلى حد الاستنكار جوابي، وقفت تتأملني برهة من الزمن، رأيت في عينيها أشياء كثيرة تدل على الاستنكار على تجاوزي الحد المسموح به ربما. أردفت قائلة بعد صمت طويل ظننت أنها لن تتكلم بل شعرت بها تُريد أن تهم بمغادرة الغرفة:

أتعرفين سلمى لو خُيِّرتْ أي امرأة عاقر مثلي بين أن تُضاجع الشيطان لتصبح أُمّاً أو تبقى كما هي أو كما يسمونها أرضاً بوراً لاختارت مضاجعة الشيطان، أتعرفين سلمى أن الجنس هو الاحتكاك المادي الذي نريد منه أن نستقرئ الغيب، و نعبر إليه، نخترقه عبر التحام تلك البوابة وذاك المزمار، ولما كان مُغلفاً بالكثير من اللذة والمتعة فإننا لا ننتبه إلى تلك القيمة الروحية للجنس، لكن عندما يعجز هذا الاحتكاك عن استقراء الغيب والعبور إليه عندها فقط نُدرك تلك القيمة، عندها فقط يبدأ الجنس

يفقد لذّته ومُتعته تدريجيا ليصير في الأخير عذابا، لأنه ببساطة عجز عن استقراء الغيب عن اختراقه عن تحقيق الخلود... أسألي أية عاقر مثلي ستجيبك نفس الجواب بأساليب مختلفة ربما. الجنس عزيزتي صلاة حقيقية يجب أن تكون في محراب نظيف وبجسد نظيف لذا خلق الانسان مؤسسة الزواج لتمارس فيها هذه الصلاة.

أنت حبيبتي لم تضاجعي شيطاناً ولم تكوني عاقراً لتفعلي ذلك، ضاجعت إيراتيك لتحصلي على ما تعتقدين الساعة حقك في الأمومة، في استمرار الحياة التي تريدين أن تعيشيها.

لكنك بذلك ضيعت حقوق أناس آخرين أولهم ابنك، ضيعت حقه في أن يحمل لقب أبيه الحقيقي، ضيعت حق أسرة كاملة في الفرح، ستجعلينها تفرح بولد ليس من صلبهم، كيومة وحده من سبب لك الأذى، وأنت بردة فعلك هذه التي تجاوزت كل حدود القيم الإنسانية. بِت أرى الساعة أنه لم يسبب لك شيئاً، لأنه كان واضحاً معك منذ البداية وأنت قبلت واخترتِ الاستمرار معه، أنت تُسببين الألم لكثير من الناس الذين أحبوك، شرعت في زرع الألم، ومن يزرع الألم سيحصد الأشواك تذكري ذلك جيدا...

أحيا كلام خنسة في نفسي بذرة الضمير الميتة بداخلي، أحسست أنني مجرمة، كنت كمن كان يبحث عن مُفتي على هواه ليُحلّ له أعماله وإذا به يُجرّمه، كنت كمن يشتري باعترافه صكوك الغفران، لم تعد المبررات التي نسوقها لتبرير أعمالنا تقنعنا و تشعرنا بالراحة والانتصار، ربما نستطيع أن نُقنع بها الغير لكننا نبقى عاجزين كل العجز عن إقناع أنفسنا، ومن هنا يبدأ مشوار كرة الثلج، التي تكبر كلما تدحرجت أكثر إلى أن تصطدم بالقاع وتَتَفتّت، ربما سألقى نفس مصير كرة الثلج، أنا الآن في اتجاه القاع ورغم ذلك فأنا أتلذذ بنُموي المزيف الذي سيتفتّت مع أول اصطدام.

عندما شَرّع المجتمع أو النظام العاهر القتل من أجل كل ما هو مادي بدأنا منذ ذلك الوقت بقتل كل شيء في وضح النهار، أصبحنا نقتل كل يوم أجمل معاني القيم السامية الإنسانية ونحن نُعلل ذلك بمجموعة من القيم الأخرى التي بتنا نؤمن بها لأنها القادرة على تغطية قذارتنا وإلباسها رداء المشروعية. تطورنا، صِرنا نُطالب بحرية الجنس، بالحرية المثلية والحق في ممارستها علنا، صرنا نطالب باسم الحرية بكل ما من شأنه أن يساعد على نشر الميوعة والانحلال والويل ثم الويل لمن يستنكر ويحارب هذا التيار سيصبح مُتخلفاً، منبوذاً، رجعياً، سلفياً... سيرتدي جبة الخزي والعار، والأهم جُبة الإقصاء من مجتمعنا الذي حدد ضوابط جديدة للانتماء إليه والاستفادة من خيراته.

كيف بِت أنا الخائنة لكل المبادئ والقيم الإنسانية، أشعر بالفخر كلما ذكرت حماتي شهامتي وتضحيتي وشرفي الناصع، لا لشيء إلا لأنني أنتمي إلى عائلة حسب زعمها محترمة، من يملك قرشاً بل مظهرا من مظاهر النعمة يصبح آليا في مجتمع كمجتمعي محترماً، أنا الشريفة بين صويحبات حماتي ومجتمعها، وأنا التي كنت قبل أن أحضر مجلسها أمص قضيب ايراتيك طالبة منه أن يقذف بمائه داخل أحشائي، هذا الماء ستُمسكه غدا حماتي بين أحضانها بكل حب بعد أن يتحول إلى كائن حي، وستداعبه كما داعبت أنا قضيب صاحبه، أنا التي سأنسب ابن إيراتيك لكيومة وأجعله يحمل اسمه لمجرد أنني أحسست بالإهانة التي شّرّعت لي عمل كل هذا.

أنا سلمى ابنة هذا الزمان، سلمى التائهة تتعبد في محراب فرجها، تعبد السيارة، تعبد الشقة الفاخرة والملابس المطرزة الحريرية، مستعدة لفعل أي شيء من أجل أن أُحافظ على أشيائي الثمينة، المهم شأني شأن كيومة أن أكون أكثر حذراً، عفة في نظر من حولي، وأكثر نفاقاً، أكثر انفصالا عن نفسي وواقعي، لم يعد يهمني من أمر الأخلاق والقيم أي شيء، صرت أشبه إلى أبعد حد زوجي.

أذكر أنني سألته مرة عن الضمير فقال:

إنه لا يعرف لهذا المصطلح وجوداً ولا يعرف له معنى0 ليس كيومة وحده بل كلنا إن لم أقل أغلبنا كيومة، كل بحسب قدرته واجتهاده. الفرق فقط إلى أي حد يمكن أن تُوصله جرأته وإقدامه، فقط هذا ما يشكل الفارق فحسب. كل الأشياء تُساعد على نمو أخلاق هذا الزمان أو هذا الجيل، الكل تنكر للقيم الإنسانية، تلك القيم صارت شاذة في مجتمع شاذ. ..

ايراتيك

. أخشى ما أخشاه أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه الخيانة وجهة نظر

-

تعرفت إلى سلمى في رحلة البحث عن دواء للخيانة، فسقطت فيها، بل تمرغت وأنا أتمتع بها، أنكرت نقاء نفسي ضيّعتُه لم يعد له وجود، صارت سلمى هي المحور هي كل شيء، كيف؟ لا أعرف هل كيومة لعنتي أم أنني لعنته، لم أعد أملك أمر نفسي بعد معرفتها، بل بعد أن ذقت حلاوتها، ألهذا الحد يمتلك الجسد الجميل سلطة على غيره أو بالأخص على أمثالي الذين لم يعرفوا طوال حياتهم إلّا الحرمان... كان الجمال والمال غائبين عني، عن عائلتي عن عالمي التعيس. سلمى وأختها خنسة كنت أتمتع بمجرد التواجد في منزلهما، كان منتهى أحلامي وقتها أن أُضاجع سهام خادمة المنزل، لكنني الآن أُضاجع سلمى الجميلة، أذوب وأُسافر في جسدها الجميل أتمتع بصوت تأوهاتها وهي تطلب مني المزيد، سلمى التي دَخلَت حياتي دون سابق إنذار ربما في لحظة ضعف، ربما بعد أن جرحها كيومة كما فعل مع ريم، لم تجد إلّا إياي لأضمد جِراحها كما فعلت ريم من قبل.

السؤال: لماذا أنا؟ ولماذا أقبل بهذا الدور المُشين؟ رغم إيماني ووعي الكامل بأنني صاحب مهمة بعيدة كل البعد عن الحب والعواطف، لا أقل ولا أكثر. ورغم ذلك كلما مَرّ في بالي هذا الخاطر طردته. لماذا أفعل ذلك؟ لأنني أريد أن أعيد تجربة فاشلة أخرى شبيهة بتجربة ريم، هذه المرة يختلف الأمر، يا لي من أحمق عن أي فشل أتحدث، أمثالي لم يعرفوا يوما النجاح حتى يتكلموا ويحددوا مفهوماً واضحاً للفشل

نحن أمة المطحونين المهمشين مازلنا تتصارع مع رغباتها وغرائزها ونتناحر من أجل تحقيقها وإشباعها، نحن أمة لا تملك أحلاماً. لأن الأحلام تحتاج إلى رؤية، برنامج، إصرار، إرادة... نحن أمة تتقاذفُنا الرياح كيفما شاءت، نعيش يومنا لحظة بلحظة، لم نُخطط له ولا نخطط لما سيأتي بعده، ما يأتي به اليوم نقبله نتأقلم معه، لم نفكر بعد في صناعة أيامنا لأننا نعتقد جهلا أن ذلك حرام، لم نفكر يوما بصناعة السعادة لأننا نعتبرها قَدَراً، حظاً، لم نُفكر في صناعة النجاح لأننا نعتبر ذلك نصيباً لم نفكر.... ولم نفكر.

أنا أحمد إيراتيك أعرف بل متأكد أنني في الطريق الخطأ، ورغم ذلك أُصر على المضي قُدما تلبية لنداء الجسد لا غير، لنداء المتعة واللذة. نحن شعب أسير اللذة والمتعة كالذباب ندور وندور حول الأشياء ذات المذاق الحلو، ندور فقط غير قادرين على أن نصنع العسل وعلى أن نصنع خلية للعمل.

لم يُؤثر ارتباطي بسلمى في حياتي الشخصية فقط، بل تعدى إلى ما هو أبعد ليُؤثر في حياتي المهنية، ليؤثر في أجيال لا ذنب لهم. انضممت إلى قافلة الأساتذة غير المباشرين لعملهم والذين تجاوز عددهم بحسب إحصائيات تلك السنة أكثر من ثلاثة آلاف أستاذ غير مباشر. النظام والجو السائدان والقوانين تساعد وتدعم الراحة على حساب العمل، أغلب الأساتذة الذين لم يستطيعوا أن يتحولوا إلى جزارين لم تساعدهم الظروف، آثروا الانسحاب والتمتع بالراتب دون عمل، الكل يتذرع بذريعة ويقتنع بها والأكثر إيلاما أنه يُقنع بها الآخرين بما فيها الإدارة والوزارة نفسها، والويل ثم الويل لمن يتعدى على هذه الشرذمة وهي تُمارس حقوقها إما في الابتزاز أو في عدم العمل.

سيجد جحافل النقابيين تحت شعار انصر أخاك ظالماً كان أو مظلوماً في انتظاره أصبح قطاع التعليم في بلادي من أكثر القطاعات المُضربة عن العمل، في تلك الفترة يكفي أن يقوم أحدهم بمشاكسة أستاذ أو سبّه وهو شيء وارد جدا نتيجة الاحتكاك المباشر بالتلاميذ والأولياء، حتى تدعو نقابات التعليم لتلك الجهة إلى إضراب، بعد

ذلك تتضامن كل الجهات مع الأستاذ المتضرر، كأن البلاد لا يوجد فيها لا قضاء ولا مؤسسات...

غَدَا الأستاذ نتيجة التهميش والإقصاء المُتعمد الذي يعيشه يُبرر لنفسه عمل كل شيء، وهكذا انضممت مبكرا إلى زُمرة الأساتذة من هذه الشاكلة، استغللت مشاكلي العائلية في الظاهر مُجبراً التلاميذ الذين لا ذنب لهم ولا علاقة لهم بما أعيشه، بأن يدفعوا ثمن فاتورة هجر ريم لي في الظاهر وانغماسي في حب سلمى ولذتها في الباطن، تلك السنة كنت أبرر غيابي بشهادة طبية تِلو شهادة. أذكر أنني مرة كنت سأباشر بل كنت داخل قاعة الأساتذة، تلقيت مكالمة من سلمى تخبرني بضرورة الحضور إلى عش الغرام والعشق في تونس في غضون ساعتين، تذرعت بمقابلة المحامي باعتباره هو من اتصل بي لأمر جلل لأنني نسيت موعد جلسة صُلحية في المحكمة للطلاق من زوجتي ريم.

تلك الجلسات التي لم أحضر منها ولا واحدة، قال لي المحامي: بأن غيابي لثالث مرة سيجعل القاضي يستجيب لمطلب المدّعية التي لم يعد يهمني أمرها في شيء، والتي صارت خارج دائرة حساباتي كلياً.

ريم ظلت حاضرة في حياتي فقط عندما أُقابل مدير المعهد الذي أُدرس فيه، حمدت الله أن هذه المشكلة جاءت في الوقت المناسب لأتخذها غطاء ومبررًا للغياب، حتى ولو لم تكن موجودة فسأمرض، نعم أطباؤنا يعطون شهادة مرضية طويلة الأمد للأصحاء من موظفي الدولة ويبخلون بها لمن يستحقها من المواطنين الفقراء، غَدوْنا كلنا في مركب واحد، أنت مستعد لتدفع ستحصل على ما تريد، المهم أن يتوافر عندك ما ستدفعه.

بعد انفصالي عن ريم وعودتي إلى تونس متمتعا بإجازة مَرضيّة طويلة الأمد لأتفرغ لحب سلمى، عادت بي الحياة إلى الوراء إلى الزمن الجميل كما اعتدنا أن نُسمي

الماضي في حياتنا، نحن أمة تعيش كل شيء في الماضي، لا نتمتع بالحاضر إلّا عندما يصبح ماضياً، وقتها نستحضره ونكتشف أننا كنا سعداء ولم ندرك ذلك ونكون بذلك قد ضيعنا الحاضر ولم نخطط للمستقبل واستحضرنا الماضي الذي لم نتمتع به كما يجب، هكذا و دواليك،ِصرنا نجترُّ دوماً ماضياً نرى فيه السعادة. أنا في تلك الفترة لم أكتفِ باستحضار الماضي بل بت أعيشه بأغلب تفاصيله مع فرق بسيط وجوهري استيقظ منتصف النهار هذه المرة، لا أجد مصروفي اليومي من أمي على الطاولة، لكنها لا زالت حريصة على وضع صينية فطور الصباح التي أصبحت تليق بمقام أستاذ، بِتّ عظيماً في نظر أمي وأبي فقط، أما في نظر نفسي وأصدقائي فلم يتغير الشيء الكثير، لم أساهم في تغيير أي شيء في منزلنا الذي طالما انتقدته، غرفتي ما زالت كما هي، بعد مغادرة ريم للمنزل جلبت بيت الصالة الخاصة بنا والتلفاز المسطح وأهديتهما لأمي التي فرحت بهما فرحة كبيرة.

استيقظ كالعادة غالباً كما في الماضي الذي بات جميلاً في منتصف النهار، أجد سروالي مُبللا من أثر الاستمناء. في الأيام التي لا أمارس فيها الجنس مع سلمى أقوم باستحضار صورتها وهي عارية لا تفارق صحوي ومنامي لأستمني عليها، أو أشاهد بنات جوجل وهن عاريات في رحلة البحث عن واحدة مُحاولا أن أُقنع نفسي بأنها أجمل من سلمى، دائما أخرج بقناعة بأن حبيبتي أجمل النساء.

بعد الدش أتجه مباشرة إلى مقهى كيومة في الصباح أو منتصف النهار، تكون هادئة، أجد دوما عبشة وأبا كيومة هناك، أحتسي فنجان قهوتي بصمت لا عمل لي إلا انتظار رسالة من سلمى.

بعد شهر العسل أو أسبوع العسل الذي قضيته مع سلمى في الشقة التي استأجرتها بمبلغ خمسين ديناراً لنصف يوم وسط حي راق في العاصمة، في مكان لا يمكن أن تمتد إليك فيه العيون والشرطة، رغم أن الكل يعرف الغرض من استئجار شُقق بطريقة كتلك، لكن المبلغ يكون كافياً ليُخرس الأفواه ويُجمد المتابعة. سلمى هي من

اقترحت في البداية تقاسم مبلغ الاستئجار، لكنها تراجعت كأنها لم تقل أي شيء كما أصبحت كثيرة المطالب.

-ايراتيك وانت جاي جيب معاك بيتزا من.... وكازوز وكارطة تعبئة روشارج.

-إيراتيك وأنت جاي أمانك حُبي جيب لي معاك برفان" سِي"

الغريب أني كنت وما زلت مُستعداً لِبيع نفسي لألبي لها كل طلباتها الكثيرة التي لم يكن من بد من الاستعانة بقرض من البنك لتغطية المصاريف الجديدة. المرتب لم يعد يكفي لتغطية مصاريف عشرة أيام. كنا نلتقي تقريباً كل يوم من الساعة الثالثة بعد الزوال إلى السادسة أو السابعة مساء بحسب مزاج سلمى، هي من تقرر كل شيء في كل شيء.

-امانك ايراتيك مص لي نتاعي شوية عضني عضة خفيفة.

-ايه هكاك.

-ايراتيك تعمل لي مساج أمانك.

-ايه حبي.

-سلمى تحبيني.

-هههههههههههههه ايه نحبك علاش انا معاك مالا نلعب.

في الليل كنت أذهب بكل وقاحة كالعادة إلى مقهى كيومة، جل الأصدقاء غابوا حتى كيومة لم يعد حضوره كما كان، أصبح أكثر شروداً وانطواءً أو ربما كان يتجنب لقائي، كما أصبحت أتجنب لقاءه، حسونة وحده من يأتي وريونة في حين تم القبض على حويتة ويُقال بأنه اعترف ببيعه للمخدرات، التهمة التي يقول الناس بأن حويتة اعترف بها نيابة عن كيومة، الأخير أصبحت سيرته على كل لسان باعتباره تاجراً ومروجاً للمخدرات وحبوب الهلوسة، بِتُّ أميل إلى الاقتناع أن ما يُقال أقرب إلى

الصواب لأن الحياة التي يعيشها الأخير من المستحيل أن تكون حياة صاحب مقهى في منطقة صغير كهذه.

حسونة كان يستعد هو الآخر للهجرة إلى كندا بعد فشل مشروع زواجه واكتشافه بأن الحياة في تونس وفق المعطيات الحالية تكاد تكون مستحيلة، اقترح عليَ أن أبحث عن إعارة إلى الخليج أُسوة بأغلب أساتذة اللغة العربية باعتبار المادة لا مستقبل لمُدرسيها في بلاد تؤمن بالفرنكفونية وتتنفس هواها.

بعد خبر حمل سلمى الذي أفقدني توازني صِرت شبه متأكد أن الذي في بطنها هو من صُلبي، الغريب أنني سمعت الخبر في مقهى كيومة حيث أعلن الخبر للجميع وهو يتبجح بانتظاره لِولي عهده الذي سيُشرّف بعد أشهر قليلة، ليلتها لم يغمض لي جفن، اتصلت بسلمى أكثر من مرة لكنها لم تكن تجيب، شعرت بالغيرة، هل يضاجعها بعد أن تعود من شُقتنا، غِرت، كرهت كيومة، ليلتها صِرت اعتبر سلمى مُلكاً لي وحدي بدأ الشك يقتلني، حتى بعد أن سألت سلمى متوسلا بأن تخبرني الحقيقة. قالت بحزم أن الابن ابن زوجها وأن هذا لا ينفي هذا، وبأنها تمار س الجنس معه كل ليلة لتحطم بذلك الصورة التي رسمتها في ذهني كون كيومة رجلا عاجزاً جنسياً، كدت أسألها إذا كان يضاجعك كل ليلة فلماذا أنا؟.

قرأت علامة الغضب في عينيها وعدم رغبتها في الاسترسال في موضوع كهذا، فآثرت الصمت، لم أكن أجرؤ على إغضابها البتة. بعدها أصبحت لِقاءاتنا مرة في الأسبوع أو في عشرة أيام، زاد هذا من توتري وفقداني لأعصابي، لم أعد أطيق صبراً عليها، أخبرتها أكثر من مرة بأنني مستعد للزواج بها إن هي تطلقت من كيومة لكنها دوما تتذرع بأن الوقت لم يحن بعد.

-سلمى بالله قولي. ثم أمل ولا لا؟

-بالطبيعة ثم أمل ايراتيك....

كيومة المعراج الأخير

لو كان الاستبداد رجلاً وأراد أن يحتسب بنسبه لقال: أنا الشر وأبي الظلم وأمي الإساءة وأخي الغدر وأختي المسكنة وعمي الضر وخالي الذل، وابني الفقير وابنتي الحاجة وعشيرتي الجهالة ووطني الخراب.

بدأت رائحة قذاراتي تفوح، سيرتي أصبحت على كل لسان بعد حادثة اعتقال حويتة والتحقيق معي لمدة ثلاثة أيام. استيقظت على الحقيقة المرة التي كنت أهرب منها. تابع النظام يظل تابعاً لا قيمة له، النظام يصنع كل يوم آلاف التابعين له، ورجال النظام من الصف الأول تابعو إبليس لم تعد تكفيهم العمولات التي يجنونها منا وهم مرتاحو البال في مكاتبهم المكيفة.

نحن ـالتابعين الذين نعمل على الأرض ـ أصبحنا مُهدّدين بالسجن في كل لحظة، ليس من رجال حراس القيم الإنسانية كما عَلّمونا في السابقن هؤلاء اندثروا لم يعد لهم وجود انكمشوا، أصبحنا مهددين بالسجن نتيجة التنافس المحموم فيما بيننا، هذا النظام يحمل بذرة نهايته بداخله، ستندلع عاجلاً أو أجلاً حرب شعواء ستأتي على الأخضر واليابس، أصبح لكل رجل كبير أو ضفدع كبير من رجال النظام أتباع لهم مساحة ولهم مجال، من يخترقه من الطرف الآخر يجد النار في انتظاره، دسائس، مكائد، ِصرت أمشي في حقل من الألغام، الحفلات التي كانت تدر عليَ في السابق أرباحاً طائلة، كنت غالباً ما أجد هناك منافساً وحيدا إن لم أكن وحيداً، أصبح عدد التجار عفواً عدد المُروجين يضاهي عدد المستهلكين، مما جعل التنافس يأخذ مجرى

آخر. كل واحد يحاول التخلص من الآخرين عبر دفع رجال النظام إلى اعتقال المنافس، أصبح من يدفع أكثر هو من ينال الحظوة.

تراجعت أرباحي وارتفعت العمولة أي معادلة هذه؟؟ كنت محظوظاً جداً لأنني من الجيل الأول للمُروجين لحبوب الهلوسة أبدو أمام زملائي الجُدد إمبراطور زمانه في حين أبدو مقارنة مع رجال النظام مجرد قزم، الطبيب أو الصيدلي أي كان لا أعرف صفته، يقطن في أرقى أحياء البلاد، يمتلك أكثر من سيارة، أكثر من مشروع، هو في الأول والأخير مجرد موظف، بل الأكثر من ذلك رئيس جمعية مكافحة الإدمان والهلوسة تستضيفه وسائل الإعلام في أحيان كثيرة ليُبرز للناس والعامة الخطر الذي يتهدد الشبيبة من تناول هذه السموم كما يُسميها، أذكر أنني قابلته في بداية مشواري مرة واحدة، هو الآن مرشح لتحمُّل حقيبة وزارة الصحة دون منافس، بل بالعكس الكثير من الأصوات تُنادي وتستغيث وتناشده أن يتفضل سيادته باعتباره رجل مبدأ بقبول هذا المنصب لأنه القادر على الخروج بالوزارة من الخندق الذي توجد فيه.

كل هذا لم يشفع لي في الأخير تعرضت إلى كمين كالذي يتعرض له مستهلكو الخمر، يشتري الرجل منهم الخمر من المركز التجاري بفاتورة ويدفع ثمنها وبعد ذلك توفقه دورية لتحجز بضاعته وتحرر له محضراً، لست أدري لماذا لم يتدخل رجال الكمين الذين قالوا إنهم كانوا يتتبعون خطواتي عندما كنت أستلم البضاعة من الرجل في الفندق، لماذا تدخلوا بعد أن دفعت ثمنها ودفعت العمولة، هذه المرة لم تنفع كل توسلاتي وكل المبالغ الطائلة التي وضعتها رهن إشارتهم، كان الهدف هو أنا كانت الأوامر تقضي بأن أدخل السجن. هذا ما قاله لي تابع إبليس: السجن بالنسبة إلى المُروج والتابع شرف كالسياسي يزيده قيمة ويُعطيه شرعية التواجد في ميدانه، لماذا أنت خائف؟ أنتم التابعون للنظام كالسياسيين تتمتعون بوضع خاص داخل السجن، هو عبارة عن فندق بالنسبة إليكم، لماذا أنت خائف من خوض تجربة كهذه؟ أنت مخطئ.

قلت محتجاً:

- العقوبة سيدي أكثر من ثلاث سنوات سجناً.

- المشكلة ليست في المدة أيها التابع أنت أصبح لديك ما تخاف عليه، امرأة جميلة رصيد مالي في البنك كل هذا جعل تفكيرك عليلاً. أنتم التابعون كالسياسيين صديقي لا تقضون كل المدة التي حُكمتم بها، تخرجون قبل الأوان بكثير أو تموتون داخل السجن، أنت وطاعتك واستعدادك هناك ستُعرض عليك كما تُعرض على السياسي خطط وبرامج أخرى، قد تخرج أقوى مما كنت أو أضعف بكثير أو نكرة، أو تخرج جثة هامدة إلى المقبرة.

كنت أذكى منهم جميعاً اعترف حويتة بأن البضاعة بضاعته باعتبارها كانت في سترته، اعترف بمقابل بطبيعة الحال أن أتكفل بعلاج أمه المريضة وبراتب شهري يصلها ويصله إلى السجن. لكنهم قتلوا حويتة داخل السجن لم يمر على وجوده هناك أكثر من شهر ليأتي خبر مقتله. أهي رسالة واضحة لي؟

هذا الخبر الذي هز كياني جعل النوم يهجر مضجعي لأسبوع كامل، كما أصبحت سيرتي على كل لسان، مما جعل أعمالي كلها تتدهور الحرفاء لم يعودوا يقصدونني أصبحت ورقة محروقة، ورغم ذلك تلقيت إنذارا شديد اللهجة بدفع العمولة وفي وقتها، عندها عاودت الاتصال بخادم إبليس والخوف يقتلني، متوسلاً طالباً منه أن يرحمني أن يعفيني.

-هههههه دخول الحمام كيخروجوا تستكرز تولي لاباس غني ومن بعد تقول سيبوني لا بابا.

-قداتش يلزم باش تسيبوني؟

-هههههههه هاك جيت للثنية تو.

-ايه قداش يلزم؟ قلي أمانك.

-اسمع كيومة احنا مازال حاجتنا بيك باش نرجعك تخدم خير من قبل ما تخافش نعرفك خايف منين قتلو صاحبك في الحبس.

-ايه سيدي ايه أنا خايف.

-ما تخافش باش نعطيك سلعة أخرى مطلوبة مش نرمال وعقوبتها أقل برشة من لي تبيع فيها عام إلا طارت حبس.

لست أدرى ما الذي جعلني أشعر بالنفور بل بالهلع عندما اقترح عليَ ترويج الحبة الزرقاء، قال إنها محرك العصر، محركات العرب كُلُّها أو أغلبها قد أصابها العطل وبأن الغالبية من الناس شِيباً وشباباً تبحث عن الإثارة، عن المتعة. أكنت متخوفاً من عدم قدرتي على ترويجها أم هناك شيء آخر جعلني أنفر منها.

خرجت يومها من مكتب خادم إبليس وقد عاد بعض الاطمئنان إلى قلبي، خرجت محملاً ببضاعة جديدة الحبة الزرقاء، "الفياغرا".

لماذا عندما يستبد بي اليأس وتُغلق الأبواب في وجهي أكون على موعد مع حبة لتفتح لي الأبواب وتُعيد الهدوء والتوازن إلى حياتي المبعثرة. عندما عَرضت حبتي الجديدة لم أُصدق الإقبال الكبير الذي حصل عليها، الكل يتهافت لشراء المحرك الأزرق كأن باقي المحركات الطبيعية قد أكلها الصدأ ولم تعد قادرة على التحرك والانتصاب دون هذه الحبة السحر. الغريب كان من بين حُرفائي نساء قلن إنهن يُعطين الحبة لأزواجهن لعشاقهن دون أن يشعروا بذلك ليتمتعن بليال غابت عنهن زمناً طويلاً.

أعادت الحبة بعض الهدوء النسبي وأعادت الأرباح إلى سابق عهدها. لم أفكر بتاتاً في استعمال الحبة فالفجوة بيني وبين زوجتي تتسع كل يوم، صِرت أتحاشى مُضاجعتها كما صارت هي على غير عاداتها تتحاشى ذلك أيضاً، بعد أن حبلت، مهمتي بالنسبة إليها انتهت، لم تعد تتحرش بي كما في السابق، لم تعد تطلب مني بتوسل أن أُدخله وأُخرجه فقط، أن أقذف سائلي... في المرة الأخيرة عندما أردتُ أن أعتليها قالت بالحرف الواحد:

-إلا كنت باش تطلع كي الفروج وتهبط فك علينا بلاش.

تقوقعت في مكاني، تصبب العرق من جبيني، كنت على وشك أن ألتهم حبة من حباتي لكنني تذكرت أنني لا أتمتع بممارسة الجنس معها، كنت سأضاجعها من باب الواجب ليس إلّا ظنا مني أنّها في حاجة الى ذلك.

كل هذه الأشياء جعلتني أُصر وأعاود البحث عن ريم، صار طيفها لا يُفارق خيالي في صحوي ومنامي، الناس تشتري الحبة الزرقاء لاستحضار القوة الجنسية، وأنا أدخن الماريخوانا وأتناول الاكستازي لأُقبر آخر ذرة للرغبة في جسمي التي كلما استيقظت تذكرت ريم، لم يكن من بد إلا الذهاب إلى مدينة صفاقس للبحث عنها، أعرف عنوان منزلهم سأنتظرها هناك إلى أن تخرج أكيد ستخرج وأكيد سأراها.

عندما وصلت إلى هناك كنت أمام مفاجأة لم أتوقعها أبداً، اعتقدت بأنني سأجد فتاة مهيضة الجناح مُدمرة مُطلقة، ربما هكذا ظننت سأجدها نصف مومس كما جرت العادة في مجتمعي أن يُنظر إلى المطلقة وأن يُصنفها في هذه الخانة.

لكنني وجدت امرأة أخرى بمواصفات أخرى لم أكن أعتقد أن ريماً التي عرفتها يوما هي التي وجدتها أمامي يومها، رابطت أمام منزلهم داخل سيارتي، خرجت أختها الصغرى التي كانت على معرفة بي وبعلاقتي بريم، رجوتُها أن تدلني على مكان وجود أختها، تجاوبت معي لكن بشرط ألّا أذكر أنها هي من دلتني على عنوان الشركة أو المصنع الذي لا يبعد كثيراً عن المنزل، في البداية اعتقدت أنها تعمل موظفة، عاملة، خياطة، شيء من هذا القبيل. هناك عندما سألت الحارس على الاسم قال:

-شكون ولدي ريم المعلمة ماو ولا وحدة من البنات لي يخدمو هنا اسمها ريم.

-لا ريم ما زلت صغيرة موش المعلمة أكيد.

-ايه المعلمة ديال الشركة مازالت صغيرة، شكون نقولها؟

-قلها أحمد كيومة.

عندما خرجتْ، ودخلتُ إلى مكتبها لم أصدق ما رأته عيني، هذه ريم التي صنعت من ضُعفها قوة، تمتعت بنفس القرض الذي تمتعت به أنا قبلها، لكنها هي سعت بشكل حقيقي إلى تطوير مهاراتها وصقلها والإيمان بنفسها وبقيمة العمل، في حين مازال أغلب الشباب من أمثالي يعقدون الأمل على أوراق الرهانات والمقامرة العالمية والدجالين ليخرجوا مما هم فيه. ما زلنا نؤمن بأن العمل لا قيمة له مما جعلنا نبحث عن الحلول السهلة.

رغم الاستقبال الغريب الذي اختتمت به ريم لقاءنا، قامت بطردي من مَعملها، إلا أنني كنت شبه متأكد بأنها ستعود إليَ، قرأت ذلك في عينيها، في طريقة استقبالها لي أول الأمر، في لومها وعتابها.

بعد تلك الزيارة صارت ريم بالنسبة إليّ الملاذ والنموذج الذي يجب أن أحتذي به واحتمي به لأخرج من مستنقعي العفن ذاك، كنت في السابق أفكر فيها كلما استيقظت الغريزة اللعينة التي تذكرني بشذوذي وتجعلني أتحسر على خسارتي للمرأة التي قبلتني كما أنا وكانت تتجاوب وتتمتع بما أتمتع به، لكن بعد تلك الزيارة صارت ريم هي الملاذ الآمن لكل مشاكلي، لخوفي.

صِرت عندما يستبد بي الخوف مما أنا فيه، أستحضر صورتها، نضالها، وأشعر بالأمان وبأن المستحيل ممكن. سأعود إليها، سأرتمي في أحضانها سأشاركها مشروعها، سأجعلها هي القائدة لسفينة حياتي.

امرأة مثلها تستحق أن تكون كذلك. صِرت أحتقر زوجتي سلمى التي ينحصر حدود اهتمامها في جغرافية جسدها، لم أرها منذ تزوجنا بدون مكياج، تهتم بالصغيرة والكبيرة في جسدها. ثقافة الجسد تتكلم، سلمى كأن لا مشاكل بيننا... تتجاهل كل ذلك عمداً لتتحدث عن فوائد الرضاعة الاصطناعية، كان كل خوفها من تشوه ثديها وبطنها بعد الولادة، تريد أن تحافظ على انتصاب حلمتي ثدييها، يا لها من بلهاء كما قالت ريم:

-اكهو شبعت من الحمقى نتاعك سلمى.

رغم أن ريم طردتني لكنها مكنتني من خيط للاتصال بها، صحيح أنها لم تقبلني في قائمة أصدقائها على الفايسبوك، لكنها مكنتني من رقم هاتفها الخاص، أحياناً ترد على مكالماتي الكثيرة وأحيانا أخرى تتجاهلها، لكنني أتفهم موقفها. مستعد أنا للصبر إلى أن تلين. سأنتظر سلمى أن تضع طفلها لأطلقها مباشرة بعد ذلك، صرت أنتظر مخاضها بفارغ الصبر، سبعة أشهر فقط تفصلني عن ريم. عندما أطلق سَيلين موقفها مني أكيد، سأُفاوض تابع إبليس، سأُعطيه ما يريد لأخرج من هذا الخندق، تعبت. لم أعد قادرا على أن استيقظ وأنام كل يوم وكلي فزع من أن يُقبض عليْ وأُرمى في السجن الذي ربما أخرج منه جثة هامدة.

بعد مرور أكثر من شهر على زيارتي لريم، وأنا في المقهى أستمع إلى ترهات إيراتيك وهو يفتي في السياسة، بعدها قادنا الكلام إلى رسالة أسامة الجوادي الحدث التي بعث بنسخة منها لكل الأصدقاء يعزي في موت حويتة ويطلب منا أن نلتقي كلنا في الصيف في مقهى المعراج لنحتفل بمناسبة حصوله على وظيفة طبيب مباشر في أحد مستشفيات كندا...

ليلتها كان الكل يتندر بأسامة وبشذوذه، وليلتها فقط أدركت أن أسامة كان أقل شذوذاً مِنّا كلنا. كل واحد فينا يحمل بداخله شذوذاً من نوع خاص، يتدثر كي لا يظهره للآخرين، ليلتها وافق كل الأصدقاء على حضور الحفلة المزمع إقامتها في مقهاي بمن فيهم جل الأصدقاء الموجودين في بلدان أخرى في الخارج، ليلتها رن هاتفي وكانت المتصلة ريم، لم أصدق، قمت كالملسوع من مكاني مخافة أن ينتبه إيراتيك إلى صوت طليقته وأم ابنه.

-اهلا ريم لاباس شنو المفاجأة المحلاها هذي.

-نحب نحكي معاك. ميسالش؟

-ايه مرجبا وألف مرحبا.

-تنجم تجيني من هنا يومين لسوسة.

-ايه نجم حتى توا كان تحب.

-لا من هنا يومين خذ عنوان الفندق.

لم أصدق أذني، انتشلتني المكالمة من القاع، صَدَقت كل توقعاتي وظنوني، ريم ستكتشف الحقيقة عاجلا أم آجلا، بِتّ أعد الدقائق والساعات لأصل إلى سوسة. ووجدتها في البهو تنتظرني كان أثر التعب والإرهاق بادياً على وجهها الشاحب، عندما سألتها اشتكت من كثرة العمل وإرهاقه، وبأنها هنا للنقاهة بعد أن انتهت من شحن بضاعة الصفقة الأولى في انتظار شحنة المواد الأولية للصفقة الثانية التي ستصل في غضون أيام قليلة لهذا اختارت أن ترتاح قليلا هنا في هذا الفندق. رغم أننا اتفقنا على كل الخطوط العريضة ليومين كاملين عبر الهاتف، إلا أن ريماً بادرتني بعد رؤيتي.

-اشنو تحب مني بالضبط كيومة؟

-نحب ناخوك نعرس بيك برجولية هكا من غير مقدمات.

-كيفاش ومرتك؟

-نطلقها.

-هي حبلى.

-كيفاش عرفت؟

-هههههههههه نهار الكل هي تصور في روحها وكرشها وتهبط على الفايسبوك والأكثر من ذلك تبعث لي إشارة كي أرى الصورة ما زلت حطتني في مخها لتو.

-اش يهمك فيها.

-وقتاش باش طلقها سي كيومة؟

- تولد ونطلقها. اشنو رأيك؟

-معناتها ترجع لريم تحمل وتبوس وتن...ك ومن بعد تجي تقول لي ولدي مرتي واللغة هاذيك.

أقسمت لها بالغالي والنفيس، طلبت منها أن تمنحني تلك المهلة ليس إكراماً لسلمى وإنما لأمي وأبي يجب أن أُهيئهما للخبر، كما أن سلمى بسفر أختها ستفقد عقلها المدبر وسيكون من السهل التفاوض معها بشروط ستكون أقل بكثير بدون حضور خنسه.

اقترحت عليها- كنوع من إبداء حسن النية- استعدادي من الآن وأنا أقسم كل الإيمان الغليظة بأن أشتري لها شقة في صفاقس باسمها، سأدفع المقدم والتسبقة للبنك بينما تتكفل هي بدفع الأقساط وبأنني مستعد لتجهيزها ابتداء من اليوم إن هي وافقت، أمام هذا الاقتراح لانت ريم، عادت إلى طبيعتها اعتبرت أن عرضي هذه المرة يحمل بين طياته دلائل صدق.

قضيت ليلة ولا أجمل، عادت الذكريات الجميلة، والأهم عاد التوازن، عادت الرؤية الحقيقية للحياة، لا، لحياتي، بِت في أحضانها لكنني ليلتها بعد أن فشلت في المحافظة على انتصاب قضيبي الذي خانني منذ الضربة الأولى، ولأنني سأضاجع ريماً، جربت لأول مرة الحبة الزرقاء. ليلتها لم ننم، كأننا كنا نُعانق سنوات من الاشتياق والجوع عندما يقترن الجنس بالدموع بالصفعات بالصراخ بالحب نعم. أية لذة يتركها في النفس، استيقظنا ونحن نغني ونقبل بعضنا بين الفينة والأخرى.

-تعرف يالمهبول من الأول قلت ليك احنا لبعضنا.

-ايه ريم والله مهبول ماكنتش نعرف سامحني.

-نحبك نموت عليك.

-سامحتني.

-من قلبي

-نحبك نحبك بحبك قلتها بأعلى صوتي.

وأنا أُقبلها كانت أول مرة أشعر فيها بسعادة منذ أمد طويل، يومها بدأت السعادة تَشقّ طريقها إلى قلبي، لم أكن أرغب أبدا في مفارقة ريم، ثلاثة أيام في الفندق لم نفترق سبحنا سويا، رقصنا ثلاثة أيام وأنا أتناول الحبة الزرقاء أشعر أحيانا بأن قلبي سينفجر، سيخرج من بين ضلوعي نبضاته تتسارع العرق يتصبب من جبيني، لكنني كنت سعيداً ولم أفكر في التوقف، أن أُسعد ريماً هذا هو الشعار، ريم تعرفني فحلاً ويجب أن أبقي في نظرها كذلك. لم نكتف بالجنس كنا ندخن السجائر المحشوة بالماريخوانا معا.

عدت إلى تونس هذه المرة مُفعماً بالأمل، أصبح طريقي الجديد أكثر وضوحاً من ذي قبل، كما عُدت أكثر من مرة إلى مدينة صفاقس، كل معالم عالمي الجديد أصبحت واضحة، الشقة مجهزة وفق رغبة ريم وذوقها حيث نقضي فيها عطل نهاية الأسبوع، مشروع المقهى السياحي الذي سأفتتحه هناك غدا واضحا، كل الاتفاقات المبدئية تمت، ينقص التنفيذ فقط، أبي وأمي أصبحا على علم بكل خططي بما فيها طلاقي لسلمى، عبشة الوحيد الذي سآخذه معي من عالمي القديم، اقترحت على صاحب المبنى الذي سأستأجره أن يقوم ببناء غرفة تابعة للمقهى لعبشة.

سلمى الوحيدة التي مازالت غائبة عن كل خططي، رغم إيماني الأكيد بأنها تعرف أن النهاية وشيكة، لكنها تُناور للحصول على أكثر امتيازات مُمكنة وخصوصا شقة حي النصر التي أفكر في بيعها لأسدد بثمنها تكاليف تجهيز المشروع الجديد، وكذلك لأحرر نفسي من عبوديتي لتابع إبليس أحتاج إلى الكثير من المال لأسترد حريتي أنتظر كل يوم مكالمة السماسرة الذين وضعت رهن إشارتهم مسألة بيع الشقة دون علم سلمى بطبيعة الحال.

في حفلة أسامة الجوادي اكتشفت فيها جبني الفظيع، وذلك عندما اعترف الأخير بشجاعة منقطعة النظير أمامنا بما يعتبره الناس شذوذاً وبما اعتبره هو حالته الطبيعية التي وُجد عليها والتي لا دخل له فيها لأنه وجد نفسه دون علمه دون إرادة منه كذلك.

شكرنا كلنا على الرفقة الجميلة وتقدم بالشكر لي شخصياً. وقال:

"أنه كان من الضروري أن يُصارحنا هو بحقيقته التي كان يقرأها في عيوننا لأن ذلك سيساعده ليتصالح مع ذاته ويقبلها كما هي وأنه لم يعد يشعر بالخجل من حالته تلك لأنها لا تنقص من كونه إنسانا ومن إنسانيته ومن دوره كعضو في هذا المجتمع وعلى هذه الأرض".

أثّر فيَ ذلك أيما تأثير، تمنيت لو امتلكت جزءاً بسيطاً من شجاعته لأتكلم لأعبر عما يجول في خاطري. قال أسامة إنّه سيعتبر هذا آخر لقاء له بنا بشكل رسمي ما لم تتدخل الصدف لتجمعنا بأحد الأصدقاء دون ميعاد، لأن قوانين الحياة هي من تفرض هذا الفراق المُر بالجذور، المكان، الناس، الأقارب أحيانا لأننا كالأشجار ننمو لنعانق السماء ولا نستطيع أبدا أن نلامس الأرض التي خرجنا منها إلا بعد السقوط.

الرحيل

.كانت القسوة خطيئتك وكان الحب خطيئتي وحين التحمت الخطيئتان كان الفراق مولودهما

هل يمكن للحياة، للحظ، للسعادة، للحب... أياً كان المُسمى، أن يتحقق بشكله الكامل، أن نعيشه كما نتصوره في مخيلتنا وأحلامنا ونحن في رحلة السعي المضنية تلك لنُحقق ما نصبو إليه. النجاح، الحب، السعادة، الذرية، المال... كل هذه الأشياء أيمكن أن تتحقق دفعة واحدة وبالشكل وفي الوقت الذي نريده؟ لا أعتقد. إن المتأمل في حياة الشعوب والأفراد على حد سواء، سيدرك ذلك، لا المتأمل في سيرورة حياته البسيطة التافهة سيدرك ذلك.

نجحت، حققت جل ما أصبو إليه. في لحظة اعتقدت بأنني أسعد امرأة في الحياة، كل شيء جاء كما خططت له، والأهم عاد كيومة كما كنت أريد أن أراه، عاد كما تصورته أول ما التقيته، لم يعد يرى من النساء غيري، قدّم لي كل ما أريد، وقتها ظننت أنني إنسانة أكثر من عبقرية انتصرت على الطبيعة نفسها، استطعت أن أُطوع كل شيء في حياتي، طوُعت وضعي الاجتماعي، استطعت أن أُطور مهاراتي، أن أجعلها تتفوق على حالة الكساد والفشل في البلاد ككل، استطعت أن أكون أُماً هذا في حد ذاته إنجاز، والأكثر من ذلك استطعت أن أتغلب على شذوذي نعم.

قرأت أكثر من كتاب عن السادية الجنسية، لقنت ما قرأته لكيومة الذي أصبح وجوده في حياتي هو المحور كأي امرأة لا يمكن لحياتها أن تكتمل أن يصبح لها معنى بدون رجل تحبه وتذوب بين أحضانه، أنا وكيومة لم نكن نشكل ثنائياً عادياً.

قدّم لي كيومة الكثير من الضمانات بأنه سيُسعدني ولن يتخلى عني مجدداً. حتى سلمى سينتقم منها إكراماً لي، سيُجردها من كل شيء، سيبيع شقة النصر ليستأجر لها وابنها شقة في حي شعبي مع مبلغ ثلاثمائة دينار للشهر، هذا ما أكده له المحامي وهذا أقصى ما يمكن أن تصل إليه عبر المحاكم. كل ما أردته وكان باستطاعته أن يقدمه لم يبخل به عني، لكنه لم يستطع أن يزيد يوماً آخر شهراً، عاماً في عمره إكراما لي إكراما للسعادة التي ِبت أستشعرُها معه.

مات كيومة فجأة كما عاد فجأة، مات في شقتي وبين أحضاني. اعتقدت بادئ الأمر أنه يُمازحني ويتصنع عدم الرد ليُخيفني، وهو من كان قبل قليل يصفعني ويُضاجعني بقوة. يموت هكذا دون مُقدمات، يسقط أمام ناظري وأنا أنظر إليه كيف يتهاوى والعرق يتصبب من جبينه، ومعه تتهاوى كل أحلامي، سعادتي، حياتي...

أمه التي حضرت برفقة أبيه في تلك الساعة المتأخرة من الليل، لم يكن يهمها من الأمر إلّا الفضيحة التي سيُورثها لهم إن علم الناس أنه مات في شقة امرأة مشبوهة تفوح منها رائحة الخمر.

-بقيتي تبعي فيه حتى جبتي اجلو سحُورات ودكاكز، نسيتو في مرتو كي القمرة، ولّى يتبع في وحدة كيفك لا تربية ولا زين تتكيف، تشرب الشراب. البخوخو يعمل منك لربي.

-والله لولا الفضيحة ومرتو المسكينة لنجرجرك في المحاكم يا هاملة يا ساقطة يا قح...ة قتلتيه.

مات كيومة ولم أحضر عزاءه. تلقيت الإهانات من أمه بدل أن تُواسيني، كانت تُواسي سلمى التي تكرهه. لماذا مات في ذلك الوقت؟ ما هي الأشياء التي تتدخل لتجعل فتاة بلهاء تنتصر على واحدة مثلي؟ ماذا نحتاج في رحلة الحياة اللعينة هذه؟ الذكاء، الإرادة، القوة... كل هذه الأشياء تنهزم أمام شيء واحد: الحظ.

يستطيع ذو الحظ الجيد أن ينتصر على القوي وعلى... وعلى... وسلمى انتصرت عليَ بحظها. لم أرَ علامة الانهزام والقهر في عينيها كما كنت أُمني النفس، بل رأيتها تتمتع بكل ما تركه كيومة من متاع وراءه، تتمتع بحب أبويه باسمه. بكل شيء، بينما أتمتع أنا بالحسرة. والأكثر من ذلك بعد عامين ونيف تزوجت، ممن؟ من طليقي. لم تكتف بذلك بل جعلته يعتقد أن ابنه مني ليس من صلبه، هي من أخبرته بأن كيومة مات في شقتي وبين أحضاني.

لم يكن ليهمني أمره في شيء رغم المرارة التي خلفها في نفسي ارتباطه بها، وابنه الذي لم يعد يزوره ولا يسأل عنه، تنازلت وقبلت خضوعه إلى تحليل تحديد النسب قبل أن يفهم، كم حز ذلك في نفسي؟ كم شعرت بالقهر بالإهانة؟ كرهته وقتها أكثر من أي وقت مضى، لكنني كنت مجبرة على أن يكون لولدي أب يهتم به وينادي أبي؟ كان هذا فقط يكفيني ويكفي ابني.

تساءلت هل كانت هذه الحرباء التي أصبحتُ مجبرة على أن أتعايش معها رغماً عني رحلة حياتي اللعينة. هي من تترصدني أم أن الحياة هي من تضع أمامنا وفي طريقنا الأصدقاء، الأعداء، الحب، الكراهية، المال، الفقر، الصحة، المرض... لترى كيف سنتصرف لأننا فعلا لا نمتلك أي شيء حقيقي؟ لماذا كان يتعاطى الفياغرا، لماذا؟ لماذا؟ لم يخبرني، لماذا؟ هزمني موته، جعلني محطمة مهزومة وسط دائرتي تلك، كل النجاحات الأخرى لا تهم المرء في شيء، ما يهمه أن ينتصر داخل حدود دائرته،

هذا فقط ما يجعله يُحس بالزهو والافتخار، أنا انهزمت، صور سلمى في حفل زفافها مع طليقي وهما يركبان سيارة كيومة، كنت أُمني النفس بقهرها وإذا بها هي من قهرتني، كنت أنتظر يوم طلاقها من كيومة بفارغ الصبر لكنه مات قبل أن يفعلها، كان مُبرمجاً أن يكون شهر العسل في تايلاند، حيث لن يخونني هناك كما خانها، حتى تعليقات الفايسبوك كانت في مخيلتي لأنال منها، سأكون في تايلاند مع كيومة في حين سأتركها تتجرع الذل في شقة في حي شعبي.

لكن الحظ... والحظ وحده من جعلها تنتصر. إلى حد الساعة صُورتها عالقة في ذهني، عندما حضرت مع طليقي إلى المحكمة حيث دفع كل ما طلبه منه القاضي من نفقة إثر القضية التي رفعتها ضده بدعوى إهمال عيال، هناك ذبحني أمام أمي وأبي اللذين رأيت علامة الشك في عينيهما، عندما طلب محاميه من القاضي إجراء الفحص الطبي لإثبات النسب لأن موكله يشك في نسب ابنه له، خصوصاً أن المدعية هي من تركت منزل الزوجية متنازلة عن كل حقوقها في السابق ولم يكن موكله يعلم بأمر حملها منه بتاتاً. الخنزير اللعين أنكر.

بعد انتهاء الجلسة قَبّل يديها أمام ناظري، كانت هي من دفع المال، أرادت أن تنال مني، أن تُحطمني... أبي وأمي لم يمهلاني لأتجرع كؤوس القهر التي أسقيانيها كل من سلمى وأحمد، شرعا في استجوابي إن كانت شكوك طليقي في محلها، هما أيضا تسرب الشك إلى قلبيهما، خصوصاً أنهما كانا يعرفان علاقتي بكيومة في الأيام الأخيرة. لو لم أُحصن نفسي بالمعمل والمال لوجدت نفسي طريدة متشردة في الشارع.

أخضعت ابني للتحليل الملعون مضطرة، عندما طُلب منا الحضور سوياً لمعرفة النتيجة التي كنت متأكدة منها سلفاً، بصقت على وجهه أمام موظفي المخبر، تمنيت لو كانت حاضرة لترى، لكنها كانت تعرف، الأفعى كانت تعرف الحقيقة، سلمى التي لا ترى إلا نفسها ربما العيب

فيَ، أنا، لم أستطع أن أكون سلمى، رغم كل محاولاتي اليائسة، لأننا كلنا في رحلة البحث لنكون سلمى. وأنا الآن أحاول مرة أخرى أن أشحذ إرادتي، قوتي، لأخرج من ركام التعاسة الذي يلاحقني. سأحتاج للكثير من الوقت، ربما أنجح ربما أفشل لكنني بت متأكدة بأن المحظوظين الذين يولدون محظوظين يحتاجون للحظ فقط.....

الأستاذ التائه

إن الانسان قد يطلب الحقيقة أحيانا ولكنه لا يستطيع أن يعثر عليها وهو مضطر إذن أن يخلق بأوهامه حقيقة خاصة به تعينه على حل مشاكل الحياة.

علي الوردي

لم أصدق الخبر عندما سمعته، كانت سلمى أول من اتصل بي مع الساعة الثالثة فجراً، أُصبت بالهلع عندما رأيت رقم هاتفها في تلك الساعة المتأخرة، ظننت أن كيومة اكتشف أمرنا.

-أحمد كيومة مات.

-اه اه كيفاش وقتاش؟

-امانك أنا مفجوعة توا كلمتني أُمو، قالت لي نجي جيب طاكسي وإيجا هزني.

-كيفاش مات؟

-ما نعرفش مات واكهو.

كالعادة قمت بتنفيذ كل ما طلبته. في خضم الحدث لم ينتبه أحد لوجودي بجانبها، كان هناك كل من حسونة وعائلته، تزامن دخولي مع خروج الطبيب من غرفة الميت المُبتسم، الطبيب الذي أكد حسب تصريح حسونة أن كيومة مات نتيجة سكتة قلبية بسبب جرعة زائدة، لكن سلمى فيما بعد قالت إنه مات بسبب حبوب الفياغرا وهو برفقة ريم وفي شقتها في مدينة صفاقس.

والجمْعُ الغفير يُودع كيومة الذي تمتزج داخل صدورنا تجاهه أحاسيس مُختلفة متناقضة بين الحب الشديد والكراهية، اليوم ونحن نودع "كْيُومة" الذي ظهر في حياتنا فجأة دون سابق إنذار، ولم تنفع كل نيات العزم التي عقدناها آلاف المرات ونحن نُقسم الإيمان الغليظة بأن نقطع صِلَتنا به.

كلّما عقدنا العزم على ذلك وجدنا أنفسنا نلتقي دون ميعاد في ذاك المقهى اللعين، مقهى "المِعراج" الذي شهد كل مُجوننا، كل آلامنا، قصص حبنا. "كيومة" الذي شاركني حب ريم، والذي شاركته حب سلمى، كم كنت أود قتله، لكنني عندما أراه يختفي الحقد ويحل مكانه شيء آخر لا أفهمه ولم أفهمه إلى حدود الساعة. "كيومة" كان في حاجة ماسة إلى كل الأشخاص أمثالنا. وكنا وما زِلنا كلنا معشر الشباب التائه في حاجة أكثر من ماسة إلى أشخاص مثل كيومة، يموت واحد لتُنجب الحياة آلاف "كيومة" كل يوم. هذا زمانهم.

هل شخصية كيومة هي خِضر هذا الزمان دون أن نعرف. أم أنه لا يعدو أن يكون مُهلوساً تاجرَ مخدرات حقير، هو من زرع حبة "الاكستازي" أول مرة في فمي لتنقلني إلى عالم السحر الجميل دون جواز سفر، لأنسى وأهجر عالمي القبيح يومها في ذياللك العالم التقيت أحلامي في صورة الكمال.

بعد تشييع الجنازة. أحمد إيراتيك وهو يحتسي فنجان القهوة في مقهى كيومة القريبة جدا من المقبرة التي وُوري فيها صاحبها التراب، ينظر ببلاهة إلى حْسُونة الذي لم يستفق بعد من هول الصدمة وعْبَشّة صديق كيومة ومساعده المُخلص المرافق له في رحلة عمره تلك، لم يكن يفرقهما إلا النوم عْبَشّة الذي فقد عقله صار في حالة أقرب منها إلى الجنون، أصر على فتح المقهى محاولا عبثاً الاتصال بكيومة ضاحكاً وهو يَسُبه.

-تلقاه تعدى ف الطويل ما زال راقد توا نمشي لو للدار نفيقو نعرفو نومو رزين.

يومها لم يشارك عْبَشة في تشييع جنازة صديقه، رفض تصديق الأمر، اعتبرهم كلهم مهلوسين تحت تأثير حبوب الهلوسة ويريدون النيل منه بخبر كهذا. فجأة يتوقف، ينظر للجمع ببلاهة ليتأكد إن كان ما يقوله الناس صحيحا.

-هل مات كيومة فعلا؟

-كيف يرحل هكذا دون أن يأخذني معه؟

عندما يخبره حسونة وهو يبكي أن كيومة مات فعلا ينتحب عبشة لساعات وهو يتذكر مناقب صديقه ويلومه على تركه له.

-لشكون باش تخليني كيومة؟

- ما عندي لا بو لا أم؟

- لشكون باش تخليني صاحبي؟ لا مش صاحبي خويا لا لا أكثر أكثر...

-ما عنديش مرا ماعنديش ولاد ماعنديش صحاب...

-مع شكون باش نسهر؟ لشكون باش نحكي همومي...؟

-شكون باش يتفكرني نهار العيد...؟

-مع شكون باش نعيد...؟

بعد ذلك يرفض تصديق النبأ يقوم بالاتصال بكيومة. لا أحد يجيب.

لا،لا، لا، لا يمكن لكيومة أن يموت هكذا فجأة، لا. كيومة مات يجب أن أرحل يجب أن ألحق به الآن الساعة.

يَهُم عبشة بقطع شريان إحدى يديه، أمسكه أنا وحسونة نحن فقط من يعرف ماذا يعني كيومة بالنسبة إليه، بينما ينظر باقي الحرفاء باستغراب إلى هذا المشهد التراجيدي الذي أمامهم.

بعد عودتي من تشييع الجنازة اتصلت بريم التي وجدتها في حالة يُرثى لها، زاد من شكي ما قالته سلمى، لكن ريم أنكرت موت كيومة عندها وهي تبكي طالبة مني عدم التدخل في شؤونها وأن أدعها وشأنها. مفارقة غريبة، أكثر الناس ربما حُزناً على فراق كيومة كانا ريم وعبشة وجماعة كبيرة من المدمنين الفقراء الذين كان يتصدق عليهم كيومة من حبوبه وحشيشه، ريونة نفسه كان في حالة أقرب منها للجنون إلى العقل ورغم ذلك حضر، رأيت علامة التأثر في عيون كل من أسامة الجوادي وباقي الأصدقاء، أنا لم أعرف حقيقة مشاعري، اختلط عليَ الأمر ولم أعد قادراً على تحديد ما أنا فيه، بت أعيش في شك مُميت.

مات كيومة دون أن يعرف حقيقة علاقتي بزوجته، مات ليجعلني أتأكد بما لا يدع مجالا للشك بأنه هو الآخر كان على علاقة بزوجتي طليقتي... لا أعرف. ابن ريم، ابن من إذاً؟ ابن سلمى ابن من إذاً؟ لم يشف غليلي أحد، لا ريم ولا سلمى، بت أعيش في سرابٍ. كل ما حولي عبارة عن خدع، حتى سلمى بعد موت كيومة لم تعد كما كانت.

جاءت ريم بعد أسبوع تقريباً من موت كيومة، هذا ما قيل لي، لم أعرف الحقيقة عندما سألتها أنكرت كل شيء. قيل إنها وجدت هناك على قبر كيومة عبشة في حالة يرثى لها يبكي صديقه، تعانقا فوق قبره وبكياه معاً، هذا ما قاله حارس المقبرة، بعد ذلك قيل إنّ عبشة لم يعد يراه أحد في المدينة ذهب بصحبة ريم إلى صفاقس حيث أصبح يعمل معها في مصنعها. الذي افتتحته ولم أكن أعلم بذلك ولم يكن ليهمني، لكن عندما علمت سلمى غضبت لأسبوع كامل وهي تؤكد أن المعمل معمل زوجها ومن نقوده، لم تكتف بذلك قامت بجميع الاتصالات لتعرف إن كان كيومة شريكاً من قريب

أو من بعيد في معمل ريم الذي أصبح فجأة محور حديث الشلة وكذلك المقهى السياحي الذي كان سيفتتحه كيومة هناك.

رحل كيومة تاركاً وراءه سلمى أُمّا لولده أو ولدي الذي لم يُولد بعد ما فائدة ذلك ما دام سيحمل اسم كيومة ولقبه، رحل سعيدا، هو من حقق جُل أحلامه الجميلة والدنيئة، سرقة، اغتصاب، اعتداء.... كل هذا ولم يدخل السجن أبدا، أمثال كيومة لا يدخلون السجن. مازال الكثير منهم يعيشون بصخب كبير فوق هذه الأرض، تجدهم في المدارس، في الشوارع .... يزرعون ....

تزوجت بسلمى بعد عامين ونصف تقريبا، المدة التي استغرقتها في التفكير كما قالت. كانت تتقرب من عائلة زوجها حتى حصلت منهم على تنازل كامل في حق ميراث ابنهم. بعدها قامت بترتيب كل أملاكها وأمورها المادية ورفضت عرض أخ كيومة للارتباط بها هذا العرض الذي دعمته كل العائلة، لكن سلمى رفضت كما قالت إكراماً لي ولحبي. عامين ونيف وأنا أنتظر قبل أن تُقرر أخيرا الارتباط بي بشكل رسمي، لأن ارتباطنا لم ينقطع أبدا مارسنا الجنس بعد ثالث يوم من وفاة كيومة زوجها.

وجدت نفسي وريثاً لكيومة في كل شيء، لم أصدق كل تلك المبالغ التي حصلت عليها زوجتي سلمى من تصفية مقهى المعراج ومن استئجار شقة حي النصر والمبالغ المودعة في البنك باسم الفقيد. صحيح أن كل شيء باسم سلمى لكنني مع ذلك بت أتمتع بما تركه الفقيد، يكفي أنني أقصد كل يوم معهد الفجة حيث صرت أُباشر عملي في سيارة كيومة الفخمة.

سكنت المنزل الذي دخلت إليه أول مرة منبهراً وضيفاً، غدوت من ساكنيه بعد أن رحل كل من حسونة وخنسة.

عدت يوماً من العمل وجدت سلمى وحدها تحمل ابنها، ابني، ابن كيومة اشتممت رائحة دخان أو هكذا خُيل لي.

-يا خي ريحة دخان كان عندك شكون اليوم؟
-لاباس في مخك ولا شنو.
عادت الدوامة عاد الشك هذه المرة يقتحم عليَ خلواتي، يجعلني أستحضر ذكريات خيانتي لكيومة في عقر داره رغم يقيني التام أن ما حصل في السابق كان نتيجة ظروف مرتبطة بالزمان والمكان، لا يمكن أن تتكرر الا إذا توافرت نفس الظروف، وبت أعتقد جازما أنني بشكي أسعى حثيثاً لخلق تلك الظروف، رغم وعي وإدراكي بما أنا فيه ومحاولاتي العديدة كتم بذور الشك تلك التي تفرزها الذاكرة اللعينة. أفشل في بعض الأحيان... أفشل وأنا لا أعرف إن كنت سأنجح أو أن هذا الشلال سيقتحم عليَ خلوتي، سيستغل موقفاً بسيطاً ليقلب حياتي مرة أخرى رأسا على عقب، أنا أحاول... أحاول بكل ما استطعت وما أوتيت من قوة أحاول أيضا صناعة البسمة صناعة الفرحة، والأهم صناعة المتعة من رُكام الخيانة من أموال كيومة المهلوسة. هل صرت شريكا له؟ أم أنني كنت ومازالت أنا وأمثالي كلنا شركاء في صنع عالم القتامة والهلوسة الذي نعيشه حتى الساعة.؟